زمن القَرْع

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: زمن القَرْع
التأليف: سيد الرشيدي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 272 صفحة
عدد الملازم: 17 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2024/1948
الترقيم الدولي: 978-977-669-7805

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر.

حكاية للإنتاج الفني

hakayaproduction@gmail.com
01551751909 _ 01096476744

رواية

زمن القَرْع

سيد الرشيدي

عطاوي
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أصحاب القلوب المرهَفة عالية الأحاسيس والمشاعر التي تُحبُّ بإخلاصٍ، وتعيش من أجل الآخرين...

وإلى الذين شجعوني، وكانت كلماتهم تُحيي الأمل فيّ، وتُنير طريقي، وتعطيني دفعةً للاستمرار والتقدم والنجاح.

فجاءةً سافرت أمل إلى الصعيد هي وأولادها وأبوها وأمُّها وابن عمِّ زوجها سالم إبراهيم مرشود، لأن الأستاذ «سالم» أخبر والدَ أمل بأن «حامد» زوج أمل مات بالسكتة القلبيَّة المفاجِئة بالأمس، ولكنَّهم قرَّروا ألا يُخبروا أمل ولا الأولاد بالحقيقة، وقرَّروا أن يُخفوا عنها هذا السرَّ، ويقولوا لها: إنه مريضٌ بالمستشفى، ويريد رؤيتَك أنتِ والأولاد، واتَّفقوا على ذلك.

وعندما أخبروا أمل بذلك، وأنهم لا بد أن يسافروا الآن حالًا وبسرعة، وجاء سالم لبيت ابن عمِّه حامد، ليأخذهم بسيَّارته إلى الصعيد في الصباح الباكر. وركب الجميعُ السيارة، وتوجَّهوا للصعيد من التجمُّع الخامس، وأخذوا الدَّائري مرورًا بطريق الأُوتوستراد ومرورًا بحلوان. وفي السيارة التزم الجميعُ الصَّمت، وخيَّم عليهم الوجوم والحذر حتى لا تلاحظ أملُ شيئًا.

قد ظهر على وجه أمل الحزنُ والخوفُ، تسأل «سالم» باندهاشٍ وخوفٍ:

– ماذا حدث يا أستاذ سالم؟

– سالم يردُّ بنبرةٍ حزينةٍ: حامد تَعبان.

– أمل والدموع في عينيها: هو مُتعَب لدرجةِ أن نُسافر فجأةً، وعلى عَجَل؟

– أكيد في الأمر شيء وهناك أمر خطير؟

– وتسأل أباها وأُمَّها وهي تبكِي: أنتم تخفون عنِّي شيئًا!!

– ماذا حدث؟ قلبي ليس مطمئنًا، وأشعر بقلق يا أمي؟!

أمُّها تنظر لها بحزن، وقلبها يتقطَّع من شِدَّة الحُزن والألم؛ لأنها تعرف أن «حامد» قد مات، وتكتم السرَّ في قلبها خوفًا على ابنتها، وبسبب ذلك تشعر أنَّ بقلبها نارًا وبراكين، وعندما تنظر لابنتها وهي تبكي تكاد أن تنفجر بالبكاء، لكنَّها تحبس دمعها بقوَّة خوفًا على ابنتها من الصدمة، وتحاول أن تبتسم وتُلطِّف الجوَّ وتُصبِّرها: لا تقلقي ولا تخافي يا روح أمِّك، هو جيد لكن هُم اتَّصلوا بنا وقالوا لنا: يَودُّ أن يراكم.

– أمل وكلها حزن وأسى، والدموع تنساب على وجنتَيها بغزارة: لا يا أمِّي، قلبي يقول غير ذلك، أنا قلبي لا يكذب، وإحساسي أن «حامد» مات أو في حالة صعبة؛ لأنه لم يتَّصل بي منذ أمس يطمئِّني عليه، وهي تمسح دموعها التي تنساب بقوَّة: يا أمي، حامد في اليوم يتصل بي مرتين أو ثلاثًا، من أمس بالليل لم يتَّصل، لا لا، هناك أمر خطير متعلِّق بحامد.

– أمها وهي تكتم الأسى والحزن: لا تقولي ذلك يا حبيبتي، أكيد خير إن شاء الله.

– سالم يقود السيارة، ووالدها في المقعد الأمامي بجوار سالم، ينظران لبعضهما بحزن وأسى، ويكتمان الدُّموع خوفًا على أمل والأولاد، وسالم قلبه يتقطَّع، يريد أن ينفجر ويصرخ ويبكي؛ لأن كتم البكاء يكاد أن يقتله، ولكنه يتمالك نفسه، ويقود السيارة بكلِّ ثقة وثبات.

أمل تسأل سالمًا وهي تبكي وتقول بحزن: أستاذ سالم، متى آخر مرَّة اتَّصل بك حامد؟

حاول أن يتهرَّب من الإجابة، لكنه لم يستطع، فقال وهو يتلجلج: أمس البارحة، لا تقلقي يا أم سالم، إن شاء الله حامد بخير.

هو به وعكة صحية في مستشفى نجع حمادي، وممكن نروح نجده في البيت إن شاء الله.

– أمل تشعرُ بأن هناك مفاجأة غير سارة تنتظرها بالنسبة لحامد؛ لأن قلبها يُحدِّثها أن زوجها حبيبها قرَّة عينها في أزمة شديدة، وربما يكون قد مات؛ فقلبها يؤلمها بشدَّة على حامد، لكنها تحاول أن تبتعد عن هذا الظن، وتقول في نفسها: لا، هو أكيد مريض جدًّا، أو أصابته وعكة صحية، وتحاول أن تبتعد بكلِّ قوَّة لكن الشك والظن والتفكير يسيطر عليها، تحاول الهروب، وتنظر لأولادها لتهرب من التفكير لكن لا تستطيع؛ لأن دموعها لا تتوقَّف، والحزن والألم يُوجعان فؤادها. ارتفع ضغطُها ودرجةُ حرارتها، وزاد نبضُ قلبها، وشعرت بالقلق والخوف على زوجها.

شَعَرَت بهذا كلِّه عندما حاولت الاتِّصالَ بكلٍّ من سعيد أخي حامد ولم يردَّ عليها، وكذلك اتَّصلَت بأخيه عليٍّ الأكبر تليفونه مغلَق، حتى أنها اتَّصلَت بجنَّات ابنة سالم، وكان تليفونها مغلقًا، كلُّهم يخافون من مواجهة أمل، حتى لا يُخبروها بموت حامدٍ حتى تصل للقرية وتعرف؛ لتكون الصدمة عليها أخفَّ قليلًا.

ولَّما لم يرُدَّ عليها أحدٌ زاد الشكُّ وتوتَّرَت أكثر، حتَّى أنها سألت الأستاذ سالمًا، ولا يزال القلق والخوف يسيطران عليها، والدموع تحرق مقلتَيها، وتنساب على وجنتَيها: أستاذ سالم...

– فردَّ بهدوء وهو يتمالك نفسه، ولكن الأسى والحزن يُمزِّق قلبه:

– نعم يا أُمّ سالم.

– أمل: اتَّصلتُ بجنَّات، تليفونها مغلَق.

– سالم –بهدوء لكن قلبه حزين جدًّا على ابن عمه، أعز الناس عليه، وحبيب عمره: ممكن تكون نائمة –وهو يحاول إخفاء حزنه– حتى أنا رنيت عليها تليفونها مغلق، لا تشغلي بالَك يا أمّ سالم، نحن أوشكنا على الوصول لمدينة نجع حمادي.

– أمل لسالم: أستاذ سالم، ممكن نستريح قليلًا في الكافتيريا القادمة.

– سالم: حاضر يا أم عاصم من عيوني، نحن الآن في آخر محافظة أسيوط، ويوجد كافتيريا قريبة سوف نستريح فيها قليلًا.

–أمل، بحزن: نعم أعرفُها، كُنَّا نستريح فيها عندما نسافر إلى الصعيد أنا وحامد والأولاد.

عندما سمع سالم كلماتها كأنَّ شيئًا طعنه في قلبه طعنة شديدة، ولم يستطع أن يكبح دموعه، وقد امتلأت عيناه بالدموع، وركن السيارة في الكافتيريا ونزل بسرعة، ولا تزال الدموع في عينيه، وأخذ طريقه للحمامات ليوُهم أمل أنه يريد دخولَ الحمام، وعندما بَعُد انفجر في البكاء والنَّحيب حزنًا على ابن عمه وصديقه، وأعز الناس إلى قلبه، ولقد تأثر بكلمات أمل تأثرًا بالغًا، ولقد ملأ القلق قلبه خوفًا على أمل والأولاد من الصدمة عندما يصلون للقرية.

أمَّا أمل وأمها وأبوها والأولاد فقد دخلوا الكافتيريا بعد دخولهم الحمامات.

وهم جالسون في الاستراحة قال لها والدُها:

- يا أمل، أُحضِر لكِ سندوتشًا يا بابا؟

فردَّت عليه، والحزن بادٍ على ملامحها، والدموع تنساب بغزارة على خديها وقالت:

- لا يا بابا أشكرك، لا نفس لي يا حبيبي.

فقال بحب وحنان الأب: لا بد أن تأكلي يا أمل؛ لأنك منذ الصباح وأنتِ على لحم بطنك، والسفر طويل يا بابا.

فنظرت لأبيها وعيناها تمتلآن بالدموع: كيف آكُل يا أبي، وتليفون حامد من أمس مغلق؟!

- كيف أذوق طعامًا وأهنأ وأنا لا أعرف عن حبيبي أيَّ شيء، ولم يكلمني ولم يخبرني عن أحواله؛ أنه جيد أو تعبان، ولا أعرف عنه شيء كيف يا أبي؟!

تأثر والدُها بكلماتها، واغرورقت عيناه بالدُّموع فاستأذن وهو يخفي دموعه، ويحبسها بقوَّة: أنا ذاهب للحمَّام.

وعندما بَعُد قليلًا عنهم انفجر بالبكاء، وأخذ يدعو وهو ينتحب: ربنا يصبرك يا بنتي، الصدمة ستكون شديدة عليكِ، وأخذ يدعو ويطلب من الله أن يُهوِّن عليها المفاجأة والصدمة.

دخل الحمامات، وتوضَّأ وصلَّى صلاةَ الظهر قصرًا، وجمع معه العصر، ورفع يديه للسماء، وقال: اللهم إنك قد كتبتَ علينا الموت فارحم «حامد»، وهوِّن على ابنتي الصدمة، وارزقها الصبر والسلوان يا ربَّ العالمين.

ذهبت أمُّ أمل للسوبر ماركت التابع للكافيتريا، واشترت للأولاد شيبسي وماء وملتو، وقالت للأولاد: كُلوا يا حبايبي....

فنظر لها سالم أكبر الأولاد نظرةَ حزنٍ:

- شُكرًا تيتا، لا نفس ليّ، وقال: أنا قلقان على بابا يا تيتا.

فبكت أمُّ أمل تأثُّرًا من كلام سالمٍ:

- لا تخَف يا روح تيتا، بابا زيِّ الفل، ستراه وتسعد به وبرؤيته يا حبيبي.

وحضنته حضنًا قويًّا، وهي تبكي وهو يبكي في حضنها.

سالم هو أكبر إخوته، يبلغ من العُمر سبعة عشر عامًا، في السنة الثانية من المرحلة الثانوية، وهو أكثر الأبناء شبهًا بابيه، واسمه على اسم جدِّه والد أبيه.

وهُم كذلك حضر الأستاذُ سالم، وقال:

- خلاص ممكن نتحرك الآن.

تحرَّكوا من الكافتيريا متوجِّهين لنجع حمادي، وبين نجع حمادي ومحافظة سوهاج حوالي مائة كيلو متر.

الجميعُ لزم الصمتَ، ولكن أمل تفكِّر في صمتٍ: ماذا حدث لك يا حامد؟! وتسرح بنظرها يمنةً ويسرةً، عن شمالها الجبل الشرقي بمنظره البديع، وعن يمينها نهر النيل بمائه الرقراق، وزرقة مائهِ وجمال طبيعته الخلابة، وهي التي تعشق هذه المناظر البديعة، لكن كل ذلك لم يشدَّها؛ لأن ذهنها مشغول بحبيبها الغالي والزوج الحنون، وحبِّ عُمرها وأجمل شيء في الوجود لها، وقد ظهر عليها الإعياء، وذبُل رمشها الجميل الرائع من كثرة البكاء والحزن، واحمرَّت عيناها الواسعتان الرائعتان اللَّتان كان يتغزل فيهما حامد كثيرًا، ولقد احمرَّت وجنتاها من كثرة الدموع، وارتفع ضغطُها من كثرة التفكير.

وكانت ترتدي خمارًا سماويًّا أضاف لها جمالًا على جمالها الطبيعيِّ الجذَّاب....

مشغولة بحامد تفكر فيه، وقلبها يُحدِّثها أن زوجها ليس بحالة جيدة، بل هناك مفاجأة غير سارَّةٍ تنتظرها.

وهي غارقة في التفكير كان سالم قطع مسافةً بالسيارة، واقترب من خزان نجع حمادي.

انتبهت أمُّها وقالت لها بحنان الأم:

– أمل؛ اقترَبْنا من الوصول يا حبيبتي.

– ردَّت أمل هازة رأسها وبتنهُّد قالت: آه يا ماما.

فقالت سلمى الصغيرة بفرحة: ماما قربنا نوصل عشان نشوف بابا، أصله وحشني جدًّا.

عندما سمع الجميعُ كلامَ سلمى كادوا ينفجرون بالبكاء، لكنهم حبسوا الدُّموع والنَّحيب بقوة إلا أمل وأمها انفجرتا في البكاء والنحيب بصوت عالٍ.

على الفور شغل سالم مُسجِّل السيارة سورة الرحمن بصوت محمد صديق المنشاوي ذي الصوت الملائكي ليلفت الأنظار للتِّلاوة.

– أمل: محمد صديق المنشاوي الذي يحبُّه حامدٌ، ولا يسمع غيره من القرَّاء، وقد كان يسرح مع تلاوته في ملكوت جنان الرحمن.

– تقول وهي تبكي بحزن شديد وتأثُّر: يا لها من مفاجأة؟!

– الجميع يترقَّب بخوفٍ من المفاجأة والخوف على أمل والأولاد عندما يعرفون الخبرَ أنَّ حامدًا قد مات.

– سالم يفكر كيف يصنع؟ وماذا يفعل؟ أخرج تليفونه واتَّصل بأبناء عمِّه وإخوته ليخبرهم بأنه اقترب من القرية، فردُّوا عليه وقالوا: نحن في انتظاركم.

فنظر والدُ أمل لسالم بحزن وأسى، ثم صرف النظر للجهة الأخرى، وأنه يفكِّر في ابنته والصدمة الشديدة عليها، ولكنه يكتم البوح، ويفكر في صمتٍ.

الجميع مشغول بذلك، وكلما اقتربوا من القرية زادت نبضاتُ قلوبهم، وزاد خوفُهم على أمل.

إنه ألم موجع، لأن الجميع يعرف إلا أمل والأولاد.

-أمل تشعر باختناقٍ، وقلبها منقبض، ودموعها تنزل بغزارة، وتشعر بألم في رأسها وجميع بدنها، وتشعر أن الضغط زاد برأسها بقوَّة، وصدرها يخفق، ويداها بدأت ترتعشان، وبدأ جسدُها ينتفض كأنَّ حمى شديدة أصابتها في الحال، وشعرت أنها بعد دقائق سوف تُصدَم بمفاجأة شديدة تزلزل حياتها وتغير مسارها؛ لأن قلبها ليس مطمئنًا عندما تحركت من القاهرة، وبدأت تتوتَّر أكثر وأكثر كلما اقترب الموكب من القرية.

ولاحظ الجميعُ أن أمل يزيد توترها، ولاحظ سالم في المرآة أن أمل غير طبيعية، وأن قلقها زاد بقوَّة، وأنها تريد أن تقول لهم: قد كذبتم عليَّ، وأن حامدًا ليس بمريض، بل مات فعلًا وأخفيتُم عنِّي ذلك طوال الطريق؛ لأن قلبي يخبرني أن حبيبي تحت التراب؛ لأن قلبي معه وليس موجودًا معي، وأعيش الآن بلا قلبٍ بينكم ومعكم.

سالم شعر بذلك؛ لأنه يراقب أمل من خلال المرآة، ويقرأ ملامح وجهها وشرود نظراتها وكثرة بكائها.

دخل سالمٌ ومن معه القريةَ، حاول أن يدخل من طريق خلفي حتى لا ترى أمل العزاءَ وجموعَ الناس وتتفاجأ بذلك، ولقد أخبره ابنُ عمه بأن يأتي من الطريق الخلفي.

وعندما اقترب من المنزل كان الكثيرُ من أهله ينتظرونه، وبعض النِّساء،

وهم متأهِّبون لاستقبال أمل؛ لأنهم متأكِّدون أن أمل عندما تعرف الخبر سوف تكون حالتها سيِّئة وستُصدَم....

وعندما نظرت أمل من السيارة قبل النزول فوجدت هذا الجمع من النساء والرِّجال صرخت بأعلى صوتها:

حامد ما له؟!

- إيه حصل له؟!

- نزلت من السيارة وهي تصرخ، وعندما رأى النساء أمل أجهشن بالبكاء.

- وفجأة بدأ قارئُ القرآن بالقراءة في العزاء وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ليقرأ.

سمعته أمل من الميكرفون فصرخت وقالت: حامد مااات!!

فوقعت على الأرض فاقدة الوعي، وأخذ الأولاد يبكون، ووالد أمل وأمها وسالم والجميع يبكون في مشهد أليم يُدمي القلوب، فقام النساء باحتضان أمل، وحملنها داخل البيت، وهي فاقدة الوعي لا تتحرَّك ولا تتكلَّم من شدَّة الصدمة. وأم أمل تُلملم حاجيات ابنتها من على الأرض؛ لأنها لم تكن في وعيها، وجلس سالمٌ على الأرض من كثرة البكاء، فاحتضنه إخوته وأبناء عمِّه وهم يبكون.

وحضن سعيدٌ أخو حامد الأكبر أولادَ أخيه حامدٍ: سالمًا وعاصمًا وسلمى وهو يبكي وينتحب.

كان المشهدُ محزنًا ومؤلمًا، وأخذ سالمٌ يُردِّد وهو يبكي: الله يرحمك يا حامد يابن عمِّي، الله يرحمك يا غالي، كُنتَ رجلًا ذا خلقٍ رائعٍ، جِئتَ لتموت وسط أهلك يا حامد، سبحان الله، قدر ومكتوب يابن عمِّي.

فتجمع الأهلُ حول سالم ووالد أمل، وأخذوهما إلى العزاء، ووقف الناسُ واصطفُّوا ليعزوهما ويرحبوا بهما، وكان الوقت قبل أذان العصر، وكان الجوُّ حارًّا في آخر شهر أغسطس، وأحضروا لهما ماءً باردًا.

جلس سالمٌ يبكي، ويكاد الحزن يقتله، فجاء عمُّه رضوان وسلَّم عليه، وحضنه حضنًا قويًّا وقال له: شد حيلك يا سالم، هذا أمرُ الله.

وهو في حضن عمِّه علا نحيبُه بالبكاء، وعندما رأى سعيدٌ أخو حامد أن سالمًا لم يُكفَّ عن البكاء ذهب للقارئ، وأشار عليه أن يتوقف عن القراءة الآن حتى يهدأ سالمٌ من البكاء والنحيب.

وهم كذلك نادى الحاجُّ رضوان على عليٍّ أخي حامد، وقال له:

خُذ يا عليُّ الأستاذَ «محمود» (والد أمل) حتى يُغيِّر ملابسه.

- عليٌّ: حاضر يا عم.

بقي سالمٌ، لكنه لم يكفَّ عن البكاء والنحيب، فالتفَّ الناسُ حوله يحاولون تهدئته، وهو يبكي وتسيل دموعه على خدِّه سأل عمَّه الحاجَّ رضوان: يا عم، ماذا حدث لحامد؟!

نظر له عمُّه الحاجُّ رضوان، وقال بتنهُّد: واللهِ يا ابني أمر ربنا.

أمس بعد العصر قبل الغروب بقليل غضب من إخوته وأولاد عمِّك خليل؛ لأنهم رفضوا الصلحَ، ولم يقبلوا كلامه، وعندما لم يصطلحوا قرر حامدٌ أن يستقِلَّ سيارتَه ويتوجَّه للقاهرة غاضبًا. وقال لهم: كيف أنا آتي من القاهرة حوالي ستمائة كيلو، سفر سبع ساعات وأنتم لا تُقدِّرون مجيئي لكم؟!

لا بد أن أسافر الآنَ إن لم تصطلحوا مع بعضٍ.

– وقال الحاج رضوان لسالم: وأنت عارف يا سالم أن أولاد عمِّك بينهم مشكله قديمة على الفدان الذي في الغيط القبلي مع بعضٍ، وهذه المشكلة من أيام عمِّك خليل وعمِّك سالم والد حامد.

الطمع أعمى قلوبَهم، وحامد أراد أن يحلَّ المشكلة، ويُنهي الخلاف لأنَّهم مُتزوِّجون أخوات بعضٍ، حتى بنات عمِّك تعبانين بسبب هذه المشكلة القديمة.

– سالم يبكي ويقول لعمِّه: نعم يا عم، نعم عارفها، وحامد قال لي: أنا مسافر الصعيد يا سالم من أجل ذلك، وأحاول أصلح أبناء عمِّك مع بعضهم.

– الحاج رضوان والدموع في عينيه: عارف يا سالم.

قرر حامد ابنُ عمِّك السفر، وركب السيارة وحاول الذهاب لكن «سعيد» وقف أمام السيارة، وأقسم على حامد ألَّا يذهب.

وقف أمامه وقال له: دُسني بالسيَّارة، لم ولن تذهب.

– وأنت تعلم أن «حامد» يعز ويحب «سعيد» جدًّا، لدرجة أن «سعيد»

بكى حتى يستعطف «حامد» ليرجع عن قراره، وأخذ يخاطبه ويقول: انزِل أستحلفك بالله، أنا موافق على كلِّ ما تأمر به، وسأصطلح مع أبناء عمِّك. وجاء أخوه عليٌّ وأولادُ عمِّك خليل، وقالوا له: نحن الآن اصطَلَحْنا، انزِلْ.

فنزل من السيارة، وتعانق الجميعُ، وركن السيارة.

وأقسم ابنُ عمِّك خليل أحمدُ زوجُ سعديَّة أن يتعشى حامدٌ عنده هذه الليلة، فقبل العزومة على أن يذهب له بعد صلاة المغرب.

وكان باقٍ على أذان المغرب رُبع ساعة، وبعد أذان المغرب صلَّينا، وبعد السلام وصلاة السنة لقينا ابن عمك «حامد» واضعًا يده على قلبه ويقول: قلبي!!

في الحال جِئنا بطبيب الوحدة الصحية، فكشف عليه وقال: البقيَّة في حياتكم يا جماعة، قد فارق الحياة.

هذا الموضوع لم يستغرق نصف ساعة، فكانت صدمة بالنسبة لنا جميعًا، انتابنا الحزن الشديد، وتجمعت القرية، والجميع بكى على ابن عمِّك النساء والأطفال والشيوخ، وكانت مصيبة مؤلمة، وفاجعة أثَّرت على الجميع حتى البلاد المجاورة فُجِعوا بالخبر.

وأخذنا نتأمَّل في نعمة ربنا ونقول: سبحان الله، لو تركناه ليسافر إلى القاهرة عندما أصرَّ لمات في الطريق.

- الحاج رضوان يتنهد وعيناه تمتلآن دموعًا: تخيَّل لو تركناه يذهب لمات

في سيارته، وما علمنا به، لكن قدرة الله سبحانه تفضَّلَ علينا بالستر؛ لأن نيته طيبة وابن حلال، وجاء في الخير، فكانت نهايته خيرًا.

سالم يبكي بقوَّة ويقول: الله يرحمه، كان طيب القلب، وعمره ما آذى أحدًا، وكان طيِّب الخُلق، وكان يُراعي الفقراء والمساكين، ويُصلح بين الناس.

– الحاج رضوان: مات بعد الصلاة ميتة طيِّبة، ربنا ختم له خاتمة خير، نفس مِيتة أخي إبراهيم، أبيك يا سالم، لكن الفرق أبوك بعدما صلَّى الفجر.

– سالم يبكي والدموع تنزل على وجنتيه: نعم يا عم، الله يرحمهم جميعًا.

– الحاج رضوان لسالم: قُم يا سالم غيِّر ملابسك حتى تأكل لقمة أنت ونسيب ابن عمك، تلاقيك من الصباح لم يدخل الزادُ جوفك!!

فردَّ بحُزن وتنهُّد، وقال: هو من له نفسٌ يا عم؟

– الحاج رضوان: يا سالم لا بد أن نعلم أن هذا أمر الله، وكلُّنا سنموت، وابن عمك مات ميتة طيِّبة، وربنا ستره.

– لازم يا ابني تقوم تغير ملابسك، لأننا الآن اقتربنا من العصر، وبعد العصر سيأتي ناس كثيرون للعزاء من أنحاء البلاد، وسيأتي بعد ساعة عرب من كوم أُمبو ومن سوهاج ومن الإسماعيلية، وعُربان من قبيلة الرشايدة من كل البلاد؛ ليقدِّموا واجب العزاء؛ فلهذا لا بد أن تكون موجودًا لاستقبالهم.

وقبل أن يغادر سالم مكانَ العزاء إلى بيته قال لعمه رضوان: يا عم....

- الحاج رضوان وهو يمسح الدموع من عينيه: نعم يا سالم.

- مُمكن يا عم نقصر نصبة العزاء وقارئ القرآن على هذه الليلة فقط؟

فقال له عمُّه مندهشا: لماذا يا سالم هو ابن عمك شوية؟!!

يا ابني من العادة في بلادنا أن يكون نصب العزاء والسرادق ثلاثة أيام والقارئ يقرأ.

- نعم يا عم، لستُ ضد العادات والتقاليد، لكن يا عم زوجة ابن عمي أمل سوف تسمع صوت القارئ، وهذا سوف يُسبِّب لها تعبًا شديدًا، ولذلك عندما نزلنا من السيارة منذ ساعة سَمِعَتِ القارئ أُغمى عليها، وعرفت من خلال القراءة أن «سالم» قد مات.

وهي لم ولن تهدأ أبدًا كلما سمعت صوت القارئ، ونحن نريد ألا تسمع ذلك ليس أنه حرام ولكن لُطفًا بها حتى تتحسَّن حالتها.

فاستحسن عمُّه الفِكرةَ وقال: خلاص يا سالم، أنا سأبلغ ابن عمك «عليّ» بذلك.

وقال: قوم أنتَ حتى تكون جاهزًا وتستقبل المُعزِّين، وعندما همَّ بالخروج سأله عمُّه:

- إيه أخبار أمِّ جنَّات، ستأتي تعزِّي في ابن عمِّها أم لا؟

– سالم لعمِّه: نعم يا عم، هُم في القطار، هي وجنَّات والأولاد، وموعد القطار الساعة الرابعة بعد العصر في محطة نجع حمادي.

– الحاج رضوان هازًّا رأسه: خيرًا، حتى أرسل لهم أحدًا بالسيارة يأتي بهم.

ثم خرج سالم متوجِّهًا لبيت العائلة ليُغيِّر ملابسه، ثم يعود ليجلس في العزاء وسط الناس.

حبيبي قد هدَّني الألمُ وبدَّل سعادتي لأحزان، وعكَّر صفاء ذهني وتفكيري، وأذبل جمالي وبستان عمري، أين أنتَ يا كُلِّي، يا حُبَّ عمري الماضي والحاضر والآتي؟!!

عُمري تحت الثري، فكيف أعيش من دونهِ، وهو سعادتي وضحكاتي وبسماتي ورُوحي وحياتي وثمرة فؤادي، ووالد فلذات أكبادي وصباي وأشعاري وكل ما أملك؟ لا أضحك بعد اليوم ولا أضع عطرًا ولا ألبس جميلًا، فلمَن؟؟ لك اللهُ يا قلبي لأنَّ حبيبي غيَّبه قدرٌ لا أملكه.

لا تزال أمل في غيبوبة من الصدمة، وهي في بيتها والنساء حولها يبكين متأثِّرين من هذا الموقف الذي فيه أمل.

لا تنطق بكلمة واحدة، ولقد منع نساءُ العائلة أيَّةَ امرأةٍ من خارج العائلة من الدخول عليها، لأن حالتها صعبة.

فقامت سلمى الأخت الكبرى لحامد تنادي على أخيها عليٍّ، وعندما حضر قالت له:

يا عليُّ، اذهب وأحضر طبيب الوحدة الصحية؛ لأن زوجة أخيك تعبانة جدًّا؟

حالًا يا علي.

فخرج عليٌّ مسرعًا من عندها، متوجِّهًا للوحدة ليُحضر الطبيبَ على عجلٍ.

والوحدة الصحية ليست ببعيدة عن المنزل، وبسرعة أحضر عليٌّ الطبيبَ، دخل الطبيب وبقي عليٌّ بالخارج، والنساء حول أمل يبكين، وأولادها يبكون على أُمِّهم، وعلى الفاجعة التي حلَّت عليهم.

حاول الطبيبُ أن يكلمها فلم تردَّ عليه، فخرج ليتكلم مع عليٍّ في الخارج. قال الطبيبُ لعليٍّ وهو متأثِّر: الصدمة شديدة عليها، ولازم نلحقها بسرعة، وأخرج من حقيبته ورقةً، وكتب روشتة علاجية، وقال لعليٍّ: أريد هذا العلاج بسُرعة من بهجورة.

وعندما أحضروا الدواء من القرية قام الطبيب وعلَّق لها الجلوكوز، وأعطاها حقنة مهدِّئة.

وقال للجميع: رجاء لا تتزاحموا عليها، ممكن واحدة أو اثنتان يكونوا، معها بلاش الزحمة دي.

فبقيت سلمى وأم أمل، وباقي النساء خرجن ينتظرن بصالة الشقة.

– وقال الطبيب لأمِّ أمل: لما تتحرك ممكن ترسلوا لي، أنا سكون عندكم إن شاء الله، ثم خرج.

جلست سلمى وأمها بجوارها وهي في حالة إعياء شديد، وأمها تبكي بالدموع عليها وعلى حالتها، وعلى المصيبة التي حلَّت بابنتها، لكن ماذا تفعل؟ أمرُ الله ومكتوب!!

وفجأةً دخلت جنَّات وأمُّها قادمتين من القاهرة، وعندما دخلت جنات بكت عندما رأت أمل في هذه الحالة، صديقتها وزميلة الدراسة وزوجة حامد ابن عم أبيها، وأعز الناس عندها، الذي وقف معها في زواجها وأعطاها الكثير والكثير، وأمها تبكي بمرارة على ابن عمها حامد الحنون المعطاء ذي السمعة الطيبة.

جنات تحبُّ أمل حبًا جمًّا لأنها صديقة العمر، وهي تعلم أنها تحب حامدًا أكثر من عُمرها، بل لا تعرف شيئًا غيره، هو روحها بل حياتها، وما عرفت الدُّنيا وطعمها إلا عندما عرفَتْه، فجنات تعرف هذا؛ لأنها صديقتها وحبيبتها وسرها وجهرها ومكنون أسرارها، وأكثر البشر معرفةً بأمل.

جنات تنظر لها بتأمُّل وتقول في سرِّها: كان الله في عونِك يا حبيبتي، فراق حامد من أصعب ما يكون عليكِ، وأنا أعلم ذلك لأني أعرف مقدار حبِّك لحامد في قلبك، كان الله في عونك وفي تحمُّلك الصعاب والآهات التي ستلاقينها في حياتك بعد، أعلم أنكِ ستتأثرين جدًّا وستتعبين جدًّا؛ لأن فراقه ليس بالسهل عليكِ، وسرحت بخيالها والدموع تنزل على خديها بغزارة.

– جنَّات: ممكن يا عمة سلمى تُحضري لنا مصحفَين؟

سلمى: حاضر يا جنَّات.

سلمى أحضرت مُصحفَين:

– خُذي يا جنَّات.

أمسكت جنَّاتُ بالمصحفَين، وأعطت واحدًا لأمِّ أمل وقالت لها: ممكن يا خالتي نقرأ قُرآن شوية، لأن القرآن بركة، عشان تحضرنا الملائكة وربنا يشفى أمل؟

– أمُّ أمل: نعم يا ابنتي، فكرة جيدة، ربنا يرحمنا برحمته، ويخفِّف عنَّا ما نحن فيه.

وأخذتا تقرآن سورةَ ياسين في الحجرة، وساد الحجرة السكينة والهدوء والروحانيات ولا صوت إلا القرآن.

بعد قليل عندما بدأ الجلوكوز ينتهي تحرَّكت أمل قليلًا وفتحت عينيها، ولكنها لا تستطيع الكلام....

فدُهش الجميع وترقَّبوا، وظهرت ملامح السعادة على الوجوه، ونظروا لبعضهم البعض، ولكنها أغمضت عينيها مرة أخري مثلما كانت؛ فتغيرت ملامحُ الوجوه، وخيَّم عليهم الحزنُ مرة أخرى.

واصلت جنَّاتُ القراءةَ هي وأمها، وخيم الهدوء والترقُّب على وجوه الجميع داخل الشقة.

ذهبت سلمى للخارج لتُنادي على أحد ليخبر أخاها عليًّا حتى يذهب لطبيب الوحدة الصحية يقص عليه ما حدث....

وعندما عرف الطبيب أن أمل فتحت عينيها وتحركت قليلًا تبسم وقال: خيرًا، هذا دليل على أنها بخير، والمسألة مسألة وقت، وستُفِيق من الغيبوبة إن شاء الله.

النساء حولها وجنَّات وأمها تقرآن القرآن، وفي الشقة الكثير من نساء العائلة ينتظرن ويترقبن ويدعين الله أن يشفيها، وتمر هذه الأزمةُ بسلام، ومن هذه الحالة المحزنة والصدمة القاسية الأليمة.

أمُّها وجنَّات وسلمى لم ينمن الليلَ بطوله جالسات بجوارها على الرغم من التعب وجهد السفر والأرق وشدة الصدمة والألم، وتبكي أمها بحرقة على ابنتها وما هي فيه، والحزن يكسو وجهَ جنات حزنًا على أمل وصعوبة الموقف، وسلمى حزينة على فراق أخيها العزيز على قلبها، ومتأثِّرة بما حدث. الجميع في حالة ترقُّب لا يزورهنَّ النوم إلا لحظات وهن جلوس حولها.

وفي صباح اليوم التالي صرخت أمل صرخة مدوية، وقامت فزعة من على السرير، وقالت بصوت عالٍ: حامد مااااات يا ماما.

فتفاجأ من بالشقة جميعًا من النسوة وتجمعن حولها، وحاولن تهدئتها وهي تصرخ بصوت عالٍ جدًّا، وبكاءٍ وتشنُّج ونحيب، لقد أبكت الجميع بكلامها عن حامد، وهي تُعدِّد محاسنه وتقول: متَّ يا حبيبي، مَن لي غيرك؟ مَن لي بعدك؟

ونزلت من على السرير، وأخذت تمشي وتتكلم بهستيريا وبكاء في الشقة وتقول وتنادي بصوت عالٍ: يا حامد، يا حامد، يا حبيبي أين أنت؟

والجميع خلفها يحاولن تهدئتها، لكنها تثور وتبكي بقوة وصوت عالٍ، وأمها تكاد أن تموت من شدة البكاء والحزن، الجميع متأثِّر بما يحدث.

قالت وهي تنتحب وتبكي: أين الأولاد؟

قالت لها سلمى ودموعها تسبقها: الأولاد نائمون في بيت عمِّهم سعيد، أهم شيء أنك تهدئي يا أمل (عشان صحتك ودا أمر ربِّنا، ملناش إيد فيه).

أخذت تردد كلمات سلمى وهي تضع يديها على رأسها من شدة الألم، وتبكي وتقول بنحيب: (آه ملناش إيد فيه، مكتوب موتك يا حامد يا غالي).

جعلت جميع النسوة ينتحبن من كلماتها: (جاي تموت يا حامد عند أهلك عشان تندفن عند أبوك وأمك، ياما قُلت لي: نفسي أموت هناك يا أمل، وأندفن مع أبوي وأمي، أديك جيت يا حبيبي لوحدك).

تتجول في الشقة والجميع خلفها، وتضع يديها على رأسها تبكي، وتحاول أن تحضن أمها وتقول وهي في حضن أمها: (آه يا ماما جاي يموت حامد، يا ماما أهو مات) لم تستطع أمُّها أن تكتم بكاءها فرفعت صوتها بالبكاء وترد عليها: الله يرحمه يا بنتي (خطوات مكتوبة يا حبيبتي).

تركت حضن أمها وهي تبكي، ثم رمت جسدها على صدر جنَّات فحضنتها جنات وهي تبكي، وقالت لها: (شفتي يا جنات عمك وجوزي حبيبي مات يا جنات، مين ليَّا بعده؟) فتأثرت جنات بكلماتها وأخذت تبكي بقوة....

فردَّت جنَّات وهي تبكي: (يا أمل ليكي ربنا، وهو حي وباقي) وحاولت تُذكِّرها بقوله تعالي: ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وأخذت تُذكِّرها بأنَّ هذا الموت مكتوب والأجل مقدَّر، وعليها أن تصبر وتحتسب. نعم الأمر جلل لكن علينا أن نرجع لله ونسلِّم الأمر، والجزع والهلع لن يُغيِّر شيئًا.

فهدأت أمل بعض الشيء، وحاولت التركيز قليلًا، ولكن الدموع لم تفارق عينيها لحظة، وأخذت جنات تكلِّمها وتذكرها أن تهدأ حتى تستعدَّ لاستقبال المُعزِّيات من نساء القبيلة والعائلة، وأن تتمالك نفسها وتصبر وتعي ما تقول؛ لأنها تقول كلامًا غير منطقي.

– جنات: ربنا لا يُعذِّبنا على البكاء ولا على الحزن، ولكن حرام أن نقول: (مين ليَّا بعدك؟) ربنا موجود وحي، مالك الملك.

بدأ الهدوء يكسو ملامح أمل، ولكن الدموع لا تزال تنزل بغزارة وقوة، فانتهزت جنَّات هدوءها وقالت لسلمى:

ممكن يا سلمى تفتحي شنطة ملابس أمل، وتحضري غيارات لها حتى نُغيِّر لها ملابسها؟

– سلمى: حاضر يا جنات.

– أم أمل: هل معك ملابس سوداء يا أمل؟

فردَّت بكل أسى وهي تبكي وقالت:

نعم يا أمي، أحضرتها معي ووضعتها في حقيبتي بدون قصد، سبحان الله.

– تقول ذلك وهي متأثرة، وصرخت بصوت عالٍ وقالت: يا الله، رحمتك بي يا رب.

أحضرت سلمى الحقيبة.

– جنات: الآن نحن نخرج حتى تلبسي ملابسك يا أمل.

فخرج الجميع من الحجرة إلا أمها، وارتدت ملابسها السوداء وهي تبكي وتقول: (لبست الأسود عليك يا حبيبي، كنت أظن أنه لسه بدري، وكنت أظن أن يومي قبلك) وتبكي بحرقة ومرارة ونحيب، وأمها بجوارها تبكي مثلها وتقول لها: حرام عليكِ هذا الكلام.

وعندما انتهت خرجت أمها، فدخل النسوة عليها.

– طلبت أمل من سلمى وهي تبكي بحرقة....

– سلمى: نعم يا أم عاصم.

قالت ببكاء: نفسي أزور حامد يا سلمى؟

– سلمى ترد وهي تحبس دموعها بقوة: (حاضر يا مرات أخوي، هابلغ إخواتي وأرد عليكي).

فنظرت سلمى لأختها سعدية وقالت لها: (قومي يا سعدية وخبري إخواتك، وقوليلهم الكلام ده؟)

سعدية: حاضر، ثم بعد دقائق رجعت سعدية لتخبرهم وجميع النسوة أنَّها أخبرت أخاها سعيدًا بذلك، وقال لها: إنه سوف يخبر إخوته وعمه الحاج رضوان، وسيرد عليكم.

حكى سعيدٌ لأخيه عليٍّ أن زوجة أخيه تريد أن تذهب للمقابر لزيارة قبر حامد.

فقال عليٌّ: ليس مشكلة، لكن لازم نقول لعمِّك رضوان كبير العائلة.

فقال عليٌّ لعمِّه رضوان: إن زوجة حامد تريد الذهاب للمقابر، فقال الحاج رضوان: (مفيش مانع) لكن ليس اليوم، لأنه ما زال الناس يأتون للعزاء من كل البلاد، ونحن مشغولون باستقبالهم والترحيب بهم، ومفيش حد فاضي الآن.

نصبر بعد الثالث عشان كلام الناس يقولوا علينا إيه؟

يقولوا: النسوان بتخرج (ولسه مقطعوش العزاء).

فقال عليٌّ وسعيد: حاضر يا عم.

- عليٌّ لسعيد: (روح بلغ مرات أخوك، وقلها: حاضر بس بعد اليوم الثالث لما نقطع العزاء).

فخرج سعيد متوجِّهًا ليبلغ زوجة أخيه بذلك، وعندما وصل لشقة أخيه نادى وهو صاعد على السلم، فردت عليه أختُه سعدية: تفضل يا سعيد.

وعندما تنحنح حتى يدخل لتستيقظ النائمة وتعتدل المتكئة وتتغطى مكشوفة الرأس ويستعددن لاستقباله، فأفسحت له سعدية الطريق على أن سعيدًا قادم ليدخل.

ولما وضع رِجله داخل الشقة، وألقى عليهن السلام، وأخذ يتكلم مع سلمى وسعدية وزوجته، وسأل عن زوجة أخيه حامد، فسمعت أمل صوتَه من داخل حجرتها فخرجت صارخة كالمجنونة تقول: حامد حامد يا أمي حامد، وتبكي بجنون وتصرخ بصوت مفزوع أفزع الجميع وأدهشهم، وعندما اقتربت من سعيد أجهش سعيدٌ بالبكاء والنحيب بصوت عالٍ؛ لأنَّ الموقف هزَّه فتجمع النساء حول أمل حتى تهدأ وترجع لصوابها، فحاولوا أن يدخلنها داخل حجرتها لأنها أبكت الجميع حتى سعيد.

فقالت سلمى لسعيد: اخرج يا أخي الآن وسأبلغها، لأن امرأة أخيك لم تستطع التحمُّل.

فمسح سعيد دموعه وخرج.

فقالت سعدية: سعيد أكثر الناس شبهًا بحامدٍ الله يرحمه، صوته وكلامه وشكله كأنهما توأم، فلما سمعته أمل ذكَّرها بحامدٍ، بل كأنه هو طبق الأصل سبحان الله.

سلمى والدموع في عينيها: (نعم يا سعدية كل ما ترى سعيد ستبكي وتحزن، لأنه يفكرها بحامد، أنا لما بشوف سعيد بابكى على حامد، كان الله في عونها المسكينة، وكان حامد حنون وطيب وخدوم ويحب الناس، وكان مرضيّ علينا الله يرحمه).

تقول هذه الكلمات لسعدية والدموع على خديها.

– سعدية ودموعها تغلبها: نعم، الله يرحمه كان نِعمَ الأخ.

– سلمى وهي تحثُّ سعدية على النهوض: هيا بنا ندخل لنرى امرأةَ أخيكِ وامسحي دموعكِ، ولا تبكي أمامها حتى لا تتأثَّر.

دخلت سعدية وسلمى على أمِّ أمل، وجنات وبقية النسوة في الحجرة، فوجدن أمل في حالة تشنُّج وبكاء، وجنات تمسك المصحف وتقرأ عليها من القرآن الكريم، وبعض النسوة يقلن: لا إله إلا الله، ويستغفرن لعلها تعود لحالتها التي كانت عليها قبل مجيء سعيد.

أمها تبكي؛ لأن الحالة رجعت لابنتها مرة ثانية، وتقول: ممكن أحد يُحضر دكتور الوحدة الصحية؟ فأرسلت سعدية لأخيها عليٍّ لتخبره بأن يرسل طبيب الوحدة، وبعد ربع ساعة حضر طبيب الوحدة، وعندما دخل ورأى حالتها قال: (مش هي كانت تحسنت، وبدأت ترتاح شوية؟!)

– جنات والحزن على وجهها: نعم يا دكتور، لكن رجعت لها الحالة مرة أخرى.

فهزَّ الطبيبُ رأسه وقال: خير، إن شاء الله ستكون بخير.

فعلق لها حقنة الجلوكوز وبعض المهدئات، وقال: ممكن لو سمحتم لا أحد يبكي أمامها، وتحاولوا تهيئوا الجوَّ لها، وأخرجوها من هذه الشقة لأنها شقة الأستاذ حامد، وهي عاشت فيها بعض الذكريات، فقد تتأثر بذلك، وستتعب أكثر، ممكن بعد إذنكم تخرجوها، غيروا المكان.

– جنات: حاضر يا دكتور (بس تقوم بالسلامة).

ثم قالت في سرِّها: عندنا مشكلة أكبر من الشقة، وهي سعيد عمي، عندما تراه سيُذكِّرها بحامدٍ، كان الله في عونكِ يا أمل.

وعندما انتهى الطبيب وخرج، دخل النسوة، وأخذن يسألن جنات: ماذا قال الدكتور يا جنات؟

فقالت جنات: قال: لا بد أن نُغيِّر المكان، ونحاول ألَّا نبكي أمامها، ونُبعد عنها أيَّ شيء يُذكِّرها بحامد الآن حتى تتعافى.

لقد مرَّ على وفاة حامد يومان، ولا يزال المُعزُّون يأتون من كل البلاد المجاورة والبعيدة، وأهل القرية يقفون على قلب رجل واحد يستقبلون المُعزِّين ويرحِّبون بهم؛ لأن من عادات القبيلة في الصعيد أن يكون العزاء ثلاثة أيام بلياليهن، ويزدحم العزاء من بعد صلاة العصر إلى الحادية عشرة مساءً.

ولقد اكتفوا في العزاء بالسماعات الداخلية حتى لا تسمع أمل صوتَ القارئ، وتتأثر بذلك.

– الحاج رضوان لعليٍّ بعدما عرف أن أمل عندما ترى سعيدًا يغمى عليها قال: يا عليّ.

– عليٌّ: نعم يا عم.

– (أخبرِ سعيد يختفي فترة عن عيون مرات أخوك حتى تتعافى شوية).

ردَّ عليٌّ بكل أدب: حاضر يا عم.

ثم قال له: (عرب كوم أمبو على وصول، عايزين نحضر الدبايح، عشان العرب دول لما بنروح نعزِّي عندهم بيدبحوا لنا).

– عليٌّ: حاضر يا عم.

– الحاج رضوان لعليٍّ: (عندكم خراف في الحوش، ولا أجيب من عندي؟)

ردَّ على مؤكدًا: فيه يا عم، عندنا خير كثير.

–الحاج رضوان: (طيب أول ما يأتوا العرب تدبح خروفين، وتدخل عليهم وتقول: حيَّا اللهُ الضيوف، هذا واجبكم يا عرب).

وقال لعليٍّ: قُم حتى تُجهِّز نفسك وتستعد؛ لأن العربَ على وصول.

قام عليٌّ متوجهًا لأخيه سعيد ليخبره بما قال له عمه رضوان،

وعندما عرف سعيد بالموضوع، ردَّ وهو حزين وقال: سعدية قالت لي: لا تظهر هذين اليومين؛ لأن زوجة أخيك تتأثَّر برؤيتك، وإني أذكِّرها بحامد.

– عليٌّ وعيناه تمتلآن بالدموع: الله يرحمه، كان طيبًا ومحترمًا، وأنتَ شبهه جدًّا يا سعيد كأنك توأمه، المهم يا سعيد لازم نستعد للعُربان القادمين للعزاء حتى نذبح لهم، وسوف أبلغ أبناء عمك من أجل أن يستعدوا لذلك.

– عليٌّ لسعيد: اذهب جهِّز الخراف، وأخبر النساء بأن الطبيخ يكون في بيت عمك الحاج رضوان.

قام سعيدٌ مسرعًا لينفذ ما قال له عليٌّ، وكلم أخته سلمى الكبيرة، وأخبرها بكل شيء.

وعاد عليٌّ للعزاء، ورحَّب وسلَّم على مَن حضر من المُعزِّين،

وقال لوالد أمل؛ الذي ارتدى جلبابًا صعيديًّا ليناسب المكان والجوَّ:

شكر اللهُ سعيك يا أستاذ محمود.

– الأستاذ محمود، ولا تزال ملامح الحزن على وجهه: عظَّمَ اللهُ أجرك يا حاج عليّ.

أنزل النساءُ أملَ وسط نساء القرية في العزاء أسفل البيت؛ لأن المُعزِّيات يسألن عنها، ويقلن: أين هي حتى نعزيها؟!

وقد تمَّ ذلك، ونزلت أملُ بعدما تحسَّنَت قليلًا، لكنها لا تستطيع المشي. ولقد تحاملت على أمِّها وجنَّات حتى نزلت لأسفل، وجلست وسط النساء. نساء القرية يتحدَّثن سرًّا عن حامد وطيبته وكرمه مع الجميع، وأنه كان سخيًّا مع الفقراء والمحتاجين، لدرجة أنه كان يجهز العروس غير القادرة، ويعطى سرًّا وعلانية، ويُنفق على كلِّ محتاج؛ لذلك أحبه الجميعُ وحزنوا على فراقه، وشعروا بالألم والحزن.

وفجأة دخل أولادُ حامد -سالم، وعاصم، وسلمى- يبحثون عن أُمِّهم وسط النساء، وعندما رأوا أُمَّهم بهذه الحالة أخذوا يبكون وهم يحتضنون أمهم، وأمهم تبادلهم البكاء والنحيب.

وسألت سلمى أُمَّها سؤالًا قطع قلوب الجميع:

فين بابا يا ماما؟ (من ساعة ما جينا مشفتهوش، وانتي قلتيلي هنشوفه).

سؤال سلمى جعل جميع النِّساء يجهشن بالبكاء.

فاحتضنت أملُ سلمى وأخذت تبكي، والجميع يبكي عندما سمعوا سؤال سلمى الصغيرة؛ لأنهن لا يستعطن الإجابة على هذا السؤال الصعب.

فحاولت سعدية أن تخرج الأولاد من وسط النساء، وقالت لسالم:

خذ إخوتك، واذهب لبيت عمِّك سعيدٍ الآن، يا سالم يا حبيبي.

- سالم والبكاء يقطع قلبه بكل أدب: حاضر يا عمَّة.

كان العزاء مليئًا بنساء القبيلة ومن القرى المجاورة، لقد حزن الجميعُ على حامد؛ لأن موقف وفاته أثَّر في الجميع، لأنه قبل وفاته كان يتجوَّل في القرية ويُسلِّم على الكل، ويدخل البيوت، ويُسلِّم على المارَّة ويضحك ويلقي النكات حتى قالت امرأةٌ من النساء في العزاء لجارةٍ لها بصوت منخفض: تصدقي يا أم صلاح أن حامد قبل ما يموت بثلاث ساعات خبَّط على الباب، وجه زارني وسلَّم عليَّ، وأعطاني اللي فيه النصيب، وقاللي: سامحيني يا أم جابر.

المرأة تقول ذلك، وهي تكاد تموت من شدَّة البكاء والحزن.

ردَّت عليها أم صلاح بصوت منخفض ومليء بالحزن:

(نعم يا أم جابر، كأنه عارف نفسه سيموت، سبحان الله يا ختي،

كان طيب وغلبان وكريم، الله يرحمه).

لا حديث في القبيلة والقرى المجاورة إلا عن حامد، وموقف وفاته والحديث عنه، وعن موقفه عندما أصرَّ وأراد السفر بسيارته للقاهرة، لكن إخوته وقفوا أمامه بكلِّ قوَّة ومنعوه من الذهاب، موقف مؤثِّر لكن قدرة الله وإرادته ورحمته فوق كل شيء.

في صبيحة اليوم الخامس من وفاة حامد عادت أمل ومن معها من زيارة قبر زوجها، ولقد ظهر عليها الحزنُ والإعياء، وهي منكسرة حزينة منتفخة العينين من كثرة البكاء، ذبُل جسدها وشحب لونُها وضُعفت قوتها، وتبدَّل مزاجُها للأسوأ.

أصعب شيء على المرأة عندما تجد نفسها فجأة أصبحت أرملةً يئنُّ قلبُها من الداخل، وتشعر بألم داخلي ومرارة في حلقها؛ لأنها فارقت أنيسها وحارس بستانها وساقي زهرها بالحب وأنيس وحدتها، فطبيعيٌّ أن يذبُل ربيعُ عُمرها، وتختفي بسمتها.

تشعر بالوحدة وهي في سط العالم، ولا يُغنيها العالمُ كلُّه عن رفيق عمرها وأنيسها ونعيم قلبها، ولا تعرف هذا إلا عندما يفارقها الحبيبُ.

الجميع يراقبها وهي جالسة على سريرها حزينة، شاردة الذهن صامتة لا تتكلم، في عالم خياليٍّ مع نفسها حتى لم تنظر لأولادها ولا لأيِّ أحدٍ معها في الشقة، والذي زاد من بكائها وحزنها ابنتها سلمى التي تسألها كثيرًا عن أبيها وتقول لها: أريد رؤية أبي يا أمي.

سلمى تقطِّع قلبها وتزيد حزنها وبكاءها بهذا السؤال، وكذلك عاصم الذي عندما يرى أمَّه يبكي كثيرًا، وسالم الشبيه بأبيه كم قطَّع الحزنُ جوفَه على فراق أبيه، الأولاد وزيارة قبر زوجها أمران زادا من حُزنها وبكائها؛ فلهذا تسرح كثيرًا شاردة الذهن والتفكير.

تقدَّمَت إليها جنات ببُطءٍ، ووضعت يدها على كتفها.

- جنات: يا أمل هوِّني على نفسك شوية، الحزن والتفكير ممكن يتعبك.

فنظرت لها والدموع على وجنيتها وقالت بحزن وأسى:

كيف يا جنات؟ وقد رحل حامد حبيبُ عمري، واليوم يا جنات من أصعب أيَّام عُمري لأنِّي زُرت قبره، وشعرت أني أرملة مكسورة الجناح، وبكاء الأولاد وحزنهم على أبيهم.

- جنات بهدوءٍ ناصحة: نعم، هو حبيب الجميع، لكن أمر ربنا، ولازم نصبر ونحتسب، ونرى ماذا نفعل.

وأخذت جنات تتكلم معها وتقول: (الذي يريح حامد الآن أنك تواصلي المشوار بعده وتنجحي، وتعلمي أولادك وتهتمي بهم وتربِّيهم تربية عظيمة مثلما كان يريد حامد، المسئولية الآن أصبحت على عاتقك).

يا أمل حامد الجميع كان يحبُّه، ومازالوا يدعون له، ولقد أدَّى دوره فما بعد ذلك عليكِ أنتِ، يجب أن تعرفي هذا الكلام.

جنات تتكلم، وأمل تنظر لها وتُنصت لكلامها بتمعُّن، لقد غيَّرَ كلامُ جنات أمل، وأشعرها بالهدوء والراحة قليلًا؛ فبدأت تتفاعل مع جنات، وسألتها بصوت مبحوح لا يكاد يُسمع: يا جنات أولادك تركتِهم مع مَن في القاهرة؟

- جنات مستبشرة لأن أمل بدأت تتكلم وتسأل: مع حماتي.

وسألتها سؤالًا آخر: (جوزك حضر العزاء).

- جنات: نعم.

طبعًا أناس كثيرون جاءوا من القاهرة، هو عمي حامد شوية يا أمل؟!

كلُّ الموظفين في شركة عمي حامد أتوا، حتى عمي شكري العامل جاء وأخذ يبكي، وكان حزينًا جدًّا، وكان يتكلم وسط الناس عن عمِّي حامد، وأنَّه جهَّزَ بناته وستّتهم....

عزَّوا وباتوا، وفي اليوم الثاني سافروا، وجوزي سافر معهم، وقبل ما يسافر مرَّ عليَّ وكلمني، وقال لي هذا الكلام.

تنهدت أمل تنهيدة مليئة بالحزن والأسى، وقالت لجنات: نعم، الكل يحب حامد، فكيف أنساه؟!

- جنات: ممكن أطلب منك طلب؟

– أمل بحزن: تفضلي يا جنات.

جنات: (أجبلك شوية شُربة مع حِتّة فرخ) لأنك منذ خمسة أيام لم تضعي في فمك شيئًا من الطعام إلا بعض السوائل القليلة، والجلوكوز والقهوة، (عشان تقدري تواصلي) ممكن يا أمل؟

– فنظرت نظرة حزن ولم تتكلم، فسعدت جنات؛ لأنها وافقت على ذلك.

– جنات: جدي رضوان سيأتي ليُعزيكِ هو والعائلة وأخوال عمي حامد.

فهزَّت أمل رأسها موافقةً على ذلك، ولكن الحزن يبدو على ملامحها ووجهها، لا يفارقها لحظة.

قامت جنات مسرعةً لتُحضر لها الطعام، ولقد تغيرت الوجوه للأحسن عندما قررت أمل أن تأكل، وسعد الجميعُ بموقف جنات التي أثرت على أمل.

حضر الحاج رضوان وعليٌّ والأستاذ سالم ووالد أمل وجميع أفراد العائلة من الرِّجال، وصعدوا إلى الشقة ليُعزُّوا أمل، وعندما دخل الحاج رضوان ومن معه وقف جميعُ النِّساء؛ لأن الكبير له مقام وهيبة بين أفراد القبيلة، وجميع أفراد القبيلة تُقدِّره وترفعه لمقامه؛ لأنه الكبير بين الناس، والحاج رضوان شيخ لقبيلة الرشايدة خلفًا لأخيه والد حامد.

وعندما جلس الحاج رضوان قال لأمل بصوته الجهوريِّ: (كيفك يا أم سالم؟)

فردَّت بصوتٍ يملؤه الحزن: (كويسة يا عم، الحمد لله على كلِّ حالٍ).

فقال الحاج رضوان هازًّا رأسه: (أيوه، الحمد لله).

وعزَّاها الأستاذ سالم والجميع، وعندما دخل والدها قبَّلَ رأسَها، وكاد أن يبكي لولا أنه حبس دموعه بقوَّة، وحاول إخفاء حزنه عن ابنته، وكم هو حزين على زوج ابنته العزيز على قلبه حتى لا تتأثر ابنتُه بدموعه.

الجميع منصتون كأنَّ على رءوسهم الطير؛ لأن الحاج رضوان يتكلم.

- الحاج رضوان للأستاذ محمود والد أمل: شكر اللهُ سعيك يا أستاذ محمود، فتوكل على الله سافر (شوف مصالحك).

وقال لسالم: وأنت يا سالم (لازم تسافر حتى تباشر شركة ابن عمك).

ثم وجه كلامه لأمل: يا أم سالم، لا بد أن نعلم أن الموت علينا حق، وكلُّنا سنموت، لا أحد منا سيخلد، أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أين الصحابة؟ وأين أجدادنا وآباؤنا وكل البشر؟!

الكلُّ في إنصاتٍ، ووجَّه كلامه لسالمٍ: يا سالم....

- سالم: نعم يا عم.

- إن شاء الله بكرة بعد الفجر تتوكل على الله أنت ونسيب ابن عمك.

- سالم: حاضر يا عم.

وبعد أن أنهى الحاج رضوان حديثه قام، فقام الجميع.

وخرج الحاج رضوان، فبقي الأستاذ محمود والد أمل والأستاذ سالم.

فاقترب الأستاذ محمود، ووضع يده بحنان الأُبوَّة على كتف ابنته، لم يستطع أن يحبس دموعه فنزلت على خدَّيه بغزارة، فحضنته وهي تبكي، عندما رأت دموعه ظل الاثنان يبكيان؛ فبكى الجميعُ حزنًا لبكائهم لهذا الموقف العاطفي الأبوي.

فتقدم الأستاذ سالم، وحاول أن ينزع الأستاذ «محمود» من حضن أمل، وقال: (مش كدا يا أستاذ محمود، صلِ على النبي).

وحاول سالم أن يُهدِّئ الأستاذ «محمود» ويلطف الجو، وقال: بكرة الفجر نتوكل على الله مع بعضنا يا حاج محمود، إن شاء الله.

فرد الأستاذ محمود، وما زالت الدموع في عينيه: إن شاء الله.

فتحدث الأستاذ سالم مع ابنته جنات، وسألها: هل ستسافرين معي أم ماذا؟

– جنات: يا أبي، لا بد أن أبقى مع أمل في هذه الظروف، وهي محتاجة لي أكثر من أي أحد آخر.

– الأستاذ سالم لابنته: خير، ولكن المهم هل أخذتِ الأذن من زوجك؟

فردَّت جنات بكل ثقة: طبعًا يا بابا، تصدق هو الذي عرض عليَّ ذلك، وقال: ابقي معها، ولا تتركيها في هذا الموقف العصيب.

وقال لي: إنه لا ينسى الأستاذ حامد وما فعله معه في العمل، وقال لي: إن الأستاذ حامد رجل يستحق كلَّ الاحترام حيًّا وميتًا.

عندما سمع الأستاذ سالم كلام جنات قال: على خير،

أنا سوف آخذ أمك عشان تراعي أولادك، لأن الأولاد قد يكونوا أتعَبُوا حماتك جدًّا؛ لأنها ست كبيرة.

- جنات: جيد يا أبي، أنا باكلمهم على الواتس كل ليلة.

حاول الأستاذ سالم أن يلطف الجو أكثر، وقال موجهًا كلامه للأستاذ محمود: أنتَ ستخرج معي الآن، لأن المغرب على أذان، وكمان ممكن ييجي ناس يعزوا بعد صلاة المغرب....

- الأستاذ محمود لابنته عندما هبَّ واقفًا ليخرج بنظرة حزن وألم: سلام يا أمل، أنا طبعًا مسافر فجرًا، خلِّي بالِك من نفسك ومن الأولاد، وحاولي تشدي حيلك، واعلمي يا ابنتي لو كان البكاء يرجع حامد لبكينا عليه عُمرًا، ولكن إرادة الله وقدره....

وقال لزوجته: خلِّي بالك من أمل والأولاد.

وخرج هو والأستاذ سالم متوجهين للمسجد لصلاة المغرب.

في ذات صباح قالت جنات لأمل: ممكن ننزل نتمشى قليلًا يا أمل في الحديقة.

فتبسمت ابتسامة حزينة وقالت: يا ليت يا جنات؛ لأني محتاجة أغيّر.

ونزلتا للحديقة لتتمشيا وتجلسا في الصباح بداخلها وتُفطرا وتشربا الشاي داخل الحديقة.

وعندما نزلتا كانت الساعة تقترب من السابعة صباحًا.

قالت سلمى لهما: أنا سأحضر لكم الفطار في الحديقة.

وعندما جلستا في الحديقة، والحديقة بها أشجار الريحان والمانجو وأنواع عديدة من الأشجار، فجلست أمل تحت شجرة الصفصاف، وقالت لجنات: تعالي هنا.

وهي تتنهد: عارفة يا جنات، حامد كان يحب أن يجلس هنا، وكان يقول لي: شجرة الصفصاف هذه رائعة مثل الإنسان. وكان يقول لي: الإنسان كله خير مثل هذه الشجرة، ظلها بارد في الصيف وهواؤها نقي لا تشعرين بالحرارة وأنتِ تجلسين تحتها، هكذا الإنسان كله عطاء مثل هذه الشجرة.

– جنات وهي تبتسم: الله يرحمه، كان أطيب من شجرة الصفصاف، عمي كان ذا خُلقٍ، وطويل اليد في العطاء وسخيًّا وكريماً.

– جنات والابتسامة تملأ وجهها: تصدقي، زوجي الله يكرمه لما عرف أني سأبقى معك هنا شهرًا عمل موقفًا نبيلًا؟

– أمل: ماذا فعل يا جنات؟

– جنات، وما زالت مبتسمة: ركب إمبارح بالليل هو والأولاد من أجل أن يحضرهم لي حتى أراهم.

– ابتسمت أمل ابتسامة لامعة متلألئة، وقالت: جميل، مفاجئة رائعة يا جنات....

ثم نظرت لجنات وقالت: إنه يحبُّك كثيرًا ويُقدِّرك، ويُشكر على هذا الصنيع.

– جنات: هو على وصول الآن، ذهب عمي سعيد ليحضرهم من المحطة في الصباح.

– أمل لجنات وهي تتنهد تنهيدة مليئة بالحزن والأسى: يا جنات حافظي على زوجك جدًّا، نحن معاشر النساء لا نعرف قيمة الزوج إلا عندما يرحل، وتُصبح الواحدة منا وحيدة، زوجك سندك وظهرك وحياتك، تفاني في حبِّه، وعيشي اللحظات الجميلة معه، وضعيه في عينيكِ، بل في قلبك وأغلقي عليه؛ لأنه هو قلبكِ ونبضكِ ومشاعركِ وإحساسكِ وأنيسكِ، وكل ما تملكين.

–جنات تستمع لكلامها بتأثُّر، لأنها تعلم أنها صادقة في مشاعرها، وحديثها نابع من قلب يمرُّ بتجربة مريرة، فاقدة أعزَّ ما تملك وهو الزوج.

– أمل لجنات: كذلك الزوج يا جنات، هو الستر من الله، هو النعمة التي أنعم اللهُ بها على المرأة، حاولي يا جنات أن تحافظي على زوجكِ، وكلما سمعتِ كلامَه وقدَّرتِه يُحبكِ أكثر ويفعل المستحيل من أجل إسعادكِ، أنا كنتُ أفعل هذا مع حامد، عمري ما رفعت صوتي عليه، ولا خرجت من البيت بدون إذنه، ولا جرحته بكلمة، ولا نشفت دماغي عليه ولم أعانده، ولم أفضل عليه أيَّ أحدٍ حتى نفسي، بل هو كان نفسي وعمري، لذلك كان عندما ينتهي من

عمله يأتي للبيت مسرعًا حتى يراني وكان يحبني جدًّا، وعُمره ما جرحني ولا فكَّر يومًا في غيري، وكان يحترم أهلي لأني كنتُ أحترمه وأقدره وأُجلُّه. وهي تتحدث نزلت الدموع على خديها أحرقت جفنيها، وكلما تحترمين زوجك وأهله يحترمك ويحترم أهلك، الزوج له تقديره بين الناس، زوجك يا جنات أصيل، الله يرحم حامد.

فنظرت جنات فرأت الدموع على خدَّي أمل فقالت لها وهي تتظاهر بالابتسامة: الله يرحمه عمي حامد، كان رجلًا بمعنى الكلمة، وأعلم أنكِ كُنتِ تحبين عمِّي حب العابدين، وكنتِ نعم الزوجة، وهو كان يتكلم عنكِ كثيرًا، وكان يقول: أنا فخور بأمل، وكان يتكلم عنكِ بكلام جميل طيب.

فبكت عندما سمعت هذه الكلمات من جنات؛ فحضنتها جنات، وأخذت تُربِّت على كتفها.

-أمل لجنات: أشكرك يا جنات على أنكِ بقيتِ معي هنا، وبجواري في محنتي هذه.

- جنات: كيف هذا يا أمل؟! أنتِ صديقة عُمري، وكنتِ زميلتي في الجامعة، وأختي وزوجك عمِّي، بل قطعة من قلبي.

- أمل: فعلًا يا جنات، أنتِ أجمل صديقة، لا أعرف بدونك ماذا كنتُ أفعل؟ لقد هوَّنتِ من عليَّ شوية، وأنسيتني أن أشكرك.

وهن يتحدثن دخلت سلمى، وهي تحمل صينية الطعام، وقالت باللهجة الرشيدية الصعيدية: (كيفكم يا مُدومات؟)

فضحكت جنات، وتبسمت أمل ابتسامة حزينة من خفة دم سلمى، وجلسن يأكلن.

سلمى تحاول مداعبة زوجة أخيها لتضحكها وتلطف الجو: (كُلي يا مرات أخوي، شوفي عسلنا الأسود لما يوصل خشمك هيبقى أبيض، يا أبيض).

فضحكت أمل ضحكة خفيفة من كلامها الجميل الفكاهي، وعندما رأت جنات وسلمى ضحكة أمل سعدتا وتبسمتا، وقلن: (أيوا كدا أهو فتّح القمر).

وقالت سلمى تلطيفًا للجو: (بصي يا مرات أخوي، أهو الريحان رقص من ضحكتك، وتبسم الورد من بسمتك).

فضحكت أمل ضحكة أكبر من الأولى، وقالت وهي مبتسمة: (مش للدرجة دي يا سلمى).

– سلمى وهي تضحك: (كيف يا مرات أخوي؟! دا أنتِ كيف القمر في ليلة تمامه، وأحلف بالله العظيم إنك أجمل منه).

وأخذن يضحكن ويبتسمن، وفجاءة دخلت سعدية بصينية الشاي،

فقالت: (بتضحكوا من غيري؟! طيب استنوا شوية لما آجي،

جبلتكم الشاي).

وقالت باللهجة الرشيدية الصعيدية: ولو عايزة ماسكه فيه يا مرات أخوي (تقصد نسكافيه)، عندما سمعن ذلك ضحكن جميعًا، وقالت أمل: أريد أشرب شاي شكرًا يا سعدية.

وهن يضحكن ويتكلمن، ولقد لاحظن أن أمل بدأت تتحسن قليلًا، وبدأت تتعافي رويدًا.

وفجاءة سمعن صوت نجاة الصغيرة، وهي تغني رائعة نزار القباني (ارجع إليَّ) بصوت شجيٍّ محزن، وكان هذا الصوت مُنبعثًا من سيارة أجرة واقفة بجوار ظل سور الحديقة.

وعندما وصلت نجاة لهذه الكلمات:

ارجع إليَّ فإن الأرض واقفة كأنما الأرض فرت من توانيها
ارجع فبعدك لا عقد أعلقه ولا لمست عطوري في أوانيها
لمن صبايا لمن شال الحرير لمن ضفائري منذ أعوام أربيها
أرجع كما أنت صحوًا كنت أو مطرًا فما حياتي أنا إن لم تكن فيها

فبكت أمل بحرقة ونحيب شديد، وظلت تُردِّد وهي تبكي: لمن صبايا، لمن يا حامد، وضفائري منذُ أعوامٍ أُربيها.

أُقسم لك: لم ولن ألمس عطوري بعدك، ستبقى في أوانيها، وضفائري بعدك لم ولن أُربيها، آهٍ يا حامد، طعم الحياة بعدك علقم، بل أمَرُّ من العلقم.

تبكي بحزن شديد وتهزُّ رأسها وهي في حالة حُزن وبكاء مع الأغنية وتُردِّد بحسرةٍ وألمٍ موجع.

فبكت سلمى وسعدية وجنَّات لبُكائها، فانتفضت سلمى وهَبَّت واقفةً وقالت: مَن هذا؟ ابن ....

وأخرجت تليفونها، واتصلت بابنها رضوان وقالت بصوت حادٍّ: (يا رضوان، فيه سيارة واقفه جنب سور جنينة جدك سالم على الشارع، رُوح بسرعة وخليه يبطل التسجيل، بسرعة يا ولدي).

– جنات والدموع في عينيها: (أصلها بتحب أغاني نجاة الصغيرة، وتتأثر بها، وبالأخص الأغنية دي!!)

– سلمى متأثرة: (ما صدقنا تضحك وتبتسم شوية، جه غراب البين ده وبوَّظ الدنيا).

– سعدية: (هي ناقصة حزن، كفانا اللي إحنا فيه)

ثم قالت: (هو المسكين إيه عرَّفه؟! تلاقيه من بلد بعيدة، وميعرفش أنه فيه حد ميِّت هنا، الله يرحمك يا حامد، خمسطاشر يوم مروا عليك يا خوي، ولسه كل البلد حزينة عليك).

غاب الصوت، وبدأت أمل تُجفِّف دموعها وتمسحها بمنديل في يديها.

سعدية لأمل: (أعملك قهوة وللا ماسكه فيه يا مرات أخوي) فضحكت جنات ضحكة خفيفة لتُلطِّف الجو من كلام سعدية، ولهجتها الرشيدية الصعيدية الرائعة.

– أمل وهي تبتسم ابتسامة باهتة: (اعمليلي ماسكه فيه) قالتها باللهجة الرشيدية الصعيدية مثل سعدية؛ فضحك الجميع على أسلوبها.

وفجأة جاء ابن سعدية ليخبرها أن أباه يريدها، وسعدية متزوجة من ابن عمِّها أخي الأستاذ سالم، اسمه نافع.

وقفت سعدية بسرعة وقالت: (حاضر، أكيد عايز يُفطر، عشان من الفجر بره، راح الغيط يسقي) واستأذنت سعدية وخرجت مسرعة لتذهب لزوجها.

– سلمى لسعدية: اذهبي لزوجكِ، أنا سوف أعدُّ القهوة لزوجة أخيكِ، ولطِّفي الجو، أكيد ابن عمك جاء مُتعبًا، ويريد أن يستريح.

– سعدية: حاضر يا سلمى.

بعد خروج سعدية علقت أمل وقالت: باين على سعدية أنها بتحب نافع جدًّا؛ لأنها عندما قال لها ابنها تركت كل شيء وقامت مسرعة.

– سلمى: نعم طبعًا، لكنه عصبي شوية، وسعدية بتعامله معاملة رائعة، سعدية بصراحة عاملة معه مثل (الإسفنجة) تمتص غضبه، وتحاول تُمشِّي الأمور.

– أمل بصوت مبحوح: لا بد أن تكون المرأة منا مثل الإسفنجة بالنسبة للزوج لأنها امرأة، وقد خُلقت لتخفِّف آلام الرجل وتطيب خاطره، تعرفن الزوج مثل الأسد في الغابة، عندما يكون جوعان يأكل، ولما يأكل لو مرَّ أمامه غزال لا يجري خلفه؛ لأنه ملأ بطنه خلاص، فالرجل مثل الأسد، عندما تريحه الزوجة يتحول من أسدٍ شرس إلى قط أليف وديع سهل طيب العشرة، لكن لو وقفتي في وجهه يتغير الوضع، ولقد خرُبت بيوت بسبب عدم فهم المرأة لطبيعة الرجل، وكيفية التعامل معه.

سلمى وهي مبتسمة: (والله يا مرات أخي أزواجنا أسود مختلفة).

أمل: طبيعي يا سلمى؛ لأن البيئة تختلف، والنظام القبلي يختلف له أصوله، الرجل هنا متربي على تلك الأصول.

– سلمى: للأسف فيه حاجة هنا صعبة جدًّا، عادة موروثة وقديمة وما زالت تستخدم؛ هي زواج ابنة العم من أبن العم، يُخطبان وهما في اللفة، وهذه من أصعب وأقسى العادات، وبالأخص على البنت، وهذه العادة تضيع حقها في الاختيار، ولا يحق لها أن تقول: لا، ولا رأي لها، وهذا حرام، ولقد تعلمنا أن الشرع لا يقرُّ ذلك.

يعني أنا كُنت مخطوبة لابن عمي سالم أبو جنات وأنا صغيرة، لما كُنت في المرحلة الابتدائية، لدرجة أن أبي الله يرحمه طلَّعني من أولى إعدادي وقال: البنت كبُرت خلاص عشان تتزوج، وكان سالم ابن عمي في الثانوي، وبقيت على ذمته لحدّ ما دخل الجامعة في القاهرة، وبعد التخرج بقى هناك واشتغل في القاهرة ولم يرجع، وغضب أبي وتدخلوا أعمامي وقالوا له: لا بد أن تتزوج ابنة عمك يا سالم، فقال: إن كان لا بد من الزواج بابنة عمِّي آخذ ابنة عمي رضوان. قال أبوه: خلاص هذه ابنة عمك والأخرى ابنة عمك، تزَّوج ابنة عمي رضوان أم جنات، وأنا تزوجت برضه ابن عمي حسن ابن عمي خليل.

وهي تبتسم: مفيش غير أخي حامد الله يرحمه هو اللي جاب من برَّا القبيلة، الوحيد فقط، وقالت مبتسمة: بس جاب لينا واحدة مثل القمر.

– أمل: نعم، من العادات القبلية السيئة فعلًا غصب الفتاة على الزواج من ابن عمها، وتسمى له وهي في اللفة، ولقد حدثني حامد عن ذلك كثيرًا،

وإن شاء الله سأحاول أصلح من ذلك مستقبلًا؛ لأن هذه كانت فكرة حامد، وأنا سوف أكمل المشوار بعده إن شاء الله.

لا بد أن يكون للفتاة رأيٌ، ليس عيبًا ولا حرامًا، لو لم تُرد ابنَ عمِّها تتزوَّج من أيِّ شخص من القبيلة، أو من قبيلة أخرى بشرط الاختيار الحسن الموفَّق.

رنَّ موبايل جنات، وعندما رأتِ الرقم تبسَّمت وقالت: (زوجي وصل، سأقوم حتى أستقبله وأرى الأولاد، لأنهم وحشوني).

وبقيت سلمى وأمل تتحدَّثان في أمور الحياة، وكانت سلمى تضحك، وتلقي بالنكات لتلطف الجوَّ حتى تُسعد أمل.

– أمل لسلمى: المجتمع القبلي عندكم صعب ومتمسك ببعض العادات القديمة البدوية، كان حامد يحكي لي عن ذلك، مثل الزواج والثقافة القبلية البدوية، بعضها جيد وبعضها سيئ.

من العادات الجيدة القضاء العُرفي الذي أُعجِبت به لحلِّ المشاكل بين أفراد القبيلة، وكذلك إكرام الضيف والذبح له من العادات الحسنة التي وصى بها الإسلام، والتعاون والتماسك والوحدة القبلية والعلاقات بالقبائل المجاورة، والمحافظة على بعض القيم المتوارثة، ولقد رأيتُ الكثيرَ هنا من هذه العادات والتقاليد؛ لأني عشقت القبيلة من خلال زوجي الحبيب الذي كان مثقفًا ولعًا بتراث قبيلة الرشايدة سلايل عبس كما كان يقول.

وكان حامد ضدَّ بعض هذه العادات والتقاليد، لكنه كان يشجع بعضها؛

لأنها من الموروثات القيمة عن القبيلة، لدرجة من حبي لزوجي قرأت تاريخ قبيلة عبس، وعن شعرائها وأبطالها مثل عنترة وقصته مع عبلة. حامد كان يقول لي من أشعار عنترة التي كان يقولها لعبلة حبيبته، ويقول لي: أنتِ عبلتي، وأنا فارسك عنترة المتيَّم بكِ.

وقرأتُ عن ملك غطفان مالك بن زهير بن جذيمة، ولقد كانت قبيلة ذات سيادة في العصر الجاهلي، والقبيلة العربية الوحيدة التي لها ملك في ذلك الحين، وعرفت من خلال التاريخ أن عبس بطن من غطفان، وقرأتُ عن الصحابة مثل الربيع بن زياد وبشير بن الحارث، والحارث بن الربيع وصفوان بن اليمان وميسرة بن مسروق العبسي، وحذيفة بن اليمان كاتم سرِّ النبي، هؤلاء الأبطال دخلوا الإسلام، ووقفوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوات، ودافعوا عن الإسلام.

– أمل تسرد تاريخ القبيلة، وسلمى تُنصت لها بشغفٍ واهتمام، وتقول: لقد قرأتُ تاريخ هذه القبيلة، وعندما جئت مع حامد هنا وجدت بعض الحقائق التي قرأت عنها؛ فأُعجبتُ أكثر، لكني صُدمت بسبب عادات وتقاليد مخالفة للواقع الذي نعيشه الآن؛ لأن الأجيال اختلفت وتغيَّرت بسبب انتشار التعليم والتحضر والاستقرار، نحن في القرن الواحد والعشرين، في عصر الفضائيات والنت والفيس والتويتر أصبح العالم قرية واحدة، بعض العادات لا تصلح لهذا الزمن.

– سلمى بتحسُّر: نعم يا أمل، توجد عادات لا تُناسب هذه الأجيال فعلًا، ولا هذا الزمن.

كان أبي يقول لنا: نحن من ينبُع من بلاد نَجد، وهاجرنا في عام 5781م، ونحن أحدث القبائل هجرةً، وهاجر الأجدادُ للسودان، ومنهم من استقرَّ في مصر؛ لأن مصر والسودان كانتا دولة واحدة، وأعمام أبي ما زالوا يعيشون في السودان، ولنا علاقات واتصالات معهم، ولقد عزونا في أخي حامد بالتليفون، وزارهم أبي وكانوا يزورونا هنا، وكل عائلة من القبيلة لها أبناء عمومة في شرق السودان كسلا وحلفا الجديدة.

– أمل: نعم، أعرف هذا يا سلمى، لقد حكى لي حامد عن كلِّ صغيرة وكبيرة؛ لدرجة أن حامد كان يثقف أولاده بثقافة القبيلة، ويعلمهم اللهجة الحجازية النجدية البدوية وبعض الألفاظ، وبعض العادات والتقاليد والتاريخ، وكان يكلمنا بلهجتِه كثيرًا في البيت، وأنا أحفظ الكثير منها، لدرجة أن ابني سالم حفظ الكثير هو وعاصم، ولقد سماه حامد على اسم أبيه الحاج سالم، وسمى سلمى على اسمك، وكان يقول لنا: هذا تاريخ قبيلتنا، وكان له علاقات واسعة بأفراد القبيلة في المملكة العربية السعودية والكويت والسودان، وبالأخص رجال الأعمال من الرشايدة في تلك البلاد.

– ولقد قرأت معظم كتب الأديب سيد الرشيدي، المؤرخ والروائي والشاعر، كتبه قيِّمة وجيدة عن القبيلة، وبالأخص كتابه التاريخي (قبيلة الرشايدة في مصر)، وكتبه عن التراث الشعبي للقبيلة، ولقد كان زوجي الحبيب يُحضر لنا هذه الكتب؛ لأنه كان يجتمع مع الأديب بالقاهرة ويقول عنه: إنه ابن عمه.

قرأت كذلك كتاب وليام يانغ (البدو الرحَّل في شرق السودان) وهو

كتاب ممتع وشيق، وقرأت لكُتَّاب سعوديِّين وكويتيِّين من الرشايدة، وكتاب مبروك مبارك سليم الرشيدي من رشايدة السودان (الرشايدة: طنايا عبس بين اليوم والأمس) إنها كتب تاريخية جميلة عن القبيلة.

– سلمى: آه نعم، سيد الرشيدي فعلًا هو كاتب قبيلة الرشايدة في مصر معروف من عندنا، لكنه يسكن القاهرة ويعيش هناك، ويأتي ويزور البلد كثيرًا، نعم كتبه جميلة، ونحن نقرأ له.

وهما جالستان تتحدثان جاء ابن سلمى الصغير وقال لها: يا أمي، أبي رجع من المدرسة، ويريد أن يفطر. وزوج سلمى حسن مدرس في مدرسة البلد القريبة من البيت، جاء في وقت (الفسحة) ليفطر في البيت، ثم يعود مرة أخرى، فهبَّت سلمى مسرعة وقالت: حاضر حالًا.

فبقيت أمل بمفردها تفكر سارحة شاردة الزهن، تقول: كلهن ذهبن لأزوجهنَّ إلا أنتِ يا أمل، فبكت ونزلت دموعها على خدَّيْها، وتقول: آه، يا لها من حياة قاسية مؤلمة موجعة، لا نعرف قيمة الزوج إلا عندما نفقده، لقد فقدتك يا حامد، فقدتُ الحنين والرقة والبسمة المشرقة، والرجولة والمؤانسة. بقيت وحيدة ساعات تُفكِّر لأنَّ كل الزوجات شُغلن بأزواجهن.

وفجأة دخلت عليها أمها وأولادها، وعندما دخلوا عليها ابتسمت ابتسامة خفيفة مليئة بالحزن، ورحَّبت وحضنت الأولاد، وبدأ الحزنُ يتلاشى قليلًا من على وجهها، وقضت وقتًا سعيدًا معهم في الحديقة حتى جاء الجميعُ قرب أذان الظهر.

لقد مكثت أمل في الصعيد شهرًا، وزارت قبر حامد ثلاث مرات، وبعد كلِّ زيارة تعود وكأن حامدًا مات في ذلك اليوم، تبكي وتنتحب وتحزن حزنًا أليمًا على فراقه، وتتأثر بالزيارة تأثُّرًا بالغًا حتى ذبُلت وأصبحت جلدًا على عظم من شدة الحزن، وكثرة البكاء ومرارة الفراق.

والذي أحزنها أكثر، وجعل قلبها يتقطع سعيد أخو حامد، فكانت عندما تراه تبكي؛ لأنه الشبه به شبهٌ قويٌّ، في كلامه وطباعه، وفي الشكل والحديث والميل والتفكير، كان هو وحامد يحبان بعضهما حبًّا شديدًا، لدرجة أن حامدًا لا يمرُّ يوم ولا يومان إلا ويُحدِّث سعيدًا ويتصل به، مَن يراهما يشعر أنهما توأمان. وكان سعيد لا يفعل أمرًا إلا ويستشير حامدًا في كل صغيرة وكبيرة، حتى أولاد حامد يحبون عمَّهم سعيدًا جدًّا، وينامون معه عندما يأتون لزيارة الصعيد، وهم في تلك الفترة مقيمون في بيت عمهم سعيد.

ولقد حزن سعيدٌ على أخيه حزنًا أليمًا، لدرجة أنه تمنى الموت بعده، وكان يقول: يا ليتني أنا وعاش حامد....

لدرجة أن سعيدًا كان يجلس في الأماكن التي كان يجلس فيها هو وحامد كثيرًا حبًّا لأخيه الذي فارق الحياة، ليتذكر سعيد هذه اللحظات التي كانت تجمعه به.

وفي ذات صباح جلس سعيد في الحديقة تحت شجرة الصفصاف التي كان يجلس أسفلها هو وحامد، وأخذ يعزف بالناي؛ لأن حامدًا كان يعشق ويحب ذلك من سعيد، وأخذ يعزف ويبكي وتنزل الدموع من عينيه بغزارة،

وفجاءة دخلت أمل متسللة متخفية؛ لأنها سمعت صوت الناي، وعلمت أن سعيدًا هو الذي يعزف بالناي؛ لأنها سمعته مرَّاتٍ، ورأته يعزف هو وزوجها، ويجلسان في ذلك المكان.

ودخلت متسللة، وبدون صوت ظلت تسمع هذا العزف الشجي المحزن من سعيد، وسعيد لا يشعر بأنها موجودة خلفه تستمع لعزفه وتشعر به.

تقف أمل خلف سعيد وهي تبكي، لقد ذكَّرها سعيدٌ بعزفه لهذه المقطوعة الحزينة جدًّا بأنه يناجي فيها موت أخيه، ويتذكر اللحظات الجميلة التي كانت تجمعه وأخاه الذي كان قطعة من قلبه، وسنده وظهره وعمود عمره وسعادته وضحكاته.

لم يشعر سعيدٌ بأمل، وفجأة بكت ونحبت بصوت مسموع، لم تستطع أن تكتم بكاءها وتتحمل وتصبر؛ لأن العزف حزين وأليم، قطَّع قلبها وغيَّر كيانها، وجعلها تخرج عن شعورها، ونفد صبرها.

فجأة سمع سعيد صوتها؛ فنظر لها مندهشًا، وما زالت الدموع في عينيه، لكنه توقف عن العزف ليتأكد مَن الذي خلفه.

سعيد تفاجأ: أم عاصم، من امتى أنتِ هنا؟!

فطأطأ سعيدٌ رأسه ليخفي دموعه التي ما زالت تنزل منه بغزارة.

- أمل وهي تبكي: اعزِف يا سعيد، ذكِّرْني بحامدٍ وأيَّامه الحلوة.

- سعيد مشفقًا عليها حتى لا تتألم، يتظاهر بأن لديه عملًا، ولا بد أن

يذهب الآن: مرة أخرى يا أم عصام؛ لأني أريد الذهاب للعمل في الغيط، وسوف أرسل لكِ سلمى وسعدية وزوجتي.

خرج سعيدٌ مسرعًا وفي يده الناي، وهو يتألم من الموقف، وحزينًا على زوجة أخيه وحبيب عمره.

بقيت أمل وحيدةً في الحديقة، تتذكر حامدًا وذكرياته الجميلة الرائعة، وما زالت متأثرة بعزف سعيد ونايه الأليم الذي أوجع فؤادها، وملامحه التي هي طبق الأصل لحامد.

- أمل تردد وهي تبكي، وتطوف بين الأشجار في الحديقة لوحدها معزوفة سعيد (لأم كلثوم):

أنساك ده كلام

أنساك يا سلام

أنساك ده كلام

أنساك يا سلام

أهو ده اللي مش ممكن أبدًا ولا أفكر فيه أبدًا

أهو ده اللي مش ممكن أبدًا ولا أفكر فيه أبدًا

ده مستحيل قلبي يميل

ده مستحيل قلبي يميل

ويحب يوم غيرك أبدًا، أبدًا

أهو ده اللي مش ممكن أبدًا

أنساك ده كلام

أنساك يا سلام

وجاءت جنات وسعدية وسلمى وزوجة سعيد وأولادها، وقضوا يومًا سعيدًا في الحديقة ولعب الأولاد مع عماتهم.

- عليٌّ يكلِّم أمل في أمور السفر؛ لأنها أخبرته بأنها تريد السفر هي وأولادها للقاهرة.

فقال لها عليٌّ: خير إن شاء الله يا أم سالم، أنا قلت لعمي الحاج رضوان فقال لي: لو تريد تبقى هنا ستكون في عيوننا في وسط أهلها وناسها، ولو تريد تسافر تتفضل بالسلامة، المكان الذي تريده وتستريح فيه نحن معها، وقال لي عمي: لا بد أن نسافر معاكِ أنا وسعيد وعمي الحاج رضوان، وأولاد عمي نوصلك، ونبقى معكم أسبوع على الأقل.

فتبسمت أمل وانبسطت أساريرها للشهامة والرجولة، وأنهم مهتمون بها وبأولادها، وأنهم يحافظون على الأعراض، ويقدسون الواجب والمبادئ، والقيم والعادات والتقاليد والأعراف والأصول.

- أمل بابتسامة مشرقة قائلة: شكرًا للحاج رضوان، الكبير كبير.

– علي: سنسافر بعد غدٍ إن شاء الله بسيارتنا وسيارة عمي الحاج رضوان، ونؤجِّر سيارة كبيرة للنساء، لأن أُختاي سلمى وسعدية ستسافران معنا وبعض أهلنا من القبيلة؛ لأن هذه من عاداتنا وتقاليدنا، وسنقيم عزاءً هناك لأصدقاء حامد الذين لم يأتوا للعزاء لبُعد المكان.

فسعدت أمل أكثر عندما علمت أن هذا الجمع سيسافر معها ليُكبِّروا بها وسط أهل أبيها وأهل أمها، وصديقاتها وجيرانها، وزملاء وأصدقاء حامد في القاهرة.

فهزت رأسها مبتسمةً، وقالت لعليٍّ وعيناها تذرفان دمعًا: حامد لم يمُت، الدنيا بخير، الأهل عزوة، هذا يطمئنني على أولادي أن لهم أهلًا وعزوة، وأحبُ أن يتربوا بينكم حتى يعرفوا ويتعلموا الشهامة والرجولة، ومعرفة الواجب والكرم، وسوف أزوركم كثيرًا ليعرف أولادي أهلهم وذكريات أبيهم التي كان يحكي لهم عنها، ولقد أحببتُ حامد وحكاياته عن الصعيد والقبيلة، وأحببتُ أهله وكل عاداته وتقاليده.

– عليٌّ: هذا واجبنا؛ لأنه أخونا، وأولاده أولادنا، وأنتِ زوجته ومن العائلة.

بعد أن أنهى عليٌّ كلامه مع أمل خرج حتى تستعدَّ لاستقبال المودِّعين لها من نساء العائلة ونساء القرية.

– سوف أسافر يا حامد، وأتركك هنا يا قلبي، يا زوجي الغالي لوحدك.

تقول تلك الكلمات وتشعر كأنها قادمة على معركة صعبة في الحياة بمفردها وبدون حامد. كيف أستطيع أن أخوض هذه المعركة الصعبة بدنوك وأنتَ لست معي؟! الأولاد وشركتك وعملي، ووحدتي وغربتي وحسرتي عليك وعلى فراقك، أنتَ في الصعيد وأنا في القاهرة، بل قلبي في الصعيد وجسدي في القاهرة!!

أصعب فترة في حياتي سأعيشها بدونك في معترك الحياة، لقد غِبت يا سندي، يا ظهري، يا رفيق الدرب، يا حبيب القلب، الوداع يا راقدًا تحت الثرى لكنك بين ضلوعي ودمي وشريان قلبي، سوف أزورك كثيرًا حتى أتزوَّد من عبير ذكرياتك، ولأكون بجوارك حتى ولو للحظات، سأرجع لك، لن أغيب عنك كثيرًا، أعلم أنك تشتاق لي كما أشتاق لك، لم ولن أتركك، يجب عليَّ أن آتيك حتى أتنفس هواءك النَّقيَّ، حتى أقاوم صُعوبةَ الحياة الشديدة الصعبة، لأنك حبيب قلبي، وزيارتك تشعرني بالحياة والوجود.

وهي تبكي وتتكلم دخلت عليها أمُّها وجدتها وهي على تلك الحالة، فقالت لها: أمل؟!

ردَّت بصوت مبحوح والدموع على خديها بغزارة: نعم، أمي.

– حرام عليكِ، ماذا تفعلين؟

– أمل بحزن وألم: كيف يا أمي وسأترك زوجي وحبيبي وعمري هنا، وقصة حبي وذكرياتي الجميلة؟!

– أمها وهي تخفي حزنها: يا ابنتي هو في ضيافة الرحمن، وربنا أحن وأرحم عليه منا، ولا بد أن نُسلم الأمر لله ونصبر ونحتسب.

– أمل ولا تزال تبكي: نعم يا أمي، ربنا أرحم به منا لكن الفراق صعب جدًّا، حامد أحب الناس لقلبي، كان سندي بعد ربنا، وكنتُ أتّكل عليه في كل شيء، الحياة صعبة بعده يا أمي.

– كُلُّنا جنبك يا أمل.

فنظرت نظرة حزن وألم وقالت: البركة فيكم نعم، لكن العالم كله لا يغنيني عن زوجي، هو الأنيس لقلبي، هو الحنان والرقة يا أمي.

هنا بكت أمُّها وحضنتها وقالت: نعم يا ابنتي، لكن لا بد أن نواجه الحقيقة والواقع، ولا بد أن نعرف أن هذا مُقدَّر ومكتوب، ولازم نسلم به، قومي توضَّئِي وصلِّي العشاء، واستغفري ربك على الكلام الذي تقولينه هذا، وادعي له حتى نرى ماذا نفعل، لأن نساء العائلة ممكن يدخلوا علينا الآن، قومي يا ابنتي أنظري أين أولادك؟

فقامت أمل لتُصلِّي كما نصحتها أمُّها، وأرسلت لأولادها من بيت عمِّهم سعيد حتى يناموا معها هذه الليلة.

رحلوا ولم يتركوا لنا سوى بقايا ماضٍ عَطِر لا يُنسى

صوت نتمناه، حضن نفتقده، حبّ يكبر ثم يموت فجأةً، صور صامتة،

شوق ولهفة، دموع لا تجفُّ، وجع لا ينتهي، منزل خالٍ ومليء بالذكريات، وثياب معلقة تقتلنا بين الحين والآخر تُذكِّرنا بأصحابها.

وهج الذكريات قد يثير فينا الشجن، ويثير فينا الحزن، قد يعود بنا إلى الماضي الذي لا نستطيع نسيانه، لأنه محفور في ذاكرتنا، في قلوبنا وأحاسيسنا ومشاعرنا، هذه الذكريات باقية فينا حتى نموت، لم ولن تُمحى، وأن أصحابها ما زالوا معنا في قلوبنا وأرواحنا.

بعد صلاة الفجر عزموا على الرحيل إلى القاهرة، وبدأ الركبُ في التحرك، ولكن أمل أخذت في البكاء والنحيب؛ لأنها أول مرة تعود من الصعيد بدون زوجها وتتركه، أول مرة تعود بدون حبيب قلبها، يكاد قلبها ينفطر من شدة الحزن والبكاء.

ستسافر بلا قلبٍ، لقد تركت قلبها هنا حيث يرقد حامد حبيبها، الذي ستعود للقاهرة من غيره، كانت طوال الطريق شاردة الذِّهن، تفكر كيف تعيش منزوعة القلب بلا حنينه، وبدون بسمته وضحكته البديعة التي كانت تملأ عليها الحياة، وتعطر لها بيتها بالعبير والجمال والرقة، تشعر بأن قلبها ليس بين ضلوعها، بل بقي هناك، ولقد أبى أن يأتي معها، بقي مع حبيبها، طوال الطريق تتأوَّه وتبكي وتفكر، وتشعر كأنها قادمة على معركة صعبة لا تقوى عليها بمفردها دون الرفيق والسند، وكلما بُعدت واقتربت من القاهرة انقبض قلبها وضاقت نفسها، وخامرها الحزن والألم والوجع.

لقد لاحظ الجميعُ شرودها وصمتها ودموعها، تفكر في رفيق العمر

الذي غاب عنها، موقف صعب عليها، أن تأتي بدون زوجها، تركته هناك، وكيف تعيش بدونه؟!

خوفها من المجهول القادم، الدموع لم تفارقها، في الطريق لم تأكل ولم تشرب، ولم تتكلم ولو بكلمة واحدة.

كانت تتململُ كثيرًا وهي على مقعدها؛ كأن نارًا تضطرم في قلبها توقظ شوقها لحامد، مخنوقة خائفة وتتنهَّد كثيرًا، والحزن على ملامحها وعلى ثيابها، تنظر بعين الحزن لكل شيء، وتشعر بأن كل ما حولها من مناظر يشاطرها حزنها ووجعها ومصيبتها الموجعة التي مزقت ضلوعها، وأرَّقت مضجعها وأبكت فؤادها، لم تشعر بالمناظر الجميلة التي حولها؛ النيل والنخيل والخضرة والجمال، كيف تشدُّها هذه الأشياء وأنيس عمرها تحت الثرى؟! لم تذق طعم الجمال؛ لأن القلب موجوع برحيل الرفيق.

وصلوا إلى القاهرة الجديدة، التجمع الخامس قبل الغروب، وكان في انتظارهم سالم ابن عم حامد، ووالدها وأخوها وليد وزوج جنات، ومبروك الغفير وزوجته بدرية.

وعندما دخلت الفيلا أخذت تبكي وتنتحب بصوت مسموع، وتقول:

رجعت من غيرك يا حبيبي

يا قلبي يا عمري

كيف الحياة من بعدك يا حامد؟!

كيف أعيش هنا لوحدي وبدونك؟

لقد تفاجأ الجميعُ ببكائها.

ظلت تصرخ وتبكي بكاءً مُرًّا حتى أبكت من معها، حضنتها أمُّها وحاولت تهدئتها: حرام عليك، لا يصح هذا يا أمل.

- أمل بحرقة: كيف لا يصح يا أمي؟! لقد رجعت من غيره يا أمي!!

- أمُّها تحاول تُصبِّرها، وتربت على كتفها وهي في حضنها: أمر ربنا يا ابنتي.

أخذ الجميع في البكاء من كلامها عندما دخلت البيت، حتى الحاج رضوان أخذ يبكي من كلامها وعليّ وسعيد وسالم، الجميع بكى.

وانهمرت أمل في بكاءٍ شديد ونحيب، وأخذت أولادها في حضنها، وهي تقول: مات أبوكم يا أولادي، مات أبوك يا سالم، مات أبوك يا عاصم، يا سلمى مات بابا الذي كان يُحبُّك كثيرًا، مَن سيشتري لكم ما تُحبُّون وأنتَ يا عاصم وأنتَ يا سالم؟

فاكرين يا أولاد عندما كنتم تنتظرون أباكم على الباب، عندما كان يعود من العمل، لم ولن يحدث بعد اليوم، مات الأملُ والحبُّ.

وتتجول في الفيلا وتبكي بصوت عالٍ، والجميع يبكي كأن حامدًا مات في التوِّ واللحظة.

وتشير بيدها، وأمها وجنات وسلمى وسعدية يبكين مثلها وهن خلفها.

حامد كان يجلس هنا، كان يشرب قهوته في ذلك المكان، تتكلم بهيستريا وبكاءٍ مُرٍّ، انظروا كان يُحب الورد الأبيض، هذا الورد قد ذبُل حُزنًا على فراقه، كان يجلس بعد العصر يوم الجمعة يقرأ الأهرام في هذا المكان. وتشير وتبكي وتنظر للجميع.

لم ولن يجلس بعد اليوم يا سلمى يا جنات، ظلت تصرخ حتى بللت الدموع صدرها، يا حامد فينك يا حبيبي، رجعت من غيرك، أول مرة أسافر من غيرك وأرجع بدونك.

تتجول في كل مكان في الفيلا، وتصعد لأعلى وتنزل، وتنظر للجميع كأنها أُصيبت بالجنون....

دخلت جميع الحُجرات، وأمها وجنات خلفها، لقد هيَّجت الجميع للبكاء والحزن، وأوجعت القلوب ببكائها ونحيبها.

وعندما صلت لحجرة النوم صرخت صرخة مدوِّية: آهٍ، ما أعمق جُرحي؟! كيف النوم فيكِ بعد الآن وقد رحل عن اليمامة أنيسها وعطر مخدعها، وأنيس وحدتها ونور ظُلمتها وساقي بستانها، ومبدع مفاتنها ومزهر زهرها ومسك مضجعها، وموقظ أنوثتها، كيف وكيف يروق لي دخولكِ لأعيش فيكِ وهجَ الذكريات الأليمة؟!!

دخلت حجرة نومها وهي تبكي، واستأذنت من أمها وجنات وسلمى

وسعدية لتبقى في الحجرة بمفردها، لا تريد أن يزعجها أحدٌ، وأغلقت الباب عليها وهي باكية متألِّمة.

الرِّجال في الدور الأرضي من الفيلا، لأن حامدًا قد جهز الدور الأرضي للضيوف، والدور الثاني له ولأولاده.

- سأل الحاج رضوان جنات: هل امرأة عمّك صعدت لشقتها؟

- جنات ولا يزال أثر الدموع في عينها: نعم يا جدي.

- الحاج رضوان: لعلها تستريح.

- سلمى بتنهد: لا تستريح يا عم، أنا أعرف أمل، ستظل تبكي حتى الصباح.

- الحاج رضوان: ربنا معها، الفراق صعب وبالأخص حامد رحمة الله عليه.

- سالم موجهًا كلامه لزوجته وجنات: ممكن تقوموا تحضروا لنا لقمة، أنا اشتريت حاجات وأدخلتها في المطبخ قبل وصولكم؛ لأنكم من الصبح على فطاركم لم تأكلوا شيئًا.

فقامت جنات وأمها وسلمى وسعدية وأم أمل، وذهبن للمطبخ في الدور الأرضي من الفيلا ليجهزن العشاء.

وهن في المطبخ قالت أمُّ أمل لجنات: ممكن يا جنات يا ابنتي تطلعي طعام لأمل؟

ردت جنات والسرور على وجهها وقالت: طبعًا يا خالتي، هذا مهم.

التف الرِّجال حول المائدة إلا سعيد لم يقترب منها، فلاحظ الحاج رضوان أن سعيدًا عازفٌ عن الطعام، فقال: يا سعيد يا ابني كلنا متأثرين بفراق حامد، وفراقه غصب عنا، لا يد لنا في ذلك، فلا بد أن نسلم لأمر الله يا سعيد، الحزن في القلب، وربنا يعلم يا سعيد أن قلوبنا متقطّعة على حامد. يا ابني لازم تأكل حتى تستطيع أن تقوى على هذه الحياة، والحزن ليس أن تحرم نفسك من الطعام، وكمان يا ابني لازم تأكل عشان أولاد أخيك يأكلون مثلك، أنت تعرف أنهم يحبونك جدًّا، ومتعلِّقون بك مثل أبيهم، لازم تتظاهر أمامهم بعدم الحزن حتى تخفِّف عنهم فراق أبيهم.

عندما سمع سعيدٌ كلام عمه اقترب: أمرك يا عم، تقدم إلى المائدة سالم وعاصم عندما اقترب سعيد من الطعام.

- الحاج رضوان لأبنته أم جنات زوجة سالم: يا أم جنات طلّعوا أكل لأم سالم حتى تأكل؛ لأنها من الصباح لم تذق طعم الزاد.

- أم جنات: حاضر يا أبي.

- عليٌّ موجهًا كلامه لعمه الحاج رضوان: يا عم سيأتي ناس كثيرون ليعزُّونا، موظفون في شركة حامد، وأصحابه من رجال الأعمال، والعديد من الناس.

– الحاج رضوان: أهلًا بهم، نحن سنبقى هنا أربعة أيام، ونستقبل من يأتي. وأيضًا ناس من البلد ساكنين في حلوان وعين شمس وإمبابة وأكتوبر بيت عليان، وناس الزنيمات في حلوان من الرشايدة اتَّصلوا بي وعرفوا أننا وصلنا، وسيأتون للعزاء بكرة إن شاء الله.

بعد أن أكل الجميع ترحَّموا على حامد، وحينما اقتربت الساعة من الحادية عشرة قبل منتصف الليل أخلد الجميع للنوم؛ لأنهم كانوا في سفرٍ شاقٍّ طوال اليوم.

طرقت جنات وأم أمل الباب حتى تدخلا لأمل لتأكل وللاطمئنان عليها، لكنها لم تفتح الباب بسرعة بل أبطأت، ناشدتها أمُّها وترجَّتها لتفتح، وبعد إلحاح فتحت الباب.

– أم أمل رأت أبنتها متغيرة، والحزن على وجهها، وما زالت تبكي محمرَّة العينين، بهتت عيناها الجميلتان الرائعتان، وشحب لونها مائلًا للصفرة، والإعياء ظاهرٌ عليها بوضوح، تكاد تموت من شدة الحزن فبكت أمها، وأخذتها في حضنها، وبكيا بكاءً ذا نحيب، أمها تبكي على حال ابنتها، وأمل تبكي حزنًا على فراق حبيبها.

وجنات بكت لبكائهن، وعلى حزنهن، وعلى الحالة التي وصلت لها أمل، ضمر جسدها، ودمر الحزنُ نفسيتها، أمل التي كانت أجمل النساء في الحسن والجمال، تقول في سرِّها: نحن النساء نحب بصدق، والواحدة منا إذا

عشِقت زوجها تفانت في حُبِّه وأخلصت له، يا رب احفظ زوجي، وارحم عمي حامد، وصبّر أمل.

– أمل وهي تبكي بشدة: ادخُلا تفضَّلا، أمي أحبك وأقدِّرك، وأنتِ كذلك يا جنات، والجميع له مقام عندي لكن لا نفس لي في الزاد؛ لأني أشعر بمرارة في حلقي، ولا نفس لي في أي شيء، وأرى الدنيا سوداء لا نور فيها؛ لأن نورها غيبه القدرُ، لا جمال فيها فحامد هو جمالها وبهجتها وروعتها.

دعوني وشأني حتى أعيش لوحدي مع روحي في حجرة نومي التي كنتُ أسعد فيها مع حبِّي وحبيبي.

وهي تبكي بحرقة: المهم هل أكل الأولادُ والضيوف؟

– جنات والدموع تملأ وجنتيها: نعم أمل، الجميع تعشوا، ولكن جدي رضوان قال: خذوا أكل لأم عاصم حتى تأكل؛ لأنها من الفجر لم تذُق طعامًا.

– هزت أملُ رأسها: فيه الخير الحاج رضوان، ضعوا الطعام هنا إكرامًا لعمي الحاج رضوان حتى لا يغضب عندما يسمع أني رفضتُ طلبه.

– أم أمل بحزن: مثلما تُحبِّي يا ابنتي براحتك، ربنا يصبرك وينزل عليكِ رحمته.

– أمل ترتمي في حضن أمها وتبكي بصوت ذي نحيبٍ، ادعيلي يا أمي، أنا في مصيبة حلَّت عليَّ شديدة وصعبة، أنا بلا روح، لقد جئتُ بدون روحي من الصعيد جسد فقط، ونفسٌ يدخل ويخرج، شُلَّت حركتي وضاعت قوتي،

والحمل ثقيل والسفر طويل، والحزن أصبح رفيقي، والآهات تمزِّق فؤادي، أعياني البكاء ومزق أضلعي، وأشعل النار في صدري، الفراق صعب يا أمَّاه.

– أم أمل بشفقة الأم، وما تزال أمل في حضنها: لا تقولي هذا يا ابنتي، رحمة الله وسعت كل شيء، وأنه رحيم بعبادة، وسيكون معكِ ويوفقكِ، وستكملين مشوار زوجكِ إن شاء الله.

– أمل بصوت مبحوح ومجهدة: ونعم بالله يا أُماه.

– جنات وأمها خرجتا؛ لأنها أصرت على البقاء بمفردها فترة، وطلبت ألَّا يزعجها أحدٌ، وقالت لهم: اهتمُّوا بالأولاد والضيوف، ودعوني أعيش في حجرتي مع زوجي، وذكرياتي التي أسعدني فيها زوجي الغالي.

بعد أن استأذنت من أمِّها وجنات أغلقت باب حجرتها، وأسندت ظهرها على الباب، واستمرت في البكاء والنحيب على الرغم من الصداع الشديد في رأسها وارتفاع ضغطها وإنهاك بدنها، والمرارة التي في حلقها تنظر في الحجرة يمنة ويسرة، ألم شديد ووجع في كل جسدها بسب قلَّة الطعام وكثرة البكاء وجهد السفر، هدَّها الحزنُ، تشعر أن روحها ستخرج في الحال والتوِّ واللحظة لتلحق بحبيبها.

عصبت رأسها (بإيشارب) أسود؛ لأن الصداع يؤلمها، يكاد رأسها ينفجر من شدة الألم، كأنَّ برأسها بركانًا، وأنها تغلي كالقِدر التي على النار.

تتجول في الحجرة وتكلم نفسها بصوت مبحوح، لقد تحجَّرت عيناها

وتحجَّر الدمع فيها، لم يبق فيها دموع، لقد نضبت من كثرة البكاء، وضُعفت حركتُها، تكلم نفسها: حبيبي تركتني لوحدي في هذا العالم القاسي الأليم شديد القسوة، من دونك سأقاسي الوحدة ومرارة الفراق!!

كم أشتاق إليك يا رفيق دربي، يا سعادتي التي غابت عني في لمح البصر!!

أشتاق لحبك الوفيِّ وصدرك الرحب النقيِّ، ولبسمتك التي لا تغيب عن شفتيك، بسمتك المعطرة بنسيم الفجر الندي....

غيابك مؤلم موجع، تُؤلمني أضلعي من شدة البكاء والنحيب، أكاد أموت عليك، آهٍ لو كان النحيب يُرجعك، وتكون أمامي الآن؛ لبكيت الليل والنهار، وملأت الطرقات والليالي دموعًا عليك، واستأجرتُ مَن ينتحب معي، لكن هيهات هيهات يا غالي!!

آهٍ ثم آهٍ، أين أنت حتى أسند رأسي على صدرك الرَّحب الذي كان يُشعرني بالأمن والأمان والسعادة؟! بل لأستريح من عناء الغربة والفراق، ولأسبح في بحر رحاب حبك العميق الذي كنت أغترف منه لأنسى همومي وحزني الذي كان يعطيني دفعةً للتفوق والنجاح والازدهار والحب والفرح....

أنا الآن أحتاج لك كما يحتاج الطفل لحنان أمِّه الذي لا يستطيع العيش بدونها، فأنا لا أقوى على الحياة بدونك، بل لا أعرف للحياة طعمًا، فأصبحتِ الآن بدونك حنظلًا؛ لأنك كُنتَ الشهد فيها.

حبيبي، لقد مرَّ على غيابك أكثر من شهر، غِبت عن عيوني ولم تغب

عن قلبي وخاطري طرفة عين أو لحظة، بل ما زلتَ كلَّ تفكيري وحياتي، وصوتك يملأ بيتي بل بيتك يا عمري.

ضحكاتك الرَّنانة تُتابعني، وبسمتك وصورتك الرائعة وطيفك بجواري على السرير، لم تغب بل أنت موجود في كلِّ كياني وحولي وتمشي معي، وفي سيارتي وفي نومي ويقظتي....

أشتاق للمسات يديك التي كانت تُنسيني هموم الحياة وتعطيني الأمل، وتجعلني أشرق وأزدهر.

يا لها من غربة مؤلمة بدون وجودك!!

لم تنم ليلتها، حتى الصباح تتجول في الحجرة، وتجلس على السرير، وتنظر في كل زوايا الحجرة.

تتقلب على سريرها، لم يزرها النوم لحظةً، قلقة تبكي وتنتحب على الفراق وتقاسي الألم.

وكانت تُمرِّر يدها على السرير بجوارها تتحسَّسه كأنه نائم بالفعل بجانبها على السرير، وتكلمه وتخاطبه كأنه يقظ بجوارها.

وتقول كما كانت تقول له وهو على قيد الحياة: نَمْ يا حامد، نَمْ يا حبيبي عندك شغل بدري الصبح، أم تريد أن تسهر تتكلم معي كعادتك؟ تريد أن تسهر تدردش معي، أنا أعرف أنك تحب كلامي، أم تحب أن أُغنِّي لك الأغنية التي تحبها حتى تنام؟ نَم يا حامد. تُمرِّر يدها وهي تبكي وتنتحب حتى ملأت وسادتها بالدموع.

أخرجت صورةً له من درج التسريحة، وعندما أخرجتها قبَّلتها ووضعتها على عينيها وهي تبكي بكاءً مرًّا، وتنهَّدت بحسرة وألم وهي تُقبِّلها: آهٍ كم أحبُّك؟ فراقك صعب، يا ليتك تأخذني إليك حتى أراك وأتلمسك، وأعيش في حضنك هذه الليلة، وتكلمني وأكلمك كلام الزوج لزوجته. الوحدة صعبة يا حامد على الرَّغم أن الناس حولي، أمي وإخوتي وأهلك والعالم جميعه؛ لكني أشعر بالوحدة والفراغ بدونك.

لأنك كنت سعادتي وحلمي الذي كنت أرجوه وتحقق، لكن القدر لم يدعني أكمل معك بقية الحُلم، قضاء الله وقدره، سبحانه وتعالى....

وهي تمسك بالصورة، والدموع تنساب على وجنتيها بغزارة وتنتحب، وتُقبِّل صورته وتخاطبه:

فاكر يا حامد أوَّل مرة شُفتني فيها في يوم خطوبة قريبتك جنات، وكانت زميلتي في الجامعة، عندما رأيتني رأيتك تُصوِّب النظر إليَّ وتبتسم...

شعرت أن عينَيْك تلاحقني في كل مكان، وأنك لم تحوِّل نظرك عنِّي لحظة، عندما رأيتُك مركِّز النظر إليَّ شعرت بأنِّي أنثى، بل شعرت أني ملكة.

وعرفت من جنات أنك سألت عني، وتريد معلومات عنِّي، وعرفت اسمي، وقالت لك جنات عني: إني معيدة في جامعة الأزهر كلية الدراسات الإسلامية والعربية، قسم اللغة العربية، وعرفت أنَّك أُعجِبت بي، وأخذت عنوان بيتنا من جنات لتزورنا.

عندما علمت أنك فعلت هذا سعدتُ جدًّا، وكنتُ أحلم بك وأُمنِّي نفسي وأقول: متى يأتي هذا الفارس ويحقق أُمنيتي ويجعل الحُلم حقيقة؟

وهي تمسك بصورته وتبكي.

كنتُ في قمة سعادتي عندما اتَّصلَت بي جنات، وقالت لي: إنك سوف تزورنا يوم الخميس المقبل؛ لتتعرف على عائلتي، لا أستطيع أن أصِفَ لك شعوري وإحساسي وسعادتي، كان الاتصال من قريبتك يوم الاثنين فعشتُ ليوم الخميس كأنِّي فراشة تطير بين الورود، وكنتُ قلقةً، ولم أذق طعم النوم من شدة الفرح والسعادة حتى أراك وأسمع صوتك.

وكنتُ أسأل نفسي أسئلة عديدة:

كيف صوته؟

كيف حديثه؟

كيف كلامه؟

كيف هو؟

ولماذا اختارني من دون بنات العالم؟

كنتُ أنتظرك بشوقٍ، أنتظر فارسي، فتى أحلامي، أملي.

كنتُ منطوية في حجرتي لوحدي، أُفكِّر فيك، ولم تفارقني ابتسامتك التي عبرت لقلبي ليلة فرح قريبتك وملأته بالحب والتفاؤل والسعادة، وأشعرتني بأنوثتي.

لدرجة أني لم أستطع أن أفتح كتابًا، ولم أكتب كلمة واحدة، ولم أخط بقلمي، وكم كنتُ أحتاج لهذا الوقت وأنا أُعدُّ رسالةَ الماجستير.

قلت لنفسي: هذا هو مستقبلي ورسالتي وشهاداتي، لأن شخصيتك جذبتني وشدتني، وأخذتني لعالم الأحلام.

شغلتَ عقلي وتفكيري وقلبي، وسحرتَني بابتسامتك العطرة التي كماء سقى أرضًا جدباء فاخضرَّت، وأينع فيها الخير، وتفتح فيها الورد؛ وأنوثتي كذلك.

نظرَتُك زرعت في قلبي وردةً تنتظرُك لتقطفها بيدك، لتسعد بها وبعبيرها الذي لم يشُمه أحدٌ قبلك ولا غيرك، لقد عرفتُ عنك الكثير، حدَّثَتْني عنك جنات، كم كنتُ أتحدث معها بالساعات الطوال عنك، وكنتُ أستمتع معها بالحديث عنك قبل زيارتك لنا.

وتنظر لصورته وتتنهد وهي تبكي وتقول: وآهٍ ثم آهٍ عندما زُرتنا ليلة الخميس بعد العشاء...

لقد كنتُ أختبئ في حجرتي من الرَّهبة، ومن شدة الشوق لرؤيتك، وهذا حال كل فتاة ليلة خطوبتها.

وأقول لك: يا حبيبي، كم وددتُ أن أستقبلك على الباب لأطوِّقك بذراعي وأحتضنك، وأقول لك: قد طال غيابُك لمَ تأخَّرتَ؟!

وأخبرك أني أحببتك منذ رؤيتك ليلة الفرح، عندما أسعدَتْني نظراتك إليّ، لكن حيائي وديني منعاني أن أفعل....

عندما دخلتَ بيتنا لا أستطيع أن أصِفَ لك سعادتي، شعرتُ أني في الجنة، بل صعدت للقمر، وأن بيتنا تعطر من بسمتك وضحكتك الجميلة....

وعندما جاءتني أختي الصغيرة، ونادت عليَّ فرحة وسعيدة، وقالت: يا أمل، العريس وصل...

شعرتُ أنَّ قلبي انخلع مني من شدَّة الفرح، وأخذتُ أرتعش، وتصبَّبتُ عرقًا من الرَّهبة والشوق إليك...

وجاءتني أمِّي، وطرقت باب حجرتي لأستعدَّ للخروج لأُسلِّم عليك، في أول لقاء وجهًا لوجه بك، لا أستطيع أن أصِفَ لك شعوري وسعادتي.

لقد مكثتُ أكثر من نصف ساعة أتردد بين المرآة وبين الرهبة والخوف، وأتجول في حجرتي حائرةً، وزادت نبضات قلبي وارتفعت حرارة جسمي، ونظرتُ في المرآة كثيرًا لأتأكَّد من حسن مظهري وأناقتي وأنوثتي، كنتُ مضطربة وخائفة؛ لأني كنتُ أحلم بك كثيرًا وأشتاق للقائك أكثر، لكني خائفة من رهبة عينك ووسامة محياك.

قلبي كاد أن يقفز من صدري ويسبقني ليُسلِّم عليك من شدة الفرح، كدت أن أطير بل كأني فراشة، لقد امتلأ قلبي بالسعادة والفرح والسرور، أعلم أن الأنثى إذا أحبَّتْ أحبَّتْ بصدقٍ وإخلاصٍ، وسيطر الحبُّ عليها وتملَّكها، لكن الحياء يمنعها من البوح إلاَّ بقدر الحاجة، وعندما تملك ذلك الحب تفيض عطاءً لَمن تحب.

وعندما رأيتك وأنت جالس مع أبي وأخي الأكبر وعمي وخالي -بصدقٍ- لولا حيائي ووجود أهلي لقبَّلتُ يدَيك ورأسك؛ لأنك لم تحاول أن تتبعني في الطرقات وتطاردني في كل مكان، أو تطلب رقم هاتف بيتنا من

جنات مثلما يفعل الكثيرُ من الشباب، بل كنت وَقورًا محترمًا، وذلك يدل على أنك متربي ومتدين حتى في فترة الخطوبة كُنتَ كذلك.

وأنا أجلس أمامك لم تصرف نظرَك عنِّي لحظة، كان كلامك منظمًا ومرتَّبًا، تختار ألفاظك بعناية فائقة، وذلك ينمُّ على أنك مثقف ومطلع... لقد استرحتُ واطمأن قلبي لك؛ لأن شخصيتك هي التي أبحث عنها، فوجدتُها فحمدًا لله أن رزقني بك.

وعندما تركونا لحظات لنتحدَّث ونتعرَّف شعرتُ أني أحتضن القمر بين ذراعي، كأني في عالم غير العالم، كأني أسبح في النعيم وأنت تتكلم معي وتبتسم...، وعندما كانت أختي الصغيرة تأتي وتلعب بجوارنا كنتُ أودُّ ضربها حتى لا تقطع عليك الكلام الجميل الرائع الذي أسمعُه منك.

الذي أحيا مشاعري وعلقني بالأمل السعيد، ونقلني من اليأس إلى الأمل، إلى الجنة، وملأني حبًّا، وسيطر على كياني وسقاني من عسل الحب الصافي النقيِّ، وبدلني من العصبية للهدوء، بل جعل قلبي فيه رقَّة وعطف وحنان، وأعطاني دفعة للتفوق والبحث.

وعندما دخل أبي قلتُ: يا ليته تأخر قليلًا حتى أشبع من نظراتك، والتأمل في عينيك الرائعتين المليئتين بالسعادة والرقة والعطف والأمان والرجولة...

وكنتُ أُصغي لك جيدًا عندما كنتَ تتحدث مع أهلي عن الفرح وتحديده، ويومها قلت لأبي: إنك جاهز، ولكنك حددت شهرًا للسؤال عنك وعن أهلك.

حقًّا كنتُ أودُّ أن أقول لأبي: أنا أعرفه أكثر منكم، يعرفه قلبي، لا تُتعبوا أنفسكم، أعرفه جيدًا؛ لأن قلبي اطمأن له وعشقه، وقلبي دليلي.

وضعت الصورة على صدرها، واحتضنتها بشدَّة وهي تبكي.

يومها أعجبني كلامُك، قلتَ لأبي: لا أريدُ خطوبةً ولا شيئًا بل بناء، وقبل البناء بيومين العقدُ، وسوف آخذ زوجتي وأسافر للغردقة لقضاء شهر العسل.

فعلًا كلامك وتفكيرك صحيح، قلتَ لأبي: لماذا أصرف مالًا كثيرًا بدون فائدة، أنا الفرح يخصني ويخصكم ويخصُّ أهلي، وأريد أن أُسعد زوجتي وأمتعها، ونكون لوحدنا فقط.

سعدتُ عندما سمعتُ منك كلمة زوجتي، أشعرتني أني زوجتك من الآن، وكنتُ في قمة سعادتي، وفرح قلبي وغنَّى أغنيةً كنتُ أودُّ لو تسمعها، أغنية الأمل....

تخاطبُ الصورةَ كأنَّها تخاطبه حيًّا: أتعرف يا حامد، عندما انتهت الزيارة وهممتَ بالخروج كنتُ أريد أن أبوح بأعلى صوتي وأقول لك: ابقَ حتى الصباح، حتى لا ينطفئ النور الذي عمَّ أرجاء بيتنا، والسعادة التي غمرتنا بوجودك، لكن حيائي منعني، وخشيتُ أن تفضحني مشاعري، ويظهر عليَّ قلة الحياء؛ لأني قرأتُ كثيرًا أن الرجل يحب المرأة الحَيِيَّة، وتذكَّرتُ ابنةَ سيِّدنا شعيب وحياءها من سيدنا موسى، وأن سيدنا موسى ظل يعمل لدى أبيها عشر سنين، وقد أُعجِب بحيائها وعفَّتها وتربيتها؛ لذلك أفنى من عُمرة تلك

السنوات تقديرًا واحترامًا لأبيها ولها على هذه التربية المثمرة التي أثمرت هذه الزوجة الصالحة الحييَّة....

وتنظر لصورته: أتعرف عندما ذَهَبْتَ ذَهَبَتْ معك روحي؛ لأني كنتُ أودُّ لو تبقى في بيتنا حتى الصباح؛ لأني وأنا معك ما كنتُ أشعر بالوقت ولا بالساعة، ولا بالحياة ولا بالعالم، كنتُ عندما أنظر إليك أشعر بالفرحة؛ لأنك ستصبح زوجي وفارس أحلامي الذي تخيَّلتُه فأرسله الله لي.

وعندما خرجتَ بدأتُ أخاف عليك؛ لأنك أصبحتَ جزءًا مني، بل قلبي الذي يمشي على الأرض، وبدأ القلق عليك والتفكير فيك بقوَّة، خفتُ عليك من الهواء الطاير، خفتُ عليك من كلِّ شيء؛ لأنك أصبحتَ روحي ومهجة فؤادي.

لقد كنتَ رائعًا أيام خطوبتك، كنتَ ودودًا رحيمًا حنونًا رفيقًا بقارورتك. لبَّيتَ لي جميع طلباتي في تجهيز عشِّ الزوجية، لم تختلِ بي إلا بوجود أهلي، لذلك أيقنتُ أنك شهم وابن بلد وأنك صعيدي أصيل، تخاف على العرض وتحافظ عليه، لذلك أحببتُك بجنون، وجدتُ فيك الرجولة والأصالة، وأنك لم تُغيِّر لهجتك وأصلك ومبادئك، وحنينك لبلدك وقريتك، واعتزازك بقبيلتك سلايل عبس، وبدويتك وعاداتك وتقاليدك على الرغم أن والدك من كبار أغنياء الصعيد!!

أتعرفُ أنِّي أحببتُ لهجتك؟! واشتريتُ كتبَ عبد الرحمن الأبنودي لأقرأ عن الصعيد، وعن اللهجة الرشيدية الصعيدية، واشتريتُ مؤلَّفات سيد الرشيدي: رواية خالتي حميدة، وحكايات من الصعيد، ورواية مجنون

دلال؛ لأعرف وأطَّلع على عادات وتقاليد جنوب الصعيد؛ لأنه نقلَ هذه العادات بواقعية فائقة، نقل صورًا لم نعرفها ولم نسمع عنها؛ لأننا كنا نشاهد في بعض الأفلام أن أهل الصعيد عالَم يختلف عنَّا ويعيشون في ظلام ورجعية وتخلُّف، وانتشار الثأر والخطف والإرهاب المجتمعي والأسري، لقد شوَّهوا الشخصية الصعيدية بكلِّ ما استطاعوا، لكني وجدتُ فيك غيرَ ذلك، وتحقَّقتُ من ذلك عندما عاشرتُ وعشتُ في الصعيد بين أهلك وعشيرتك.

لقد أحببتُ كلَّ شيء فيك وعنك، وعلمتُ أن الصعيدي رجل شهم لا يحبُّ أن يجرح أحدٌ كرامتَه؛ فكنتُ أحرصُ على ذلك، نعم أنا أحببتُك بكلِّ كياني وتفكيري.

تتحرك في حجرتها، وتمسك بصورته، وتضعها على قلبها، وتنظر لها باكيةً:

حامد حبيبي، الوحدة والفراق، الغربة الحرمان القسوة، الحب يحرق كبدي، فراقك يكويني، يقلقني يؤرِّقني، لا أنام، لم أذقه جيِّدًا، منذ فراقك يهيج ذكرياتك بقلبي.

عرفتُ قدرك وقيمتك؛ لأن الحنان غاب وانقطع، ولم أجد أحدًا يحنو عليَّ من بعدك؛ لأنك كُنتَ لي نهرًا من الحنان والسعادة...

سوف أضع صورتَك على قلبي لتسمع بكاءه ونداءه لك، يخاطبك: يا حبيبي، أتسمع يا حامد دقَّات فؤادي وأنينه وبكاءه وصراخه؟! يُعذَّب بفراقك يا قرَّة عيني.

خرجت أمل لتطمئنَّ على أمِّها، لأنها تعلم أن أمَّها لم ولن تنام طالما هي في تلك الحالة، خرجت وهي تضع صورةَ حامد على قلبها. وجدت أمها هي وجنات تجلسان في الصالة أمام حجرتها، لكنهن نائمتان لقد أعياهما وأجهدهما السفر، وأخذهما التعبُ لعالم النوم.

نظرت لهما بشفقة وبكت: تعب الجميعُ بسببي، ولموتك وفراقك يا حامد، يا لها من صدمة زلزلتني أنا ومَن حولي!!

وبرفق وضعت يدها على رأس أمها ثم قبَّلتها؛ ففزعت أمُّها وهي مضطربة عندما شعرت بها.

- بشفقة الأمومة: أمل، كيفك يا ابنتي؟! يا رب تكوني بخير.

- أمل هزَّت رأسها بحزن: بخير يا أمي.

نظرت أمُّها فوجدتها تضع على صدرها صورةَ حامد، أخذت منها الصورة، وعندما رأت أمُّها الصورة بكت بنحيب، فهنا استيقظت جنات عندما سمعت البكاء فزعةً.

حاولت جنات التهدئة: صلوا على النبيِّ، قولوا: لا إله إلا الله.

أمل: أنتما نائمتان هنا لماذا؟! لمَ لم تناما في الحجرة مع سلمى وسعدية؟!

- جنات: جلسنا أنا ووالدتك هنا لربما تريدين شيئًا؟

- أمل: لا أريد شيئًا، لا بد أن تسترحن.

أم أمل: صحتك يا أمل، حرام عليكِ، شكلك تغير وخسِّيتي، وجسمك عدم.

– أمل وهي تنظر لصورة حامد: ما فائدة صحتي وجمالي وقد مات فارسُ المهرة؟!

– جنات تحاول تغيير الكلام: هيَّا يا أمل لتستريحي وتنامي ولو قليلًا، الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل.

– أمل: أين الأولاد يا جنات؟

– جنات: سالم وعاصم ناموا مع عمهم سعيد، وسلمى نامت مع عمتها سعدية وسلمى.

وجدي رضوان وأبي وعلي وزوجي ينامون أسفل في الدور الأرضي.

– أمل: أين أولادك يا جنات؟

– جنات: مع حماتي، هي في شقتي ربي يكرمها.

– أمل: طيب خير، خذي أمي وناموا في الحجرة المقابلة لحجرتي.

– جنات: حاضر، لكن حاولي أن تنامي ولو قليلًا.

أمل تهز رأسها: إن شاء الله.

دخلت أمل حجرتَها، وأخذت تتجول حائرة حزينة، وتجلس أمام المرآة

وهي تنظر وتتأمل وجهها الباهت الشاحب، وقد أعياه الحزن، تتحسر وتتكلم كأنها تخاطب حامدًا كأنه يجلس بجوارها.

ثم قامت من أمام المرآة، وجلست على سريرها، وأمسكت بالصورة والدموع تملأ عينيها، تخاطب الصورة وتستعيد الذكريات، وتقول: أتذكرُ يا حبيبي في خطوبتنا التي فرَّغتُ نفسي لمعرفتك ومعرفة كل شيء عنكَ، وأجَّلتُ رسالةَ الماجستير من أجلها... زرتُ جنات كثيرًا في بيتها لأسأل عنك وعن عائلتك قبل زيارة أبيك وأمك للقاهرة للتعرُّف علينا، ورؤية والدتك لي، وأخبرَتْني جنات عنكَ وقالت فيكَ الكثيرَ والكثيرَ، ودار حوارٌ بيني وبينها عنكَ، وعندما كانت تذكُر لي اسمكَ كنتُ أشعر بالفخر لأني عرفتُكَ، وأنك خطيبي وفتى أحلامي، وحلمي الذي بدأ يتحقق.

– قالت لي جنات: يا أمل، ملاحظة إنك مهتمَّة بحامد، وتركتِ دراستك وأبحاثك.

قلتُ لها والبسمة على شفتيّ: كيف يا جنات لا أهتمُّ به، وهو يستحق الاهتمام؟!

ثم أخبرتها بجدِّية اهتمامي بك لأنَّك زوج المستقبل: يا صديقتي

أنا أحببتُه جدًّا؛ لرجولته وقوة شخصيته على الرغم من بساطته وطيبته وذوقه وشهامته.

وطلبتُ منها أن تُحدِّثني عنك حتى تُشبع رغبتي، لأن الحديث عنك يجلب الراحة لنفسي.

فقالت لي جنات: اسألي ما شئتِ يا أمل؟

حامد ابن عمِّ أبي وأمي، وأنا سافرتُ الصعيد كثيرًا، وأعرفه وأعرف أهله جيدًا؛ لأنهم أهلي وقبيلتي.

سألتُها عن أهلك ومن أيِّ محافظة أنتَ من صعيد مصر؟

أجابَتْني جنات وهي تضحك وتمزح وتقول لي: حاضر يا دكتورة من عيني، وتقول مازحة: تاعباني طول عُمرِك حتى في زواجك يا أمل... بصي يا ستي، نحن من محافظة قنا، نسكن في قرية من قُرى نجع حمادي... العسل الأسود يا أمل (وأخذتا تضحكان بصوت مرتفع).

قالت جنات مقلدة بائع العسل وهو ينادي في الشارع: عسل نجع حمادي يا عسل... هههه.

وهي تضحك: أنتِ فُزتِ بالعسل كلِّه يا أمل، حتى لا تشتري العسل مرة أخرى؛ لأنه عندكِ ويلزَّق لكِ البيت، ويملأ الشقة عسل، وستلزقي فيه لزقة حلوة. (وضحكتا بصوات عالٍ).

قالت أمل وهي تبتسم: بصراحة يا جنات، أنتم عسل مصفى، وقلوبكم أشد بياضًا وطيبون، وأنا فخورة بكم وبعسلكم.

قالت لي جنات ساعتها: يا بخت حامد بيكِ، بصراحة فاز بيكِ... وإن كان هو عسل أسود فأنتِ عسل أبيض، وأحلى من الشهد يا أمل، يا بخت عمِّي.

وحكت لي عن أهلك، وأن والدك من أصحاب الأطيان بالصعيد، وقالت: إن أباك عرض عليك أن تعمل معه في الزراعة، وتتوظف في بلدك وتعيش هناك لكنَّك رفضتَ، وقلتَ لأبيك: يا أبي، لقد درستُ في كلية التجارة؛ لأني أريد أن أعمل بالتجارة وأحقق حلمي، وأُؤسِّس شركة في الاستيراد والتصدير، فوافق أبوك وقال لك: كما تحب.

وذكرت لي عنك كذلك أنك نجحت، وأنك في بداية مشوارك التجاري، وأن أباها يعمل معك في شركتك، وأنك صاحب خيرات كثيرة، وبارٌّ بأبيك وأمِّك وأهل قريتك.

قلتُ يومها: أتعرفين يا جنات؟ كان من شروطي في زوج المستقبل ألَّا يكون رجلًا مدخِّنًا؛ لأني لا أحب الدخان ولا المدخِّنين، ولا يكون رجلًا من مشجِّعي كرة القدم؛ لأني أشاهد الكثيرَ من الناس يشجِّعون الكرة بجنون وعصبية، وبغير ثقافة ولا منطق، ويجلسون في المقاهي وفي النوادي بالساعات يضيعون أوقاتهم وأعمالهم، هذا لا يعني أني لا أحبُّ الرياضة، ولكن بهذه الطريقة لا أحبها.

– فقالت لي جنات وقتها: أبشري يا أمل، حامد كما حلمتِ لا يُدخِّن ولا يشجع الكرة بهذه الطريقة، بل هو شخصية جادة مجدة، ومثقف وضحوك ومرح وصاحب نكتة، ويعشق عمله ولولا ذلك ما نجح.

عندما سمعتُ ذلك عنكَ سعِدتُ جدًّا، وشكرتُ ربِّي على هذه النعمة التي أرسلها لي.

ما زالت تمسك بصورته، وتخاطبه وهي تتنهَّد وتبكي بدون دموع، قد جفَّ دمعُها من كثرة البكاء: أتعرف يا حبيبي سألتُ صديقتي جنات سؤالًا تحبُّ تسأله كلُّ فتاة في بداية خطوبتها: يا جنات، حامد ماذا قال لكِ عنِّي بصراحة؟

نظرت لي وحاولَتْ أن تمثل لي بغضب وتكشيرة، وبلهجة صعيدية وبشدة في القول: أقُلِّك يا أمل وبصراحة قال: إنك وحشة!

عندما قالت ذلك ركَّزَتِ النظرَ على وجهي لتُراقب ردَّ الفعل، لكنني يا حامد أعرفُ جيدًا أنها تمزح وأنها تضحك، وتريد أن تداعبني وتعرف ردَّ فعلي، وبدلًا من أن أكشِّر ضحكتُ وعندما رأتني أضحكُ ضحكَتْ هي، وقالت لي والبسمة على شفتَيها: عارفة، قال فيكِ كلامًا رائعًا.

فنظرتُ لها بلهفةٍ لأعرف ماذا قُلتَ عنِّي، وأخذَت تحكي وتقول: إنك سعيد جدًّا أنك خطبتني، وأنك قد عثرتَ على زوجتك التي كُنتَ تحلم بها.

وقالت لي: إنك معجبٌ بأبي مدرِّس التاريخ، ومعجَب بثقافته ورزانة عقله وفهمه للواقع.

وأنك عرفتَ من أبي معلومات تاريخية لم تكن تعلمها قبل ذلك في التاريخ، وأنه أعطاك بعض الكتب، وحثَّك على القراءة في التاريخ.

وقال لك: يا حامد يا ابني، رجل الأعمال الناجح لا بد أن يكون مثقفًا، ويعرف تاريخ بلاده والبلد الذي يستورد منه ويصدِّر إليه.

وعلمتُ أن شخصية أبي أبهرتكَ لعمق ثقافتهِ وقوَّة ذاكرته، فعلًا يا حامد

أبي هذا معلِّم مربٍّ مثقَّف يعرف التاريخ جيدًا، وقد تعلمتُ منه الكثير والكثير وهو مثلي الأعلى، أتعرف يا حبيبي أنَّ أبي كان يقول لي: يا أمل، التاريخ الذي ندرِّسُه في المدارس للطلاب فيه تزييف، وأن هناك أحداثًا حقيقية غائبة منه ومحذوفة، عندما قال لي ذلك ذهلتُ: أحقًّا يا أبي؟

قال لي: نعم يا حبيبتي.

وأرشدني إلى بعض الكتب في التاريخ في مكتبته، وقال لي: اقرئي تلك الكتب، هذا هو التاريخ الحقيقي!! وفعلًا تأكَّدتُ من معلوماته من خلال تلك الكتب، ومن لحظتها وأنا قارئة نَهِمة في مكتبة أبي العامرة.

عندما تحقَّقتُ من الأمر قلت له حين ذلك: معك حقٌّ يا أبي، فعلًا يوجد تزييف في التاريخ.

كان مثقفًا، تعلَّمتُ منه فنَّ السياسة... ذات مرَّة أخذ يكلمني عن الواقع العربي وما يحدث فيه، وأن العرب قوَّة لو اتحدوا وشرذمة إذا تفرَّقوا، وقال: ما ضاعت فلسطين إلا بسبب تفرُّق العرب وخياناتهم لشعوبهم وأرضهم، ولحُبِّهم لعروشهم ومناصبهم، كانت حواراتي مع أبي شيقة مليئة بالحقائق والمعرفة التي كانت غائبة عني.

وقالت لي جنات يا حبيبي: إنك ذكرتَ أنَّ أبي شخصية محترمة ووقور، مُربٍّ فاضل صاحب مبدأ.

فعلًا يا حامد أبي صاحب مبدأ، أتعرف أن أبي طوال حياته لم يُعطِ درسًا خصوصيًّا لطلابه؛ لأنه كان مخلصًا لمادته في الفصل، وكان يشرح بجدية

وضمير، وكان الطلاب يحبونه ويقدرونه، ولم يتأخر لحظة عن مدرسته ولا في أداء وأجبه، ومن حبه لعمله ومادته تعلق به الطلابُ حتى دخل الكثير منهم كلية الآداب قسم التاريخ.

نعم، تقديرك في محلِّه لأبي، أتعرف يا غالي عندما زُرتَنا للتعارُف أوَّل مرة ماذا قال لي؟ أبي أخذني في الحجرة وأغلق الباب، واقترب مني متبسمًا بحنان الأبوة، وقال لي: يا أمل.

رددتُ بحياء: نعم يا أبي.

فقال: عريس جيد، أنا بصراحة ارتحت له، يظهر عليه أنه ابن ناس، متربي وخلوق وشهم وكله حياء.

وسألني سؤالًا يسأله كلُّ أب لأبنته عندما يأتيها عريس أول مرة: إيه رأيِك فيه؟

طبعًا في تلك اللحظة كدتُ أموت من شدة الحياء من أبي، لكنك في قلبي متربع، بل زاد في دقاته حبًّا وهيامًا، وبسمتك وصورتك لم تفارقني لحظة.

أجبتُ أبي ووجهي في الأرض من الحياء والخجل: اللي تشوفه يا بابا.

فقال لي بحنان الأب: أفهم من كلامك أنك موافقة، فهززتُ رأسي في خجل: نعم.

فقال لي مهنِّئًا: مبروك يا ابنتي، ربنا يتمِّم على خير.

لقد كان سعيدًا بكَ، ولقد لمحتُ في عينيه الدموعَ من شدة الفرح، فلم أتمالك نفسي، فبكيتُ واحتضنتُه من شدة سعادتي.

فجلس بجواري، وقال لي بحنان الأب: حبيبتي، أنا أفنيتُ عُمري عليكِ وعلى أخيكِ وليد وأختك فاطمة الصغيرة آخر العنقود حتى أربيكم تربية جيدة، حتى أكون فخورًا بكم أمام الناس، وهذا واجبي... أتعرفين يا أمل أني سمَّيتها فاطمة الصغيرة على اسم أمي الله يرحمها.

يا رب أراكِ أستاذة جامعية ناجحة في عملك، والحمد لله ها قد تحقق ما أريدُ، أصبحتِ معيدة في كلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر في قسم اللغة العربية، وأخوكِ مهندسًا ناجحًا في العمارة، ولله الحمد.

– حقيقي يا حامد، إن أبي شخصية عظيمة، لقد حكي لي عن خطوبته لأمي، وكيف اختارها عن حبٍّ، وأنه أُعجب بها لتديُّنها وإخلاصها، وقال لي: أتعرفين لماذا أحترمُ أمك؟

قلت له: لماذا يل أبي؟

قال لي: لأن أمك ما أغضبتني في يوم من الأيام، ولم ترفع صوتها عليَّ أبدًا، ولا عاندتني، ولم تكن ناشفة الرأس ثرثارة.

وأخذ يتحدث عن أمي، وقال فيها الكثير والكثير، وقال عنها: أمك مدرِّسة للمواد الشرعية بالأزهر، كانت الذي تعلِّمه لطالباتها تطبِّقه في بيتها... على الرغم من عصبية أبي أحيانًا كانت أمي حنونة عطوفة معه، كان عندما يغضب أبي لا تردُّ عليه ولا تقف في وجهه حتى يرجع لصوابه، ويندم على عصبيته، وكان أبي سرعان ما يرجع لطبيعته الودودة ولرقته وحبه لنا، بل كانت أمِّي كالإسفنجة التي تمتص الماء، فكانت تمتص غضب أبي... لقد

قال لي في أمي كلامًا رائعًا؛ فتمنيت من الله وهو يحدثني عن أمي أن أكون مثلها في علاقتي معك.

ولقد أوصاني أبي وقال لي: كوني مثل أمك يا حبيبتي.

وقالت لي جنات كذلك: إنك معجَب بأمي المربية الفاضلة.

– لم تنم أملُ ليلتها، تتذكر ما دار بينها وبين زوجها طوال الفترة التي عاشوا معًا، تتجول في حجرتها وتخرج منها، وتتجول في الفيلا والجميع نائم إلا هي.

تخرج إلى البلكونة: هنا جلس حامد، هنا شرب قهوته، هنا قرأ الصحيفة.

تدخل حجرة المكتبة، تقلِّب في كتبه، تُخرج بعض الكتب التي كان يقرؤها في الأدب العربي والتاريخ والنظم والإدارة والتخطيط وعلم النفس.

وعندما كانت تقلِّب في مكتبته، نظرت على سطح مكتبه فوجدت مصحف حامد؛ فأمسكت به وهي تبكي: آهٍ يا حامد، أسأل اللهَ أن يرحمك ويغفر لك، ويشفع فيك القرآن، أعلم أنكَ كنتَ تواظب على صلاة الفجر، وبعد أن تعود من الصلاة من المسجد تخلو مع مصحفك وتقرأ ساعة ثم تخلد للنوم لتستيقظ لعملك وشركتك الساعة التاسعة والنصف، وتُطيل في القراءة عندما لا يكن عندك عمل، أنتَ نعمَ الزوج، مصحفك الذي كنتَ لا تسافر من دونه أيَّ دولة في العالم.

– أمسكت المصحف وقبَّلته، ووضعته على صدرها فوجدت علامة تحديد القراءة في سورة السجدة؛ فبدأت تقرأ، وكلما تقرأ تزداد خشوعًا وسكينة وهدوءًا، وعندما وصلت لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ سكنت روحُها واطمأنت وحاولت الرجوع والثبات، لقد هدَّأها القرآن الكريم، وصفَّى رُوحها قليلًا، وكانت كلما تمرُّ على آية من آيات سورة السجدة تتدبرها جيدًا وهي تقرأ، وتسبح في عمق الآيات وتتدبر حتى أذان الفجر، وكان مؤذن المسجد الذي كان يصلي فيه حامد ذا صوتٍ رائع، لقد هزها صوتُ الأذان بل زلزل كيانها، وجعلها تتغير وتشعر بأن هناك شيئًا عظيماً ينقصها، شعرت أن روحها خالية من الإيمان والرضا بقضاء الله وقدره، وعاتبت نفسها على ما فعلت، فبكت خشيةً لله وهي تقول: اغفر لي ربي وسامِحني، وارحم حامد.

فلبست إسدال الصلاة مسرعةً، وفرشت مصلَّاة حامد في مكتبه، وأخذت تصلي سُنة الفجر، وتدعو وتبكي وتطلب الرحمة والغفران من الله.

ثم صلَّتِ الصبح، وأخذت تقول أذكار الصباح وهي جالسة على مصلاتها، وهي جالسة غلبها النوم فنامت مكانها بإسدالها.

– في الصباح ستيقظ الجميع الساعة العاشرة صباحًا، واستيقظت سلمى وسعدية ليجهزا وجبة الفطور؛ لأنهن متعودات على الاستيقاظ مبكرًا في الصعيد، ولكن يعلمن أن مَن في المدينة يستيقظون متأخِّرين قليلًا، وكذلك

الحاج رضوان وعلي وسعيد وسالم استيقظوا مبكرًا من الساعة السابعة صباحًا، وظلُّوا يتحدثون حتى استيقظ النسوة.

– سلمى وسعدية: صباح الخير عليكم؟

– الحاج رضوان وسعيد وعلي وسالم: يُصبِّحكم الله بالخير.

– الحاج رضوان: أخبار أم سالم إيه يا سلمى؟

– سلمى: لا أعرف يا عمّ، جنات تعرف كل شيء عنها، لأننا بالليل من التعب نمنا وتركناهم.

– سعيد يدخل في الحوار: أكيد نائمة الآن، لأنها لو مستيقظة لحضرت لنا هنا لتطمئن علينا.

– سلمى: صحيح يا سعيد، أمل تحترم ضيوفَها، وبالأخص أهل حامد.

– الحاج رضوان: نعم، بنت حلال، ربنا يصبرها ويعينها على ما هي فيه.

– علي لسلمى وسعدية: حضروا لنا الفطور يا بنات حتى يفطر معنا أولاد المرحوم حامد: سالم، وعاصم.

– سلمى وسعدية: حاضر.

– سعيد يوجه كلامه لأخواته البنات: لو فيه شيء ناقص ممكن أخرج أشتريه؟

– سلمى: خير كثير يا سعيد، المطبخ مليء بالخيرات، لا نحتاج إلا طعمية سخنة وفول فقط.

– سعيد نادى على غفير الفيلا مبروك رجل طيب من محافظة الفيوم.

مبروك: نعم يا حاج سعيد.

سعيد: ممكن بعد إذنك تشتري لنا فول وطعمية؟

مبروك: حاضر حالًا.

وبعد نصف ساعة أحضر مبروك الطلبات.

سعيد: شكرًا يا حاج مبروك.

مبروك: معذرة، عربية الفول عليها زحمة لذلك تأخَّرت.

سعيد: ولا يهمك، افطر معنا يا حاج مبروك.

مبروك: سبقتُكم، أنا بافطر الساعة الخامسة صباحًا بعد صلاة الفجر لقد عودني الأستاذ حامد على ذلك رحمة الله عليه، كنا أنا وهو بعد صلاة الفجر نفطر فول على عربية الحاج عبده الواحاتي، فوله روعة ومشهور هنا بالتجمع الخامس.

على فكرة عمِّي عبده زعل عندما علم بموت الأستاذ حامد، وقال لي: إنه سيأتي للعزاء اليوم في المساء، وأنه يقرأ الفاتحة للأستاذ ويدعو له كثيرًا؛ لأن الأستاذ حامد كان كريمًا معه.

سعيد: نعم يا حاج مبروك، الجميع يحب حامد عليه رحمة الله؛ لأنه كان متواضعًا خلوقًا.

مبروك: الله يرحمه، شخصية لا تتكرر.

أخذ سعيد الطلبات، ودخل في المطبخ لسعدية وسلمى ليجهزا الإفطار.

– تناول الجميع الفطور وشربوا الشاي والقهوة، وبعد ذلك تكلم الحاج رضوان مع سالم ابن أخيه وسعيد وعلي عن العزاء.

– سالم: أنا اتفقت مع دار المناسبات بالمسجد، وجهزت كل شيء.

–الحاج رضوان: تمام يا سالم، لازم نخرج بعد العصر نستقبل مَن يأتي ونُرحِّب به.

– سعيد: اتصل بي الآن الرشايدة من إمبابة وتجَّار الجِمال من السوق، وسألوني عن العزاء، ورشايدة سوق العبور ومن الإسماعيلية، وسيتحركون بعد الظهر.

– علي: ممكن يصلون هنا على العصر.

– الحاج رضوان: وعرب حلوان من الزنيمات والبراطيخ سيأتون للعزاء.

– وهم يتحدثون دخلت عليهم أم أمل، وألقت عليهم السلام وهي تنظر بقلق.

– والد أمل يسألها: مالِك يا أم وليد، فيه حاجة؟!

– ردَّت بقلق: أمل لم أجدها في حجرتها، قلت: يمكن عندكم؟

– ردَّ الجميع: يمكن دخلت حجرة أخرى، أو أنها خرجت.

– أم أمل: سأبحث عنها، صعدت للدور الثاني من الفيلا، ومرت على جميع الحجرات إلا حجرة مكتب حامد؛ لأنها لا تتوقع أنها تكون هناك،

فقررت دخولها، وعندما فتحت الباب وجدت أمل نائمة مستغرقة في النوم على سجادة الصلاة، فاقتربَتْ منها ووضعت يدها على رأسها ومررتها برفق بحنان الأمومة، وقالت في نفسها: ربنا يصبرك يا ابنتي، وينزل عليكِ السكينة والسلوان.

– أمل عندما شعرت قامت مفزوعة وقالت: آسفة يا حامد، تأخرت عليك يا حبيبي.

– أم أمل: بسم الله عليكِ، أنا ماما يا حبيبتي.

– أمل نظرت لأمها وقد أرهقها السهر وقلة النوم وأعياها الحزن قالت: معذرة أمي، آسفة.

– أم أمل: ممكن تكملي نومك على سريرك يا ماما.

– أمل: كم الساعة الآن؟

– أم أمل: الحادية عشرة.

– أمل: هل أستيقظ الجميع وفطروا؟

– أم أمل: نعم، الجميع فطر حتى أولادك؛ سالم وعاصم فطروا مع أعمامهم وجدهم وعماتهم.

– أمل: جيد، وجنات وأنتِ يا أمي هل فطرتما؟

– أم أمل: دعكِ منَّا، أهم شيء أنتِ يا ماما.

– أمل تُقبِّل صورةَ حامد وتخاطبه: أشرِقْ كما تُشرق الشمس على العالَم

في كلِّ صباح، أنت شعاع الأمل وبصيص لروحي، أنتَ الذي تمدني بالقوة حتى أحيا، أنت مددي بل قوتي وسعادتي، أنت رجُلي بل الهواء الذي أتنفسه، بل عبير عمري وضحكتي وابتسامتي، صباح الخير يا فارس عمري، مُهرتك تحتاج لك، غزالتك تريد أن تسعد بك، صباح الخير يا وطني، يا حبيبي، وردتك ذبُلت من قلة الماء؛ لأنك كنت ماءها وروحها. وتنظر للصورة وتبكي وتقول: صباح الخير، أنتَ موجود تملأ كل أركان بيتي بضحكتك ووجودك، وتملأ كل كياني، يا فارسي لم ولن تغيب، أنا الغائبة وأنتَ الموجود.

آسفة، لقد ذُبلت عيناي اللتان كنتَ تتغنَّى بهما شعرًا، وتفيض فيهما نثرًا، كيف أُزهر بعدك وأنتَ الساقي؟!

– أم أمل تسمع كلماتها مندهشة والدموع تملأ عيونها: يا ابنتي هوِّني على نفسك!!

– أمل: كيف يا أمي ولم يتركني لحظة، ولم يفارق خيالي؟!

تنظر للصورة وتُقبِّلها، وتضمها لصدرها وتتنهَّد وتقول بصوت مسموع: آآآآآه، غربة موحشة دونك يا فارسي.

فجاءةً طرق باب الحجرة، أم أمل: مَن بالباب؟

– أنا بدرية يا ست هانم.

– أمل تمسح دموعها بسرعة وتستعد: ادخلي يا بدرية.

– بدرية زوجة غفير الفيلا مبروك: السلام عليكم.

– وعليكم السلام.

– كيفك يا دكتورة أمل؟ يا رب تكوني بخير وصحة جيدة.

– أمل تهزُّ رأسها: الحمد لله يا بدرية، عاملة إيه أنتِ وأولادك؟

– بدرية: بخير كلنا ولله الحمد، أهم شيء أنتِ يا دكتورة.

– أمل بتنهُّد: بخير يا بدرية.

– بدرية: حبيت أطمِّن عليكِ، وربما تطلبي شيء يا دكتورة؟

– أمل: فيكِ الخير يا بدرية.

– بدرية: ممكن تنزلي تتمشِّي شوية في الحديقة يا ست هانم، جهزت لكِ مكانك، ووضعت الكراسي حتى تفطري وتشربي قهوتك في الحديقة.

– أم أمل تبتسم لكلام بدرية: أحسنتِ يا بدرية.

– بدرية: ممكن تنزلي معي يا دكتورة؟

– أمل: حاضر يا بدرية، لكن أنا أريد منكِ طلب.

– بدرية: أؤمريني يا دكتورة، أنا في خدمتك.

– أمل: خذي صورة الأستاذ، واذهبي لاستديو الفرسان آخر الشارع ليكبرها ببرواز كبير أو مبروك يذهب بها.

– بدرية وعندما رأت صورة حامد بكت بنحيب، وأخذت تقبِّلها وهي تبكي وتقول: الله يرحمك يا أستاذ حامد.

بدرية زوجة مبروك غفير الفيلا سيدة ممتلئة الجسد فطرية ريفية طبيعية الحديث، لم تتلون وتتغير، تعيش بطبيعتها الريفية كأنها لم تسكن القاهرة.

تبكي وتقول: الله يرحمك يا أستاذ حامد، كنت صعيدي جدع وشهم، وصاحب معروف على الجميع، لا أنسى خدماتك لأهلي وللفقراء والمساكين، كُنت تعطينا من غير ما نسأل، الله يرحمك.

– أم أمل تحاول أن تسكت بدرية وتقول لها: حال الدنيا يا بدرية ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

– بدرية وما زالت الدموع تنزل على خديها: نعم يا ست هانم، لكن الفراق صعب.

– أمل عندما سمعت كلمة بدرية: الفراق صعب؛ تنهَّدت واغرورقت عيناها بالدموع، وقالت: آآآه، الفراق صعب يا بدرية.

– أم أمل حاولت أن تغير الموضوع: (يلا يا بدرية روحي لجوزك عشان يعمل صورة الأستاذ حامد).

– بدرية: حاضر يا ست هانم، ووجهت كلامها لأمل: أنزل بسرعة أعطي الصورة لمبروك، وأنتظرك في الحديقة يا دكتورة؟

– أمل تهز رأسها وتبتسم ابتسامة لإرضاء بدرية، ولتشكرها على هذا الصنيع الجيد: تمام يا بدرية.

– أم أمل: هيَّا بنا يا أمل ننزل نجلس بالحديقة ونفطر هناك، وبدرية تحضر لنا الطعام.

– أمل تحاول أن ترضي أمها وتهز رأسها، ولكن الحزن لم يفارق وجهها وروحها: حاضر يا أمي.

– ونزلتا، نزلت أمل ببطء؛ لأنها متعبة ومرهقة ترتدي ملابس سوداء، وجلست في الحديقة بين الورود والخضرة والأشجار، وسرحت بنظرة شاردة عن الوعي، تتذكر عندما كانت تجلس هنا وزوجها حامد والأولاد يتناولون إفطارهم في يوم العطلة، ودمعت عيناها وبكت.

– أم أمل لاحظت الدموع على خد ابنتها فقالت: أمل حبيبتي، هوِّني على نفسك شوية يا ماما.

– أمل: وحشني جدًّا يا أمي، قلبي لا يستطيع تحمل فراقه، أشعر بالغربة يا أمي، كل شيء حولي مظلم بسبب فراق حامد، انظري للورد كأنه يشاركني البكاء، وجميع هذه الخضرة والأشجار حزينة عليه يا أمي.

– أم أمل: نعم يا أمل، لقد تأثر الجميع بموته وفراقه المفاجئ حتى الطبيعة يا ابنتي.

– وهما تتحدثان جاءت بدرية تحمل صينية الإفطار، وجاءت سعدية وسلمى، واستيقظت جنات من النوم، حتى الأولاد جاءوا ليجلسوا مع أمهم في الحديقة، وعندما علم الجميع أن أمل نزلت للحديقة سعدوا جميعًا، وحاولت بدرية إقناع أمل بأن تأكل من الطعام ولو قليلًا، فأكلت هي وجنات وأمها.

– أمل: تفضلوا كلوا معنا يا سلمى أنتِ وسعدية.

– سلمى وسعدية: نحن فطرنا بدري يا أم عاصم، وحضرنا لعمي رضوان وإخوتي حتى سالم وعاصم فطروا مع أعمامهم.

– أم أمل: تفضلي يا بدرية افطري معنا.

– بدرية: أنا فطرت بدري، وهي تبتسم، لكن آكل مرة ثانية حتى أفتح نفس الدكتورة.

– أمل تحاول أن تبتسم، ولكن الحزن أشد: أشكرك يا بدرية، أشكركم قد أتعبتكم معي.

– بدرية تقوم وتسرع الخطى: حالًا أعمل لكم شاي.

– أمل: أنا أريد قهوة يا بدرية (نسكافيه).

– بدرية: حاضر يا دكتورة.

– سالم ابن حامد وجه الكلام للجميع وقال: جدي رضوان وأعمامي سألوا عنكِ يا أمي، وهم يريدون الجلوس معكِ.

– أمل: أنا أذهب إليهم يا سالم.

– سالم: لا يا أمي، هم يريدون أن يجلسوا معك في الحديقة.

– أمل: تمام يا بني.

– لما حضر الحاج رضوان وقف الجميع، وجلس قريبًا من أمل، وجلس علي وسعيد وسالم والأولاد، ووالد أمل ووليد أخو أمل وزوج جنات، الجميع موجود في ذلك اليوم؛ لأنهم يستعدون للعزاء.

– الحاج رضوان عندما يتكلم ينصت الجميع: يا أم عاصم، اليوم سنقيم عزاءً لحامد في دار مناسبات مسجد حسن الشربتلي بجواركم هنا؛ لأن ناس من عرب الرشايدة أقرباء لنا سيأتون من حلوان وإمبابة وعين شمس والعبور وأكتوبر والإسماعيلية والسويس.

– أمل بتنهُّد: تمام يا عم، البركة فيكم.

– الحاج رضوان: وسعيد اتصل ببعض تجار الجِمال ببرقاش بالجيزة لشراء جمل يُذبح صدقة على روح حامد.

– أمل: تمام يا عم، بارك الله فيكم، لكن يا عم الجمل يدفع حقه من مال حامد الخاص بعد إذنك.

– الحاج رضوان: يا ابنتي لا فرق بيننا نحن أهل، وحامد ابني وأنا عمه.

– علي يستأذن عمه الحاج رضوان في الحديث: بعد إذنك يا عم.

ويوجه كلامه لزوجة أخيه أمل: يا أم سالم، حامد له أفضال علينا جميعًا، وهذا شيء قليل نقدمه لحامد.

– عندما سمعت أمل كلامَ عليٍّ اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها حبست دموعها حياءً من الجميع، وقالت بتنهُّد: (خير، اللي تشوفوه).

– الحاج رضوان يوجه كلامه لسالم ابن أخيه: يا سالم.

– سالم: نعم يا عم.

– الحاج رضوان: الجمل سيأتي مذبوح وجاهز على الطبخ، نريد جزءًا منه لإطعام الضيوف هنا، وسيكون عشاءً بعد نهاية العزاء بالليل.

– سالم: حاضر يا عمّ، أنا جهَّزت كل شيء، وسيأتي بعد قليل الجمل جاهزًا، وسوف أجهز نصفه للطبخ، وسوف آخذه لمطعم يقوم بتجهيز الوجبات حتى يكون جاهزًا؛ لأني لا أريد النساء أن يطبخن إشفاقًا عليهن، والباقي سوف نجهزه لنوزعه غير مطبوخ على بعض الناس.

– الحاج رضوان: تمام على بركة الله، وقال بلهجته البدوية: (ربي ما يلمكم على كريه).

– علي لعمه رضوان: قوم يا عم لتستريح وتنام لك ساعة؛ لأنك متعود تنام بعد الظهر، وبعد العصر نذهب لدار المناسبات لنستقبل الناس.

– وقبل أن يقوم الحاج رضوان قالت سلمى الصغيرة ابنة حامد التي تبلغ من العمر ثماني سنوات: يا ماما، أين أبي؟ لماذا لا يجلس معنا؟ أنتِ قلتيلي أنه مسافر وسيعود، ومن شهر لم يرجع يا أمي، أبي وحشني جدًّا؟!

كلام سلمى جعل الجميع يُجهشون بالبكاء، ومنهم مَن بكى بصوت ذي نحيب، وبكت أمل وبدرية وسعيد وسالم وسعدية، أخذوا يبكون بصوت عالٍ حتى الحاج رضوان سالت دموعُه على خدِّه، ووالد أمل حضن سلمى حضنًا قويًّا وأخذ يبكي بحُرقة، وأم أمل بكت بشدة، وسلمى تقول: الله يرحمك يا أخي، الجميع أخذتهم الشفقة على سلمى، وحضنها سعيد بقوة وبكى.

– الحاج رضوان حاول أن يغير الموقف، ونهض واقفًا وقال: قوم يا سالم، ويا علي، ويا سعيد هيَّا بنا للنوم.

– قام الجميع خلفه، ولا تزال الدموع في عيونهم، ولقد تأثروا بكلام سلمى تأثرًا بالغًا، سلمى جددت الحزن، وهيجت العيون بالبكاء، وشوقت النفوس، وأدمت القلوب.

– الحاج رضوان: لا بد أن نترك الجلسة، لأني لم أستطع التحمل، وقال لعلي: يا علي، هات أولاد أخوك، ووالد أمل وأخوها، وزوج جنات حتى يكونوا معنا هنا؛ لأن النساء ليس عندهن صبر ولا تحمُّل، ودموعهن قريبة.

– علي: حاضر يا عم.

أمل متأثرة بما قالته سلمى عن أبيها، وسؤالها المتكرر: أين أبي؟ لماذا لا يجلس معنا؟ متى يعود من السفر؟

أسئلتها الكثيرة المتكررة تُؤلم وتُدمي القلوب، شردت أمل وغابت عن الجميع وهي جالسة بينهم، وفكرت كيف تعالج هذه المشكلة، وبما تُخبر سلمى الصغيرة المتعلقة بأبيها وهي لا تعرف حقيقة الموت؟! ماذا تقول لها لو سألت هذا السؤال مرة ثانية؟

وهي شاردة تفكر اقتربت منها جنات وقالت لها: أمل، أين أنتِ؟

أمل كأن جنات أيقظتها من نوم عميق مضطربة مرتبكة: نعم، جنات.

– جنات: أرى أنكِ لستِ معنا صحيح؟

– أمل: نعم جنات، أفكِّر في سلمى كيف أوضِّح لها موت أبيها، وهل لو وضَّحت لها ستفهم؟

– جنات بحِيرةٍ: فعلًا مشكلة، وعاصم وسالم كبار يعرفون الحقيقة، لكن سلمى ثماني سنوات، وكانت متعلِّقة بوالدها جدًّا حقًّا مشكلة، لكن سوف نجد لها حلًّا إن شاء الله، لا تشغلي نفسك.

– أمل: أين ذهبت سلمى؟

– ذهبت جنات مع عمتها سعدية تمرجحها وتلاعبها في الحديقة، سعدية بصراحة دومًا تحتضن سلمى وتلاعبها وتداعبها، لدرجة أن سلمى لا تنام إلا معها.

– أمل: جيد، ربنا يكرمها، سعدية طيبة.

– جنات شاركت الجميع في الحديث تريد تلطيف الجو حتى تخفف عن أمل، فتقول: نطبخ إيه على الغدا يا سلمى ويا بدرية؟

– بدرية: كما تحبون يا ست هانم.

– سلمى: أنا أرى نجهز حاجة خفيفة؛ لأن العشاء سيكون لحم وأرز من المطعم.

– أمل: جيِّد يا سلمى، فكرة جيدة، وتقول لبدرية: (اجعلي مبروك يروح الماركت، ويجيب جبن وبيض وبطيخ).

– بدرية: حاضر يا دكتورة.

– أمل الجميلة رائعة الجمال قد تغيرت كثيرًا بسبب حزنها على زوجها

وحبيبها وكبدها، لكنها ما زالت جميلة ومتألقة الجمال، ولقد زادها الثوب الأسود جمالًا وروعة؛ لأنها بيضاء فاتنة ذات عينين سوداوَيْن شديدتَي السواد والبياض، طويلة الرموش متناسقة الحواجب، باهرة الطلعة فارعة الطول والقوام، مياسة الخدِّ، معطرة الكف جميلة البسمة، كم تغنى فيها حامد وهام بها شوقًا، وكم تمناها الكثير من الشباب قبل حامد؛ لكنها كانت تبحث عن فارسها وتوأم روحها؛ فوجدت كل ذلك في حامد الذي ملك كل روحها وحياتها، فعشقته عشق الآبدين بل عشق الروح للروح، عشقًا لا ينتهى، بل هامت فيه لرجولته وشهامته وإخلاصه وحبه لبيته، أمل الجميلة تتذكر ذكرياتها مع زوجها، لكن هذه الذكريات تؤلمها وتوهج قلبها وتكويه بنار الفراق، أمل لا تزال رائعة لكن الحزن والفراق والغربة غيَّر منها وفيها الكثير.

– حل المساء، وجاء الناس للعزاء في دار مناسبات مسجد حسن الشربتلي بالتجمع الخامس، وحضر للعزاء أصدقاء حامد وجيرانه، ومن الإسماعيلية من الرشايدة والسويس وإمبابة وحلوان والعبور وعين شمس، والموظفون في الشركة، وجيران الأستاذ سالم، وأهل مبروك من الفيوم؛ لأنهم كانوا يحبون حامدًا ويقدِّرونه، وبقي العزاء للساعة الثانية عشرة من منتصف الليل.

– وجاء النساء يعزين أمل من الجيران، وزميلات لها بالجامعة، وجيران أبيها وأقربائها، وكذلك أهل أمها، ولم يسمع أحد بموت حامد إلا وجاء ليعزيهم.

– في نهاية العزاء سافر مَن سافر من المعزِّين وبات من بات، والذين باتوا من العُربان قُدِّم لهم العشاء، وأكرَمُوا ضيافتهم.

– صعدت أمل لحجرتها، توضأت لتصلي العشاء، واستلقت على سريرها لتنام، وحاولت أن تُغمض عينيها لتنام، ولكن لم تستطع، تخيَّلت حامدًا كثيرًا، ولقد غلبها النومُ فنامت؛ لأنها كانت مرهقة متعبة مجهدة من قلة النوم، وبسبب الحزن وكثرة التفكير والبكاء، ولقد عزَّاها نساء كثيرات. هذا المساء أخذت حبة مهدئ ونامت على وضوء وطهارة، وقد قرأت آية الكرسي قبل نومها، ودعت الله أن يرزقها النوم والسكينة والصبر؛ فنامت قريرة العين كنومة عروس.

قيل: أيُّ شيء تُفكِّر فيه كثيرًا ويشغل عقلك في اليقظة تراه في المنام وتحلم به كأنك في اليقظة تمامًا...

زارها حامدٌ في المنام، وأخذ يمسح على شعرها ويقبِّلها ويضمها إليه بقوَّة، ويداعبها كما كان يداعبها في اليقظة، وهي تشعر بلمساته وحنانه وقربه، وتشعر بالدفء وهي بين ذراعيه وهو نائم على السرير بقربها، بل الجسد بقرب الجسد، وهي بين ذراعيه شعرت كأنها في بستان من الورود، بل تسبح في بحر من الرقة والحنان، شعرت بالدفء وسعد قلبها وفرح، كأنها فراشة تطير في الجنة، بل حورية في غُرفة من غُرف الجنة مع زوجها ورفيق عمرها، كأنها عروس في ليلة زفافها وهي تعيش هذه اللحظات الجميلة مع حامد زوجها.

– حامد: أمل حبيبتي، وهو يضع رأسها على صدره.

– أمل: روح قلبي، نعم.

– حامد: أتُحبِّينني؟

– أمل: كيف لا أُحبُّك وأنتَ روحي ونبضي وحياتي وفارسي وربيع عمري؟! وكيف تسأل وأنا بين ذراعيك يا كبدي؟!

– حامد: يا أملي، الرجل منا يحب أن يسمعها من حبيبته حتى ولو هي في حضنه؛ لأن هذه الكلمة تنعشه حبًّا وتعطيه طاقة، وترفع معنوياته وتجعله يشعر بالسعادة وراحة النفس، بل تشفيه من الأمراض النفسية والبدنية، وتُشعره بمكانته في قلب محبوبته وزوجته رفيقة عمره.

– أمل: الله، كلامك جميل ورائع، إنه يُزهر أنوثتي، ويسقى روحي بماء الحب والرقة والحنان، كلامك رائع يا حبيبي، ضُمَّني لصدرك أكثر وأكثر حتى أسمع نبضات قلبك، وأسمع ماذا يقول.

– حامد: ماذا يقول يا أملي؟

– أمل: يقول لي: إنك تُحبُّني حبًّا لا ينتهي ولا يموت، حبًّا متأصِّل الجذور، قويًّا أصيلًا من زوج محب حنون، حامد حاولْ أن تضمني أكثر لتدخلني داخل صدرك؛ لأني أشعر بالأمان، وأشعر بأني ملكة متوَّجة يا حبيبي.

– حامد يشعر بأنفاسها على صدره أمل أنفاسك كأنها عبير فجرٍ ينعش قلبي ويوقظني رائعة هذه اللحظات يا حبيبتي.

– أمل: ما أطيبك يا حُلمي السعيد، ويا رفيق قلبي القريب، ويا ساعدي، ويا ونسي في غربتي، وفرحتي في ليلة عيدٍ، أنت فارسي وساقيني خمر الحب، وباعث مشاعري ولمسات عطري الجديد، وأنتَ من روحي قريب، يا حبيبي، يا رجُلي وسندي.

– حامد: أملي، أتذكرين ليلة عُرسنا؟!

– أمل: آآآآه، كانت رائعة جدًّا، كأني كنتُ في الجنة معك، بل فعلاً كنا في الجنة سويًّا، ولمَ لا وقد أكرمني الله بك؟! وأنتَ نعمة وهدية من الله، أليس هذا رزقًا من الله يجب أن أشكر الله عليه؟ الزوج الصالح الطيب الحنون رزق من الله، ألم تقرأ حديثَ النبيِّ ﷺ:

«إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ».

ورضا الزوج من رضا الله، وأكيد أنت حبيبي راضٍ عنِّي.

– حامد يضمُّها لصدره أكثر، هامسًا بصوته بحنان ورِقَّة: نعم يا حبيبتي، أُشهد الله أني راضٍ عنكِ، كيف لا ولم تغضبيني لحظة ولم تحزنيني؟! وأنكِ كنتِ مطيعةً لي غاسلة لثيابي، طاهية لطعامي، راعية لبيتي وأولادي، وقرة عيني ونبض فؤادي، تحترمينني أمام الجميع، أمام أهلك وأهلي، رافعة رأسي في كل المواقف، غير مبذرة لأموالي، عفيفة اليد واللسان، متدينة قوية الإيمان، مثقفة ذات بيان في الأدب واللغة، وقورة محتشمة.

– أمل: أسعَدْتَني يا حبيب قلبي بكلامك الجميل أعظم سعادة؛ لأن المرأة تسعد بكلمات زوجها فيها، ومدحه إياها والتغزُّل في مفاتنها وجمالها.

– حامد: حقيقة ما أقول فيكِ يا أملي، ويا سعادتي ويا حبي، لا أكذب ولا أتجمل، بل كل هذا حقٌّ.

– أمل: أتعرف يا حامد، عندما أكون في عملي في الجامعة أحاول أن آتي بسرعة حتى أعد لك الطعام؛ لأني أعرفك تقدس البيت والجلوس مع الأولاد، وكذلك أشتاق لك، ونفسي تتوق لرؤيتك، لدرجة صورتك على قلبي دومًا في السلسلة الذهبية لا تفارقني، وعلى موبايلي كلما أفتحه أمامي عيناي بابتسامتك الرائعة، أتفاءل بك عندما أراك أشعر أني ملكت الدنيا والآخرة.

– حامد يضمها لصدره برِقَّة وحنان: فكيف يكون حالك عندما أكون في سفر؟!

– أمل: آآآآه يا عمري، أكاد أن أجنَّ، ولهذا أتصل بكَ كثيرًا ليطمئنَّ قلبي، وأطمئن عليك.

– حامد: من أجل ذلك كنتُ أرجع بسرعة؛ لأني أعرف أني أوحشكِ، وأنكِ تشتاقين إليَّ.

– أمل: أتذكُر ليلة الزفاف عندما ذهبنا للغردقة، وقضينا هناك شهرًا من العسل؟ من عظمة الجمال والروعة شعرت كأني في الجنة معك، وكنتُ أتمنى ألَّا ينتيى هذا الشهر الجميل، وأتذكر منطقة السقالة والأحياء والدهار

والعرب، وعندما ذهبنا للأقرباء لك في منطقة العرب من الرشايدة، وأكرمونا وذبحوا لنا الذبائح، كان شهرًا رائعًا.

– حامد: نعم كنتِ رائعة الجمال، فعلًا كان شهرًا جميلًا، ولقد سعدتُ معكِ لدرجة كأني في الجنة أستمتع بحوريَّتي، وأتنعم معكِ في النعيم.

– أمل: أتذكُر يا حبيبي عندما عُدنا لبيتنا وجاء أهلك من الصعيد وأهلي يباركون لنا؟ أتذكُر ماذا قلتَ لهم عني؟

قُلتَ: أشكر ربي أن أكرمني بأمل، يومها سعدتُ جدًّا، وكدتُ أطير من الفرح والسعادة والسرور.

– حامد: الرجل يا أمل إذا وجد الاحترام من زوجته وأولاده يعطي عطاءً لا مثيل له، ويتفنن في ذلك العطاء لأني أعيش بحكمةٍ معناها: الرجل كالأسد أذا أكل وشبع لا يبحث ولا يجري خلف أية فريسة، لذلك لا بد للمرأة أن تعرف متطلبات زوجها ومتى يغضب ويرضى، وما الذي يغضبه وما الذي يضحكه؟

ولذا، الرجل يجب أن تكون له شخصية في بيته وبين أولاده، إذا قلَّلت المرأةُ من شخصية زوجها في البيت وأمام الناس ينقلب الرجل أسدًا شرسًا قويًّا وعرًا يدمِّر كل شيء؛ ولذا كثُر الطلاق بين الشباب بسبب عدم فهم المرأة لطبيعة الرجل، وطبيعة الرجل معروفة ومفهومة يريد أن يكون رجُلًا، وهو سهل القيادة والتوجُّه.

– أمل: ضُمَّني أكثر يا حبيبي لصدرك، وتسأله سؤالًا، وهل وجدت

كل ذلك فيّ؟ هل روَّضتُك أيها الأسد الرشيدي الصعيدي؟ هل أشبعتك أقنعتك ملأت عينيك؟

– حامد برقة وحنان يمرر يديه على شعرها الأسود الطويل رائع الجمال: كيف يا أملي وأنا مُتيَّم فيكِ؛ لأنكِ تمتلكين كل هذه الصفات الرائعة الجميلة، لقد نجحتُ على يديكِ وبتوجيهاتكِ وتشجيعكِ وإخلاصكِ، ولقد هيَّأتِ لي كل الأمور، وسهلتِ لي الصعاب، ووقفتِ خلفي وعلى يميني وأمامي، لا أنسى عندما أخذتك لتركيا، سافر معنا أولادنا لشراء بعض الصفقات التجارية، وكان لكِ رأي واضح في التبصرة والنصيحة، وأخذتُ برأيكِ، ولقد نجحت الصفقة وكسبت فيها مكاسب عالية، لا أنسى ذلك، وكذلك اختيارك لبعض أموري ومكتبي وتجهيزاته، وفي كل صغيرة وكبيرة من حياتي، لقد وقفتِ بجواري كثيرًا.

– أمل: وأنت كذلك حبيبي، لقد وقفت معي، وكنت نعم الزوج الحنون الودود الرفيق الناصح، لا أنسى أنك وقفت بجانبي في رسالة الماجستير، وكم شجَّعتني ويسَّرت لي الأمور، والكتب والمراجع والأبحاث، ووفرت لي الوقت، وأرشدتني كثيرًا، وكذلك عندما حضرتَ رسالة الدكتوراه كُنتَ نعم الزوج، وفَّرتَ لي كل شيء، ولقد ساعدتني كثيرًا وشجَّعتَني، واخترتَ معي اسمَ الرسالة والبحث: «مكارم الأخلاق في الشعر الجاهلي»، ولقد شدك العنوان، وقلتَ لي يومها: جميل ورائع حبيبتي، لقد نجحتُ وتفوَّقتُ بوقوفك بجانبي وتشجيعك لي، أشكُركَ.

– حامد: أمل، أنتِ زوجتي وقرة عيني، وهذا واجبي لكِ، وكما قلتُ لكِ: الرجل إذا وجد الحُبَّ من زوجته أعطى عطاءً لا مثيل له.

– أمل: لقد أسعدتني يا عمري، حامد أُحُبُّك كثيرًا، وأخاف عليك كثيرًا.

– حامد: وأنا كذلك أحبُّكِ وأخاف عليكِ؛ لأنكِ نعمة وهبة من الله لي، والذي يحب يخاف على حبيبه.

– أمل: حامد ما الذي أعجبك فيّ بعد أن دخلتَ بي ليلة الزفاف وتكشفت عليَّ؟

– حامد: كل شيء فيكِ جميل ورائع، كأنكِ حورية من حُور الجنة حقًّا.

– أمل: أتمنى من الله ألَّا يُغيبك عني لحظة، وأتمني أن يقبضني قبلك حتى لا أموت عليك بسبب الحزن.

– حامد وهو يُحدِّثها وضع يده في جيبه، وأخرج مفتاحًا كبيرًا فضيًّا يشعُّ نورًا، وقال: خذي هذا يا أمل.

– عندما همت أمل بأخذ المفتاح منه استيقظت من نومها على أذان الفجر: الصلاة خيرٌ من النوم، قامت وهي تقبض يدها، فتحت يدها فلم تجد شيئًا، وأخذت تردد: المفتاح، المفتاح؟!

شعرت أن صدره منشرح وسعيدة جدًّا كأنها في الجنة، وأخذت تبحث على السرير، وتنادي: حامد، حامد، أين أنتَ؟

علمت أنها كانت تحلم بزوجها.

لقاء رائع وحوار شيق جميل: لقد أسعَدْتَني يا حامد، يا ليته كان حلمًا طويلًا.

– فقامت ودخلت الحمام، وأخذت دشًّا ساخنًا، وفرشت سجادتها لتُصلِّي الفجر، وهي تشعر بلذَّة في قلبها جميلة ورائعة، لذة الفرح والسعادة، ونشوة ذات نسمة باردة رقيقة.

– صلَّت سُنة الفجر ثم صلَّت الصبح، وجلست على سجادتها تذكر الله، وهي منشرحة الصدر سعيدة؛ لأنها رأت حامدًا في المنام، وسعدت بحضنه الدافئ الحنون، وسعدت بالحوار الذي دار بينهما كأنه يقظ معها على السرير، لكن أمر المفتاح حيَّرها وأقلقها، ما السرُّ في ذلك؟!

وأخذت تتساءل: هذا خير أم شرٌّ؟ ولِمَ مفتاح أبيض فضي يشعُّ نورًا وقد مددتُ يدي لأخذه ولكني لم أستطع؟!

ثم استيقظَتْ، كنتُ أتمنى أن آخُذ هذا المفتاح. وأخذت تسأل نفسها: أكيد هناك سرٌّ؟!

أخذت تفكر في ذلك الأمر، فغلبها النوم فنامت على سجادتها بعد أن أنهت أذكار الصباح.

الجميع يتناول الفطور في الحديقة: الحاج رضوان وعلي وسعيد وسالم ووالد أمل.

– مبروك الغفير: أعملّكم شاي ولا حاجة غير الشاي؟

– الحاج رضوان: أنا أشرب شاي.

– سعيد: ممكن قهوة يا عم مبروك، لو سمحت.

– علي وسالم: نحن نشرب شاي مثل الحاج رضوان.

– الحاج رضوان يوجه كلامه للجميع: بكرة إن شاء الله لازم نتوكل على الله، عشان السفر طويل، ونشوف مصالحنا وأشغالنا.

– الأستاذ سالم: تمام يا عم، طريق السلامة.

– علي وسعيد: ممكن نتحرك صباحًا بعد الفجر يا عم.

– الحاج رضوان: خلاص، على بركة لله.

– الأستاذ سالم يوجه كلامه لعليٍّ: ممكن تأخذ سيارتك يا علي للميكانيكي آخر الشارع هنا تطمِّن على العجل والزيت، وكل شيء قبل أن تتحرك.

– علي: تمام يا أستاذ سالم، إن شاء الله.

– الحاج رضوان لسالم: يا سالم، خلِّ بالك من شركة ابن عمك وأعماله، وكن بجانب زوجة ابن عمك والأولاد، أنت المسئول عن كل شيء.

– الأستاذ سالم: حاضر يا عم، هم في أمانتي، وحامد ابن عمي، وكان عزيزًا عليَّ.

استيقظت أم أمل، وذهبت لابنتها لتطمئن عليها، وعندما دخلت عليها حجرة نومها وجدتها نائمة على سجادة الصلاة كالأمس.

– أم أمل توقظ أمل برقة وحنان الأمومة: أمل، اصحي يا ابنتي.

– أمل تقوم: حاضر يا حامد، دعني أنام قليلًا لو سمحت يا حبيبي؟

– أم أمل: أنا أمك يا حبيبتي.

– أمل تستيقظ ووجهها مشرق كطلعة القمر رائعة الجمال، طوقت أمها بذراعيها: بحبك يا أمي، أتعرفين لقد عشتُ هذه الليلة مع حامد، وزارني وأسعدني، ودار بيني وبينه حوارٌ جميلٌ رائعٌ، وكانت ليلة جميلة كليلة زفافي، بل أروع وأعظم منها.

– أم أمل تبتسم ابتسامة سعيدة: خير يا ابنتي، ربنا يقدر لكِ الخير ويسعدك، ويريح بالك ويُصبِّرك.

– أمل: لقد أسعدني يا أمي، لقاؤه كان حميميًّا، بل كان نهرًا من الحنان والرقة. وهي تحدث أمها سرحت، تذكرت قصة المفتاح فتوقفت عن الكلام وهي تطوق أُمَّها بذراعيها.

– أم أمل: مالِك يا أمل لماذا سكَتِّ عن الكلام، ما بكِ يا حبيبتي؟

– أمل تحاول كتم السرِّ وتهزُّ رأسها: لا شيء، لا شيء يا أمي.

– أم أمل: طيب خير، ممكن ننزل نفطر مع بعض في الحديقة؛ لأن سعدية قالت لي: غدًا باكرًا سوف يسافرون إلى صعيد.

– أمل: (كثَّر خيرهم، معطلين مشاغلهم) هكذا الدنيا يا أمي، الجميع مسافر، لا أحد يبقى على حاله، دنيا حقيرة متقلِّبة، يُشكرون على ما فعلوا، جزاهم الله كل خير.

– أم أمل: يا ماما من حقهم، حامد ابنهم وهم يقدسون الواجب، وعندهم هذا شيء مهم جدًّا، وانظري الحاج رضوان شيخ قبيلتهم وكبيرهم يأتِي هنا بنفسه إن دل ذلك فإنما يدل على كرمه، وأن الكبير عندهم له مقام، وفعلًا الحاج رضوان كبير وذو مقام رفيع، وكذلك يا أمل يا ابنتي أنتِ لكِ مقام عنده ومكانة زوجة ابن أخيه الكبير، ولا تنسي أنكِ كريمة معهم، وتعاملينهم بخلق وترحاب، وتقدرينهم، هل نسيتِ كل هذا؟ وأيضًا هو يُجلُّك ويُقدِّرك ويتكلم عنكِ كثيرًا، ويذكركِ بالخير.

– أمل: فعلًا يا أمي هو رجل محترم، وعندما كنتُ أسافر مع حامد يُصرُّ أن يذبح لنا، ويقدِّم لنا واجب الضيافة والكرم، وأنا إن كنتُ قدَّمت شيئًا فقدَّمته لأني أحبُّ زوجي؛ فطبيعي أحبُّ أهله وعشيرته، ولقد كان والد حامد أعظم كرمًا معي، وكان يُحبُّني ويوصي حامدًا عليَّ، ويقول: أمل هدية لك من ربِّك، بنت ناس متربية، خلِّ بالك منها يا حامد.

وأمه يا أمي لقد رأيتها، قمة في الطيبة والأخلاق والحب، ست بدوية على الفطرة، تحبُّ كل الناس، ومن يراها يحبها لفطرتها وطيبة قلبها وعذوبة حديثها، كانت تحبني بالفطرة لم تتلون أبدًا، كم أنا حزينة لأني لم أسعد بالعيش معهم كثيرًا، بعدما تزوَّجت بسنتين مات أبوه، ثم بعد سنةٍ لحقت به حماتي،

وقد كنتُ أقول لها: يا أُمِّي، كم كنتُ أتمنى أن يطول العمر بهم حتى أراهم وأشبع من رؤيتهم، رحمة الله عليهم.

– أم أمل: فعلًا، جميعهم ناس طيِّبون، والزوج يا ابنتي إذا رأى من زوجته حُبًّا لأهلهِ يحترم أهلَ زوجته ويُحبُّ زوجتَه ويقدِّرها، لكن لو وجد العكس ممكن لا يحترم أهلها ولا يقدرهم.

– أمل: كلامك صحيح يا أمي، وأشكركِ على نصائحكِ وإرشاداتكِ لي طوال حياتي الزوجية، هيا بنا يا أمي حتى تفطري؛ لأنكِ من أمس لم تأكلي شيئًا.

– ونزلتا للحديقة، وكانت سلمى وسعدية وجنات وبدرية يجلسن منتظرات قدوم أمل وأمها، وعندما رأين قدوم أمل وقفن مندهشاتٍ للروعة والجمال، أمل متغيرة عن أمسٍ كأنها عروس في صبيحة زفافها، بهية الطلعة مشرقة الوجه، تغيَّر وجهها من الشحوب للنضارة والبهجة.

– جنات مُرحِّبة بأمل: ما هذا الجمال والروعة، ما شاء الله؟!

– أمل تبتسم ابتسامة خفيفة زادتها جمالًا وتألُّقًا: شكرًا جنات، أخبارك؟

– سلمى تأخذ أمل بالحضن: (حبابك مرات أخوي يا حلوة يا جميلة) ما شاء الله عليكِ.

– أمل تتنهَّد: حلوة وجميلة يا سلمى (مهرة من غير خيال) تقلِّد سلمى باللهجة الرشيدية– خيالها وفارسها مات، عنتر بن شداد، مات عن عبلة يا سلمى، مَن يدافع عن عبلة ويحميها؟!

– سعدية: لا تقولي ذلك يا دكتورة، أمر ربنا، اصبري واحتسبي، ربنا يصبرك.

– أمل: ربنا يلهمني الصبر، ويرزقني الرضا.

– جنات توشوش أمل في أُذنها، وتقترب منها وتقول بصوت منخفض: ما هذا الجمال والروعة صباحك مشرق كأنكِ عروسة!!

– أمل تسرُّ لجنات: هذه الليلة زارني حامد في المنام، وعشتُ لحظات سعيدة معه، وتذكَّرنا الليالي الجميلة الرائعة التي قضيناها معًا.

– جنات: آه، ما شاء الله، لذلك أنتِ في قمة الجمال والروعة ربنا يسعدك يا أمل.

– أمل تبتسم وتهز رأسها، ولكن الحزن يسيطر على قلبها: أشكرك جنات.

– أحضرت بدرية الفطور؛ قشطة وعسلًا ومربّى وخبزًا.

– سعدية: ممكن يا بدرية لو شوية فول وطعمية؛ لأننا غدًا مسافرين والفول والطعمية هنا روعة؟

– ضحك الجميع لقول سعدية؛ لأنها فكاهية صاحبة نكتة، ولم تُغيِّر لهجتها البدوية الرشيدية، كانت تتكلم بفطرتها وطبيعتها.

– بدرية: حالًا يا ست سعدية يكون الفول والطعمية عندك.

تناول الجميعُ الفطور، وأخذن يتحدَّثن.

– أمل: على فكرة يا سعدية، أنتِ فيكِ الكثير من حامد، كان حبيبي يحب

أن يفطر فول وطعمية كل صباح، ويقول لي: يا أمل الفول مثل الخرسانة لا يُهضم بسرعة في البطن، ويُشبعها ويملؤها، ولا يُشعرك بالجوع بسرعة.

ضحك الجميع من كلام أمل وسعدوا؛ لأنها تحسنت حالتها، وبدأت تتكلم وتضحك قليلًا.

– أم أمل: بصراحة لازم الفول في الفطور صباحًا، والسحور في رمضان، وأبو وليد لو لم يفطر فول في الصبح تكون مشكلة، ولازم يفطر على العربية قبل ما يذهب للعمل هو وزملاؤه المدرسين، ويوم الجمعة نجتمع جميعًا على السفرة نفطر فول وطعمية وباذنجان وفلفل مقلي، وكان حامد يأتي لنا يوم الجمعة، وأمل والأولاد يفطرون معنا كل صباح جمعة، ويقول الله يرحمه: (أنا بعشق وأحب الأكل من أيد حماتي؛ لأن نَفَسها روعة في الأكل) ويمكثون معنا طوال اليوم ونتعشَّى سويًّا، ويذهبون للتجمع الخامس آخر الليل.

– أمل بتنهُّد: آآآه يا أمي، كانت أيامًا جميلة رائعة بوجود حامد الرائع الحنون، حبي الذي لم ولن أحبَّ غيره، الآن بغيابه أصبحت الدنيا مظلمة.

– بدرية بفرفشة: صلُّوا ع النبي يا جماعة.

– سعدية تضحك، وتقول بفكاهة: (اللي يفوته الفول أنا مش مسئول، هيا ياللا يا نسوان الصعيد ويا نسوان مصر اهجموا ع الفول).

– يضحك الجميع من كلام سعدية، وتعود البسمة مرة ثانية.

– سلمى تحبُّ الشعر البدوي الرشيدي، تقول:

من عطاني قدري

أعطيه احترامي

ومن خصني بالخير

كان ذكر حالي

ومن ضايفني فتحت

له في الكرم بابي

ومن ذبحلي ذبحت له

أعز ركابي

ومن صان غيبتي

يكون صديق غالي

الجميع: الله عليكِ يا سلمى.

– سلمى: هذه هدية لزوجة أخي الدكتورة أمل؛ لأنها كريمة ومن الأجاويد.

– أمل تبتسم ابتسامة عريضة، وقد ظهرت البهجة على وجهها، وتألق بالجمال وأزهر: شكرًا سلمى.

– أم أمل مبتسمة: جميل يا سلمى، لكن بعض الألفاظ لا أفهمها!!

– أمل مبتسمة: أنا أفهمك يا أمي، أنا منهم وهم مني، لقد عرفتُ

وتعلَّمتُ الكثيرَ من حامد ومنهم: مثلًا ركابي يعني دابتي «الناقة أو البعير» التي أركب عليها لا عندي غيرها كرمًا لما قُدِّم لي، وهذا كرم عند بدو الرشايدة، ويتصفون بإكرام الضيف.

– أم أمل مبتسمة: جميل، تراث شعبي رائع، يا ليت يُدوَّن حتى لا يضيع.

– سلمى تؤكد لأم أمل والجميع: طبعًا هناك تدوين لكل التراث الرشيدي العبسي، عندنا كُتَّاب وشعراء مشهورون على مستوى القبيلة يكتبون هذا التراث.

– جنات تلحُّ على سلمى: ممكن نسمع منكِ أشعارًا أخرى يا سلمى من الذي يقوله الناس في سامر الرجيعي والزريبي والفلكور الشعبي الرشيدي، لقد حكى لي أبي الكثير وأمي كذلك عن هذا التراث.

– سلمى، وهي سعيدة لهذا الطلب: حاضر يا جنات.

تقول باللهجة البدوية الرشيدية:

تعلمت من سود الليالي

حكم ودروس

ولا زلت أردد بيت شعر

على لساني

صديق المصالح لو شرا

أخوتك بفلوس

طبيعي يبيعك لو قسا

الوقت مجَّاني

– بدرية تصفق بحرارة: الله، جاءت على الجرح يا سلمى، جميل.

– أم أمل: جلستكم جميلة ممتعة مفيدة، جميل، يا ليت لا تسافرون؟ تراث وشعر شعبي رائع، شكرًا سلمى.

– أمل: آآآه، وتُكرِّر: تعلمت من سود الليالي حكم ودروس، وتقول وهي تتنهَّد بشدَّة: سوف أمرُّ بسُود الليالي، وتعلمني الحياة حكمًا ودروسًا في معترك هذه الحياة؛ لأن حكيمي ومعلمي غاب، وسوف أبُحر فيكِ يا دنيا لوحدي وبدون شراع ولا فارس، يا رب لا تتركني لوحدي كُن معي في هذا المحيط؛ لأني بدونك سأغرق، لأني لم أتعلم العوم، لأني بدون سواعد من غير زوجي حبيبي، فكُن معي ربي.

– وخيم الحزن على الجلسة مرة ثانية، وتأثروا بكلام أمل.

– سعدية تريد أن تضحكهم لتُرجع لشفاههم البسمة تقول لبدرية: بدرية ممكن تعملي لي ماسكه فيبيه؟ بلهجتها.

– هنا ضحك الجميع إلا أمل، لكنها تبسمت بسمة خفيفة لترضيهم، ودموعها على خديها، وتنظر بعينيها السوداوين الجميلتين والحزن يملأهما.

– بدرية: حالًا يا ست سعدية.

– جنات تداعب أمل وهي تبتسم لتعيد المرح والضحك للجلسة مرة أخرى: تصدقي يا أمل، عندما تحزنين تزيدين جمالًا، ما هذه الروعة؟!

– سعدية: ليس هناك امرأة أجمل من زوجة أخي الدكتورة أمل.

– سلمى وهي تبتسم: طبعًا لا يوجد.

– أمل تهز رأسها، ويشرق وجهها إشراقة رائعة كأنه قمر وهي مبتسمة: شكرًا لكم يا جماعة.

– بدرية تأتي مسرعة وتمسك بيدها القهوة، وتقول باللهجة الرشيدية بلكنة صعيدية تقلد سعدية لكنها تلفظ العبارة خطأ: (الماسك فيه يا سعدية).

– عندما سمعن الجملة التي قالتها بدرية ضحكن جميعًا.

– سلمى وهي تضحك: يا بدرية، تعرفي هذه الجملة لو سمعها زوج سعدية نافع ابن عمي ماذا يفعل؟ ممكن يطخها بالنار، ماسك فيه!!

– يضحكن بشدة، جلسة يملؤها المرح والسرور والضحك.

– أمل تتنهَّد وتتذكر ما كان يقوله حامد، كان يحب القهوة في الصباح ويشربها، وكان يذهب يشتريها من بنَّان مخصوص، وكان يقول لنا بلهجته الرشيدية:

مـــن صبّ لي مـن دلته ربـع فنجال
صبيت لـــه مـــن خـافـــق الـــروح دلّـــه
ومن ساق لي بالطيب قول وأفعال
أســـوق لـــه الـــروح والـعـــمـر كـــلّه

– سلمى: الله عليكِ يا امرأة أخي، أنا أحفظ هذه الأبيات فعلًا، هذا يدل على الكرم والجود.

– أمل تقول: كان حبيبي عندما أصب له القهوة يقول لي ذلك؛ فكنت أسعد بذلك. وكان يقول لي:

والله لو قلَّبوني بن في المحاميس

لتبع هواء أمل وأترك كلام الناس

كم قلت لك: يا هدب عيني ويا رمشي

اللي يودك ييجي لك على القدم يمشي

– الجميع: الله يا أمل، جميل ورائع.

– سعدية: أخي حامد رحمة الله عليه كان يحب مجالس العربان من القبيلة، ويحب السامر والرجيعي والزريبي سامر القبيلة.

– أمل: نعم، وكان صديق أدباء البادية، وكان يعمل لهم صالونًا أدبيًّا، ويدعوهم ويدعونه في ملتقيات البادية المصرية.

– أم أمل: المفروض أن يُجمَع هذا التراث لتعرفه الأجيال من القبيلة؛ لأنه كلام جميل.

– سعدية: الشباب في القبيلة يجتهدون في حفظة ونشره.

بعد هذه الجلسة يهمُّ الجميعُ بالذهاب لنوم القيلولة.

– سعدية: نراكم مساءً، لأني أريد النوم.

سلمى تتبع سعدية: وأنا كذلك أكاد أن أنام وأنا جالسة معكم.

– أم أمل: الجميل أن ناس الصعيد يستيقظون مبكرًا وينامون القيلولة، وهذا يعطي البدن والنفس راحة.

– أمل: نعم يا أمي، ولذلك في شهور الصيف لا تجدين أحدًا خارج البيت في وقت الظهيرة أبدًا، وعندما أذهب لزيارتهم أعمل مثلهم أستيقظ مبكرًا وأنام القيلولة.

– أم أمل تقوم وهي باسمة: وأنا أيضًا تعوَّدت أن أنام القيلولة، مَن جاور القوم أربعين يومًا أصبح منهم، سلام.

– أمل: مع السلامة يا أمي، وتوجِّه كلامها لجنات: وأنتِ لا تريدين القيلولة يا جنات؟

– جنات: أنتِ قيلولتي يا أمل وصديقة عمري، وأتمنى ألَّا أتركِ لحظة في محنتكِ هذه.

– أمل تبتسم لقول جنات وتقترب منها، وتحتضنها حضنًا قويًّا، وتقول: فِعلًا، نعم الصديقة والحبيبة في وقت الشدَّة والمحن.

– جنات وهي مبتسمة: أمل، أنتِ زميلة دراسة، وعشنا فترة جميلة سويًّا، ووقفتِ بجانبي في محنتي مع زوجي، ولك الفضل في حلِّ هذه المشكلة، بصراحة لولا أنتِ ووقوفكِ بجانبي وعمِّي حامد لكنتُ مطلقة الآن، أعاني الفراق والبعد عن أولادي وبيتي؛ لأن الطلاق دمار نفسي للمرأة.

– أمل: بصراحة يا جنات، أنتِ كُنتِ مخطئة في أنكِ تُصرِّين على أن زوجك لا يُراعي أُمَّه في بيته، لأنها أمه، وهي وحيدة بعد موت أبيه، فمَن يُراعيها إن لم يُراعها هو؟!

– جنات تقول بتنهُّد، والحزن على وجهها: نعم يا أمل، كانت مشكلة عصفت بي، وكادت أن تدمرني؛ لأن زوجي قال لي: أمي أولًا، وأنتِ ثانيًا، وأصرَّ على أنَّ أمه لا بد أن تعيش معه ويراعيها.

– أمل: الحقيقة يا جنات، زوجات كثير يُدمِّرن بيوتهن بسبب هذا الموضوع، وفي الحقيقة أن الأم والأب بالنسبة للزوج أهم ما يمكن؛ لأنهم هم الذين ربوا وكبَّروا، وعند الكِبر يحتاجون لأولادهم، وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾.

والإحسان هنا المعاملة الطيبة للوالدين، وعدم الإساءة إليهما، والرعاية لهما، والاهتمام بهما وبشئونهما الصغيرة والكبيرة.

– جنات: نعم يا أمل، لكن بشرط ألا يتدخل أحدٌ منهم في شئون بيت الزوجة.

– أمل: أنا معك أن هناك بعض الآباء والأمهات يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة في بيوت أبنائهم، وهذا أمر طبيعي، ولكن يجب على الزوجة أن تصبر، وتتعامل مع الموقف بحكمة وذكاء حتى تستمر العشرة؛ لأن الزوج يركز على هذه الأمور، ويشعر بأن زوجته لا تُحبُّه ولا تُقدِّره؛ لأنها أهانت والديه، ولذلك لو رحبت الزوجةُ بهما واهتمَّت بوالدَي زوجها هنا يشعر الزوج بحبها، وأنها تُقدِّره وترضيه في أهله، ويحترم هو أهلها كذلك.

– جنات: بصراحة لقد قال لي أبي هذا الكلام، وأمي نصحتني وعنَّفتني، وغضبت منِّي غضبًا شديدًا، وقالت لي: أنا لم أُربِّكِ على ذلك؟!

– أمل: ممكن أسألك سؤالًا يا جنَّات، هل يحترم زوجُك أمَّكِ وأباكِ؟

– جنات: بصراحة جدًّا جدًّا، لدرجة أنه عندما يرى أمي يُقبِّل يدها، ويهش ويبش في وجهها، ويحترم أبي جدًّا، ويقول: حمايا رجل طيب القلب، مثقف ومحترم.

– أمل: طيِّب انظري لأخلاقه وأدبه، على فكرة هناك مفاهيم لا بد أن نُصحِّحها، وهي أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قال للرجل: «أنتَ ومالُكَ لأبيكَ»، ولم يقُل للزوجة: أنتِ ومالكِ لأبيكِ؛ لأن الولد يختلف عن البنت، إذا تزوجت البنتُ أصبحت ملكَ زوجها وأسرته، ولكن الولد هو حقٌّ لأبيه، لا يُقصر في خدمته ورعايته، والاهتمام به حتى بعد الزواج، ولهذا تجدين بعض الزوجات يُردن من الزوج أن يهتمَّ بأمها وأبيها وأهلها، وهي لا تهتم بأهله ووالديه.

وفي الحقيقة أن الزوج مخطئ في ذلك لو اهتمَّ بأهل زوجته وترك والديه؛ فهو عاقٌّ.

– جنات: الحمد لله مرَّت هذه المشكلة بسلام، ورجعتُ لبيتي وزوجي وأولادي وحضنهم الدافئ؛ لأن الزوجة ليس لها إلا بيتها وأولادها؛ لأن الجميع مشغول بنفسه وحياته، أشكرك يا أمل على وقوفك بجانبي أنتِ وعمِّي حامد، رحمة الله عليه.

– أمل مبتسمة: خلِّي بالك، زوجك طيب وابن ناس ومتربي، ولقد أحزنه أنكِ فعلتِ ذلك، والرجل لا ينسى الإساءة أبدًا من زوجته يا جنات.

– جنات: بصراحة نعم، طيب وغلبان وعاطفي جدًّا، وأنا بصراحة عصبية وعنيدة معه.

– أمل: طيب خذي حذركِ، وحاولي أن تكوني جيدة معه، واعلمي أنكِ تحبينه، وأنا أعرف قصتكِ أن ابن عمك أحمد كان يريدكِ، وحاول مرَّات ولكنكِ رفضتِ أن تذهبي للصعيد.

– جنات تضحك: مرشود ابن عمي.

– أمل تضحك: مرشود هو لا يناسبك بصراحة أبدًا، فرق بينكم كبير.

– جنات: هو متعلم، لكنه يحب الزرع، وطبعه سخن وعصبي جدًّا، الحمد لله أني لم أتزوجه، أبي رفض بشدة وبقوَّة، وقال لي: لا يناسبك.

– أمل: زوجكِ طيب، ويحبك يا جنات، فيجب عليكِ أن تهدئي حبيبتي وتمسكي أعصابكِ معه.

– جنات: أنا سأحاول أن أُغيِّر أسلوبي معه للأحسن.

– أمل: جيد، أخبار عمله إيه؟

جنات: يخرج السابعة صباحًا ويرجع الثالثة عصرًا، مجهد لأن عمي حامد جعله رئيسًا للشئون القانونية بالشركة قبل أن يموت بشهر.

– أمل تهز رأسها: خير ربنا يحفظكم، أخبار ابنتك ميّ يا جنات؟

– جنات ترتسم على شفتيها ابتسامة عريضة سعيدة بسؤال أمل: جيدة، ميّ مُصرَّة أن تدخل لغات وترجمة الأزهر، وتجتهد في المذاكرة ليل نهار.

– أمل: ما شاء الله، ربنا يوفقها، هي في سنة كام؟

– جنات: في سنة ثانية ثانوي أزهر.

– أمل تتنهد: سالم في سنة ثالثة ثانوي، وقلقة عليه؛ لأني أخاف أن يؤثِّر عليه موت أبيه، ولا يأتي بمجموع مناسب بصراحة، أنا نفسي يدخل تجارة إنجليزي مثل أبيه حتى يهتم بالشركة.

– جنات: لا تقلقي يا أمل، سالم جدع ومؤدَّب ومتدين، وسيُقر الله عينَكِ به، وسيكون رجلًا مثل أبيه.

– أمل: يا رب يا جنات.

أذان العصر من مسجد حسن الشربتلي.

– أمل: العصر الآن، الوقت يجري بسرعة.

– جنات: هكذا العُمر يجري، تُعجَب جنات بصوت المؤذن: الله، صوته رائع، كأنه كروان.

– أمل: بصراحة أسعدُ عندما أسمع صوت هذا المؤذن، كأنه ملاك طيب الصوت، يُشعرك كأنكِ في حالة إيمانية عالية، كان حامد يقول: صوت هذا المؤذن يأخذني معه، ويجذبني إليه جذبًا لجماله.

– جنات: فعلًا، صوته رائع، ما شاء الله عليه، هكذا لا بد أن يكون المؤذن؛ لأنه توجد أصوات تؤذن بالمساجد مزعجة، لا جمال لها.

– أمل: في الحقيقة المفروض على وزارة الأوقاف أن تؤهِّل المؤذنين وقُرَّاء القرآن في المساجد، وتعد لهم دورات دراسية، ولا تقبل إلا مَن يكون له صوتٌ نديٌّ.

– جنات: نعم، لأن الصوت الجميل هو بابٌ للصلاة.

– أمل: هيَّا بنا يا جنات حتى نصلي العصر، ونستريح قليلًا حتى نلتقي بالعائلة مساءً.

– جنات: سلام.

حاولت أمل أن تنام، لم يغمض لها جفن، نهضت من على سريرها وجلست على كرسي في البلكونة المطلة على الحديقة تنظر إلى أشجار الحديقة وإلى الورود، حاولت أن تُغمض جفنَيها وهي مستلقية على الكرسي الهزاز، لكن صورة حامد أمام عينها وفي ذاكرتها، لقد زارها بالليل، وعاشت معه لحظات سعيدة كما كان يُسعدها قبل أن يموت ويفارق الحياة الدنيا، تتذكر مداعبته عندما كان يحتضنها ويضمُّها لصدره بقوَّة ويمرر يده على شعرها، ويقول لها كلمات الحب والغرام.

تتذكر لحظة أن أعطاها المفتاح الفضي الذي كان يشعُّ نورًا، تحاصرها الأسئلةُ: يا ترى ما مغزى قصة هذا المفتاح؟ ولماذا في النهاية أعطاه لي بعد أن

أسعدني في ليلتي وطيَّب خاطري؟! لقد استيقظت من النوم منشرحة الصدر حتى الآن، مطمئنة النفس بتنهد: خيرًا إن شاء الله، وتبتسم: ربما يكون خيرًا قادمًا لعله....

تحاول أن تنام، لكنها لم تستطع، تدعو الله أن تنام، وتتمنى من الله أن يزورها حامد في هذه الغفوة لتسعد معه، لكنها لم تنم وشردت بذهنها وسرحت، وتذكرت ذكرياتها مع زوجها، واللحظات الجميلة وهي شاردة الذهن في ذكرياتها الرائعة مع حبيبها حامد.

طرق باب الحجرة، أمل تنتبه من غفوتها: مَن بالباب؟ تسمع صوت بدرية.

– أنا بدرية يا دكتورة.

– أمل تعدِّل من نفسها: تفضلي يا بدرية.

– تدخل بدرية وتلقى السلام: السلام عليكم يا دكتورة، وتحمل صورة ذات برواز كبير مغلفة.

– بدرية: صورة المرحوم يا دكتورة.

– أمل: طيِّب، شكرًا بدرية، ضعيها على السرير.

– بدرية تضعها على السرير برفق وتقول: تريدين شيئًا يا دكتورة؟

– أمل: لا، شكرًا بدرية، لما تجهزوا سفرة العشاء ممكن تبلغيني لأنني سوف أتعشى مع العائلة سويًّا؛ لأنهم سيسافرون غدًا صباحًا، ويا ليت يكون العشاء في الحديقة.

– بدرية: من عيوني يا دكتورة حاضر، وانصرفت.

نهضت أمل من على الكرسي، وأمسكت بالصورة وفتحتها، ونظرت إليها نظرة حب واشتياق، وأخذت تُقبِّل الصورة وتضمُّها لصدرها: الله يرحمك يا حياتي، يا مهجة قلبي، يا روح حياتي لم تغب لحظة عن قلبي، وعن عيناي أبدًا، ما زلتَ تسكن أحشائي، حبيبي لقد أسعدتني عُمرًا، أشكرك على زيارتك لي بالمنام أمس، ولقد أسعدتني كثيرًا، حبيبي لا تحرمني من زيارتك، أودُّ أن أراك كثيرًا؛ لأنك حاضر معي دومًا.

رفعَتِ الصورة برفق، ووضعتها بجوارها على سرير النوم، وقالت: هذا مكانك حبيبي، ومكانك في قلبي وبجواري، لم ولن يتغير ولا يتبدل ولا يملؤه أحدٌ غيرك، ولا سعادة إلا بك يا غالي، حامد حبيبي؛ أحبُّك حيث لا قرار ولا اختيار، أنتَ وحدك في قلبي، وأنا لك على الدوام إلى أن ألقاك في الجنة إن شاء الله، مَن بنى لي في الروح مقامًا بنيتُ له في قلبي جنةً، فأنتَ يا حامد جنَّتي ومتعتي، لقد كُنتَ نعم الزوج والحبيب.

جلست متربعة بجوار الصورة على السرير، تنظر له وتخاطبه كأنه أمامها: حامد أتذكر كلَّ كلمة كنتَ تقولها لي، كلماتك الغزلية الجميلة، أتذكر حبيبي عندما كُنتَ تقول لي: يا أملي

عندما تشرقين يفوح عبق الجنان

تتفتحين فتكتسي الروح بأزهى الألوان

تتمايلين فترمقك غيرةُ أعواد الريحان

يُبحر عبيرك بنسماتٍ عبر الأكوان

ينادي شذاكِ قلب العاشق الولهان

يأسر جمالُكِ النفسَ فسبحان الرحمن

يهمس عطرُكِ تغريدًا بريشة الفنّان

يُطفئ رحيقكِ نارَ المتيَّم العطشان

تنيرين بروحكِ ظلمة شوق المكان

دائمًا كُنتَ تقول لي هذه الأشعار التي كنتُ أحبُّ سماعها منك يا روحي.

حامد؛ ستبقى فارسي وحُلم حياتي، وأبا فلذات أكبادي، وعُمري وقصة حياتي الجميلة، أعلم حبيبي أن الحياة قاسية بعدك، والبشر لا يرحمون المرأة الوحيدة؛ لكني سوف أسبح ضد التيار حتى أعيش وأحقق بعض أحلامك التي لم تحققها حبيبي، أولادك يا حامد؛ سالم وعاصم وسلمى لا بد أن أحقق حلمك الذي كنت تودُّ تحقيقه، ولكن لم يُمهلك القدر وغادرتَ الدنيا غصبًا عن البشر؛ لأن البشر لا اختيار لهم في هذا السفر الطويل البعيد.

– تتكلم مع صورة حامد والدموع على خديها، إلى أن طرق الباب فانتبهت مذعورة: مَن بالباب؟!

– أنا بدرية يا دكتورة.

– أمل اعتدلت من جلستها، ومسحت دموعها، ونزلت من على السرير وفتحت الباب: نعم بدرية.

– بدرية: المغرب أذَّن يا دكتورة، وسنبدأ في تحضير الطعام في الحديقة.

– أمل تهز رأسها: تمام، رُوحي وأنا قادمة.

– غيرت ملابسها، واستعدت للنزول، وقبل أن تنزل وتترك الحجرة قبَّلته، وأخذت تنشد هذه الأبيات وهي تبكي:

حقًا أحبكَ إنّي لستُ أُنكرُها

وكيفَ أنكرُ بي ما اللهُ مُبديهِ؟

هل ينكرُ الطيرُ غُصنًا كانَ يحملُهُ؟

أم ينكرُ الزَّهرُ غيمًا كانَ يَسقيهِ؟

حقًا أحبُّك موشومٌ بها جسدي

فكيفَ أمسحُ وشمًا عالِقًا فيهِ

إنِّي أحبكَ حلمًا فيَّ أزرعهُ

ومنكَ يا قبلةَ الأحلامِ أجنيهِ

لا زالَ قلبي شقيًّا في تقلُّبهِ

الهجرُ يقتلهُ والوصلُ يُحييهِ

وقالت: نم حبيبي قرير العين حتى نلتقي، ونزلت.

فرشت بدرية وسلمى وسعدية في أرض الحديقة، ووضعن الطعام لقدوم الحاج رضوان وعلي وسعيد ووالد أمل وأخي أمل والأولاد والجميع.

– أمل: وسعوا الفرشة أكثر حتى نكون صفين رجال ونساء.

حضر الجميع، وجلس الرجال على السفرة، وجلس النساء قريبًا من الرجال، وبعد العشاء جلسوا بالحديقة يتحدثون.

– والد أمل يوجه كلامه للحاج رضوان: حقًا عزمتم على الرحيل صباحًا يا حاج رضوان؟

– الحاج رضوان: والله بودنا نبقى لكن المشاغل والأعمال يا أستاذ محمود، أنت تعلم أني تاجر، ولا بد أن أسافر لسوق الجمال في حلايب وشلاتين، منذ شهر أو أكثر لم أذهب لمكتبي في السوق، ولم أسافر للسودان؛ حيث لي إبل في دولة السودان عند أهلنا الرشايدة في كسلا.

– والد أمل: أعانك الله يا حاج رضوان، تسافرون بالسلامة.

– أمل: منذ متى يا عم وأنتَ تُتاجر في الجمال؟

– الحاج رضوان: من أول سبعينيات القرن الماضي عندما كان عُمري عشرين عامًا، نحن الآن في 0102، فعُمري الآن 16 سنة.

– عليٌّ: ربنا يبارك فيك يا عم وفي عُمرك.

– أمل: ما شاء الله، أنتَ خبرة كبيرة في تجارة الجِمال، أيُّ أنواع الجمال يا عم تتاجر فيها؟

– الحاج رضوان: أنا أتاجر في إبل الرشايدة التي توسم بالكِفَّة، وجِمال السباق التي يأخذونها للسباق في بلاد الخليج سباق الهجن، وهي يُطلق عليها نوق العصافير العنافي، وهي نوق عبس، وجاءت بها القبيلة عندما هاجرت من بلاد نجد والحجاز للسودان ومصر عام 5781ميلادية، وهي من أمهر الإبل، وعالية الثمن.

– سعيد: هذه الجِمال تباع بسعر عالٍ جدًّا، ونحن غالبًا نربيها عندنا في عرب الرشايدة ونبيعها لعربان سيناء، وتدخل سباق الهجن في سوهاج وفي الوادي الجديد وفي شرم الشيخ والإسماعيلية.

– أمل: جميل، كان حامد يكلمني عن ذلك كثيرًا، وكنتُ أرى ذلك عندما كنتُ أزوركم في الصعيد.

– الحاج رضوان: في سوق (برقاش) في الجيزة لنا شركاء نُنزل عندهم الجمال، وكنتُ آتي سوق الجيزة وأنا صغير عندما كان في الكيت كات، ثم نُقل إلى قرية البراجيل بالجيزة، ثم نقلوه لبرقاش في الجبل بجوار المنصورية.

– أمل: كيف توفِّق بين التجارة ومشيخة قبيلة الرشايدة يا عم؟

– الحاج رضوان: لا أذهب كثيرًا لحلايب وشلاتين، ممكن يومين في الشهر؛ لأن الشباب يحلون محلِّي في أمور كثيرة أولادي وعلي ابن أخي سالم.

– أمل: واللهِ وجودكم يسعدنا يا عم، بكون سعيدة عندما أراكم، وأولادي يحبونكم كثيرًا.

– الحاج رضوان: نتمنى ألا تنقطعي عنا؛ حتى يتعرف الأولاد على أهلهم أكثر وأكثر.

– أمل: طبعًا يا عم، وهذا عهد عليَّ، لأن صلتكم وزيارتكم تُريح حامدًا وتسعدُه، ولا بد للأولاد أن يعرفوا أهلهم، وأنا سأحرص على ذلك إن شاء الله.

– وهم يتحدثون حضر الأستاذ سالم وزوج جنات.

– الحاج رضوان يوجه كلامه لسالم: تأخَّرتم يا سالم كثيرًا لماذا؟!

– الأستاذ سالم: استلمنا طلبية قادمة من تركيا فتأخرنا حتى نضعها في المخازن، وهذه الطلبية التي سافر لها حامد منذ شهرين وصلت اليوم.

– الحاج رضوان: خير، ربنا يوفقكم.

– أمل: بدرية، حضّري العشاء للأستاذ سالم وأبو ميّ.

– بدرية: حاضر يا دكتورة.

– وهم جالسون أذن العشاء، فقام الرجال فصلوا العشاء، وكان الأستاذ سالم وزوج جنات يأكلان، ثم أخذا يتحدثان إلى أن قام الحاج رضوان وعلي وسعيد والأستاذ سالم حتى يناموا؛ لأنهم لا بد أن يستيقظوا مبكرًا للسفر.

– زوج جنات يتحدث معها: أنا سأذهب للبيت وأنتِ ابقي يومين مع الدكتورة أمل.

أمل توجه له الشكر، وتقول له: لا، لازم جنات تذهب معك، لها أكثر من شهر بعيدة عنك وعن الأولاد.

– زوج جنات: واللهِ أبدًا، الأستاذ حامد أفضاله علينا كثيرة جدًّا.

– أمل: طيب من أجل يمينك تبقى حتى غدٍ ثم تذهب.

– زوج جنات: تبقى غدًا حتى تسلِّم على جدها وأعمامها وعماتها، ثم ألقى السلام وانصرف.

– سعدية وسلمى تنهضان للذهاب للنوم حتى تستطيعا الاستيقاظ مبكرًا من أجل السفر.

– أمل وجنات: مع السلامة يا عماتي، نلتقي فجرًا إن شاء الله.

– جنات: أخبارك يا أمل؟

– أمل: الحمد لله يا جنات.

– جنات: أرى أنكِ غير طبيعية، الآن عكس الصباح كنتِ مشرقة!!

– أمل بتنهُّد: الذكريات يا جنات لهب ووهج في صدري، عندما أتذكر حامد تسع عشرة سنة قضيناها معًا، لقد أسعدني جدًّا ولم يُغضبني حتى عندما كنتُ أغضب منه، كانت أخلاقه جيدة معي، يصالحني وكان يصفى بسرعة، كأني يا جنات كنتُ في حُلم واستيقظتُ منه، حامد مات وبقيت الذكريات، لكنها مؤلمة جدًّا.

– جنات بتنهُّد: الله يرحمه، عمي كان حسن الأخلاق مع الجميع.

– أمل: والذي أحزنني اليوم أكثر ووهَّج الذكريات بقلبي أكثر صورتُه، لقد كبَّر مبروك صورتَه، وأحضرتها بدرية قبل المغرب اليوم.

– جنات: علينا أن نصبر على فجيعتنا يا أمل، وعليكِ أن تكملي المشوار بعده.

– أمل تتنهد والحزن في عينيها: أكمل المشوار؟! يااااه، ما أصعبه من مشوار؟!! كان حامد سندي وساعدي ما أضعفني بعده، فعلًا المرأة بدون زوجها كأنها تائهة في غابة مليئة بالأسود المفترسة، كأنها في ظلام دامس؛ لأن الزوج هو النور والسعادة والأمان، جنات؛ حافظي على زوجكِ، الواحدة منا لا تعرف قيمة زوجها إلا عندما تفقده، وتعيش وحيدة في زمن لا يرحم أحدٌ فيه أحدًا، الوحدة صعبة يا جنات.

– جنات: طبعًا أمل، سأضعه في عيني، ولكن المهم أنتِ يا أمل.

– أمل: أنا سكون جيدة يا جنات، سأعيش مع الذكريات التي ستحرق قلبي كلما أتذكرها.

– جنات: الساعة الآن تقترب من نصف الليل، أمل ممكن تقومي لتستريحي حتى نستيقظ مبكرًا لنودع جدي وأعمامي.

– أمل بحزن: أستريح، وكيف تكون الراحة بعد فراق الغالي؟!

– جنات تحثها على القيام: قومي أمل، هيَّا.

– أمل: سلام جنات، نلتقي صباحًا.

– جنات: إن شاء الله.

غيَّرت ملابسها وارتدت ملابس سوداء خفيفة للنوم، ثم نظرت لصورة حامد، وقالت: قد عدتُ يا حبيبي، آسفة لأني تأخرت عليكَ، حامد ما أجملك وأروعك، أنتَ رائع العينين والبسمة، كم أعجبتُ بشعرك الأسود الناعم، وخفة دمك، ورقَّة بسمتك، آاه يا حبيبي، لقد هدَّني البكاء والحزن والفراق، أتزورني الليلةَ كأمس لتسعدني وأسعد بك؟!

سأرتدي لك أجمل الملابس، وأضع لك أجمل العطور، أعرف الذي تُفضِّله من الملابس والعطور أعرفه جيدًا، سأصنع لك الطعام الذي تحبُّه أكلات رشيدية صعيدية، ونجلس سويًّا في الحديقة في المكان الذي تحبه، أو في البلكونة في هذه الحجرة حبيبي، أعرف أنَّك تحب عصير البرتقال الفريش، سأقوم أعمله لك الآن.

تخاطبه كأنه أمامها، والدموع تتدفق من عينيها الجميلتين: حامد، أريد أن أعرف ما معنى أنك أعطيتني مفتاحًا في المنام، ولقد قلقتُ جدًّا لأني لم آخذه، واستيقظتُ ثم بعد ذلك اختفيتَ، لا تغب عني حامد؛ لأني أريدك أن تكون معي دومًا.

استلقت على السرير وهي تخاطبه، ثم حضنت صورته التي تضعها على السرير بجانبها، فغلبها النوم فنامت وهي تطوق الصورة بذراعيها، استيقظت على أذان الفجر: الصلاة خيرٌ من النوم، وعندما نهضت حزنت حزنًا بالغ الأثر لأن حامدًا لم يزرها في المنام كأمس، فقبَّلت صورته ثم دخلت وتوضأت لتصلي الفجر وفرشت سجادتها لتصلي، وبعد الصلاة جلست تذكر الله، ثم طرقت جنات عليها الباب حتى ينزلا ليودِّعا عائلة حامد

للسفر، وقبل الخروج نظرت لصورة حامد وقبَّلتها، وردَّدت قول الشاعر:

ليتَ الّذين تُحب العينُ رؤيتهم

أدنى إليَّ من الأجفانِ والحدقِ.

انتهى الجميع من الفطور، وأخذوا يستعدون للسفر، وكان الجميع في وداعهم، وجاءت أمل لتودع أهل زوجها فسلَّمت عليهم وهي تبكي والحزن على وجهها، وحبس الحاج رضوان دموعَه حتى لا يثير الشباب والمودِّعين، وعانقه سالم ابن حامد وقبَّل يدَه، وحضنه الحاج رضوان حضنَ المسافر المودِّع، ولكن سالمًا لم يتمالك نفسه فبكى، وقال لجده رضوان: كنتم تملئون علينا البيت يا جدّ.

– الحاج رضوان: مليء بكم يا ابني وبركة أبيك.

– سالم يحضن عمه سعيدًا ويبكي بكاءً ذا نحيب وهو في حضن عمه يقول: ستتركني يا عم؟

– سعيد يبكي: لا لن أتركك يا سالم، سوف أتصل بك كل يوم.

– أمل والدموع في عينيها، لقد تأثَّرت ببكاء سالم وسعيد: نحن سنأتيكم قريبًا في الصعيد إن شاء الله.

– الحاج رضوان: طبعًا، حتى يعرف أولاد حامد أهلهم وتاريخ قبيلتهم وآثار أجدادهم.

– أمل: طبعًا يا عم، سوف أفعل كما كان يفعل حامد تمامًا، ولا أقطع الأولاد عن أهلهم إن شاء الله.

– سعدية وسلمى يعانقان أمل ويبكيان، وجنات تبكي لسفرهم ووداعهم.

– عاصم يأتي متأخرًا، قد تأخر في النوم، يحضن ويعانق أعمامه وعماته، ويُقبِّل يد جدِّه رضوان: مع السلامة.

– الحاج رضوان للأستاذ سالم: يا سالم.

– الأستاذ سالم: نعم يا عم.

– الحاج رضوان: خذ بالك من شركة ابن عمك؟

– الأستاذ سالم: في عيوني يا عم.

ركبوا سيارتهم، والجميع يلوِّح بيده: مع السلامة.

الأستاذ سالم لعليٍّ: سوق بالرَّاحة يا علي، لا تكن متعجلًا، مع السلامة.

– قضت أمل هذه الفترة بين بكاء وحزن ووهج الذكريات المحزنة بين الماضي وذكرياتها الجميلة التي قضتها مع زوجها الذي فقدته في هذه المرحلة وبين الحاضر الذي صدمها بواقعه، وأنها لا بد أن ترضخ للواقع، وتقوم وتنهض مسرعة لترى كيف تكمل دور حامد في هذه الحياة القاسية المؤلمة، التي لا ترحم الضعيف، الحياة المليئة باللئام والشياطين، وهي لم تتدرب على

معترك هذه الحياة، ولم تخض التجارب قبل ذلك، لقد كان حامد يقوم بكل شيء، لقد تفاجأت بموته، بل كان كالصاعقة عليها، مصيبة حلت عليها، كان يفعل كل شيء، لم يحوجها لشيء طوال عُمر زواجهما معًا، كان نعم الزوج حتى كان يقوم بمعرفة شئون أولاده بالمدرسة والملبس، وكان يكلف مبروكًا وزوجته بشراء لوازم البيت، وكان يُحضر محفظًا للقرآن في البيت لأولاده، ويهتم هو بنفسه بالمراجعة، ويأخذهم لصلاة الجماعة معه في كل الأوقات الموجود فيها وصلاة الجمعة، حتى أوشك سالم على ختم القرآن، وكذلك عاصم حفظ عشرين جزءًا من القرآن، وسلمى وصلت لخمسة عشر جزءًا، وحفظوا الكثير من الأحاديث والتاريخ الإسلامي وسيرة رسول الله ﷺ.

– أمل تفكر: كيف أفعل وماذا أعمل؟ وأنا لا أجيد السباحة في هذا المعترك لم يكن لي تجربة، كنت منشغلة بحياتي الأكاديمية الجامعية، لم يشغلني زوجي الغالي بأي شيء على ما أقوم به في البيت في المطبخ، لأنه كان يحب أن يأكل من يدي لا من يد أحد آخر، لدرجة أنه كان يأتي مسرعًا للبيت ليتناول معنًا الطعام، أتذكر قولَه لي: أملي، أحبُ طبيخك الجميل الرائع، أنتِ مبدعة يا قرة عيني.

لا أجيد شيئًا غير ذلك؛ لأني أحببتُ أن أسعد حبيبي بالشيء الذي يحبه ويعشقه؛ وهو الأكل من يدي، وكنتُ آخذ كوُرسات، وأستمع لبرامج الطهي في التلفاز والإذاعة لأسعده.

في تلك الفترة بدأت تذهب للشركة يومًا في الأسبوع لتعرف بعض الأشياء، وأحيانًا ترسل للأستاذ سالم لتعرف أمور الشركة، وكيف تسير وكيف تدار؟

سالم يطمئنها ويُطلعها على بعض الأمور والأوراق، ويقول: الأمور على ما يرام.

– حاولت أن تتقرب من سالم وعاصم وسلمى أكثر وأكثر لتضع لهم خطة لمراجعة حفظ القرآن؛ لأنهم منذ موت أبيهم لم يأتهم المحفِّظ، وأخبرت سالمًا بأن يتصل بالمحفِّظ حتى يستمروا في الحفظ والمراجعة مرة أخرى.

– بعد سفر أهل زوجها مكثت شهرًا تفكر وتسأل نفسها: كيف تعمل وما خطتها في هذه الحياة المقبلة؟! إنها خائفة من المجهول؛ لأن المجتمع مليء بالذئاب، ولا يرحم المرأة الضعيفة خصوصًا الأرملة.

لكنها تحاول الثقة بنفسها، وتردِّد: أنا قوية بالله وبأولادي وبالمخلصين حولي، ولا بد أن أعزم على خوض التجربة على الرغم من قسوتها، ابني سالم أصبح رجلًا، بعد شهرين سيدخل سنة ثالثة ثانوي ثم يدخل الجامعة، وعاصم في السنة الأولى من الثانوية، أعلم أني سأتعب في البداية، لكن مع العزيمة والإصرار سأنجح إن شاء الله، وأكمل مشوار زوجي.

– كانت تسهر الليل تتذكر ذكرياتها من أول نظرة لحامد في خطوبة جنات إلى أن سافر للصعيد، وآخر مكالمة بينها وبينه، كل ليلة كعادتها تصلي الفجر ثم تنام وتدعو اللهَ أن ترى حامدًا في المنام، وتشغلها قصة المفتاح، وتسأل نفسها: يا ترى ما المقصد؟! مفتاح فضي يشعُّ نورًا!!

بعد شهر قررت أمل أن تسافر للصعيد، وقالت لسالم وعاصم: نسافر

هذه الأيام؛ لأن المدارس ستفتح في الخامس عشر من سبتمبر، ونقضي هناك حوالي عشرين يومًا نزور الأهل والعشيرة، ونزور قبر أبيكم، وتعرفون ميراث أبيكم، ونزور أصدقاء والدكم؛ لأن صلة رحم أبيكم من الحقوق التي شرعها اللهُ تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾.

وأخذت تذكِّرهم بصلة الرحم، وتقول: صلة الأرحام تزيد في الرزق، وبركة في العمر، ولقد وصَّانا الرسولُ الكريمُ بذلك، وأيضًا لا بد من الترابط بينكم وبين قبيلتكم وعائلتكم برباط قويٍّ؛ لأن أباكم كان يحبُّ ذلك، ولقد علمكم هذه الأمور.

– عاصم متأثرًا: نعم أمي، هذا مهم، وأنا أحب بلدة أبي كثيرًا وأهلي وأعمامي، ولي أصحاب هناك.

– سالم: تمام أمي، كما تحبين، قرار جيد ومهم للغاية.

– أمل: يا سالم، ممكن تتصل بعمك الأستاذ سالم، وتقول له: يرسل أحدًا من الشركة يحجز لنا في قطار الواحدة ليلًا في الدرجة الأولى.

– عاصم: أمي نسافر بالسيارة، وسائق أبي يقوم بهذه المهمة.

– أمل بتنهُّد: لا يا عاصم، أنا نفسي أسافر بالقطار؛ لأن لي معه ذكريات أنا وأبيك.

– سلمى تفرح: جيد أمي جميل، أنا نفسي أركب القطار.

– سالم: حاضر يا أمي، لكن هل أحد مسافر معنا؟

-أمل: لا أظن أحدًا سيسافر معنا، ولكن ربما تيتا يا سالم، وسأتصل بها وأعرف

استقلَّت أمل وأولادها قطار الليل، خاصةً قطار الساعة الواحدة والنصف ليلًا لها ذكريات جميلة معه، كانت عندما تسافر مع زوجها للصعيد لزيارة أهلة يركبان هذا القطار، وفعلت كما كان حامد يفعل جعلت الكرسيَّين في مواجهة بعضهما، جلست هي على مقعد وسلمى بجوارها على المقعد الآخر، وسالم وعاصم على المقعدين الآخرَين، وأدارت المقعد الأمامي وجعلته مقابلًا للمقعد الخلفي حتى تكون في مواجهة الأولاد، كما كان يفعل حامد تمامًا في السفر عندما كانوا يسافرون للصعيد، المسافة طويلة من القاهرة لنجع حمادي حوالي 600 كيلو متر يقطعها القطار في ثماني ساعات على الأقل.

- سلمى: أمي، ممكن أجلس بجوار الشباك؟

- أمل تبتسم: حاضر حبيبتي، تعالي.

- سالم يتحدث مع أمه كأنه هو الكبير: أمي، لقد وضعت الحقائب كلها في السيارة، ليسبقنا عمِّي مدحت بها للصعيد، حتى لا نتعب في حملها ووضعها في القطار، وعمي مدحت سيترك السيارة هناك وسيعود للقاهرة، وهو الآن هناك عندنا في البلد عرب الرشايدة، وأخبرت عمي علي وسعيد بأننا ركبنا القطار، وسنكون في نجع حمادي الساعة التاسعة والنصف صباحًا.

– أمل تنظر إليه وهي سعيدة من داخلها؛ لأنه يتحدث كما كان يتحدث والده تمامًا، نبرة صوته وأسلوبه ودقته، هزت رأسها وقالت له بابتسامة خفيفة: جيد سالم، ثم قالت: لو أردتم العشاء ممكن تأكلون؛ لأن سلمى وعاصم ينامان كثيرًا في السفريات الطويلة؟

– عاصم: نعم أمي، ممكن نأكل لأني فعلًا لم أنم، وأريد النوم.

– أمل: تمام، وأحضرت حقيبة الطعام، وبدأت توزع عليهم السندوتشات.

– سالم: أنا أريد بطاطس وبيضًا؟

سلمى: وأنا كذلك أمي.

– أمل بتنهد، وقد شردت بذهنها تتذكر حامدًا عندما كان يحب سندوتشات البيض والبطاطس المحمَّرة.

– عاصم: أمي، أين أنتِ؟

– أمل تنتبه: نعم عاصم حبيبي، شردت قليلًا، تذكرتُ أباك رحمة الله عليه.

– سلمى: كنتُ نفسي تيتا تسافر معانا ماما.

– أمل: تيتا حاولت تأخذ إجازة فلم تستطع، عندها تصحيح امتحانات الثانوية الأزهرية للدور الثاني في هذه الأيام يا حبيبتي، (عقبال) سالم يا رب السنة القادمة.

– بعد أن أكلوا ناموا جميعًا إلا أمل لم تنم ولم يزُر جفنَها النومُ، شاردة الذهن تعاود ذكرياتها الجميلة مع زوجها، ذكريات جميلة لكنها ذات ألم تكوي القلب، وتؤلِّب الجراح والوهج.

لم تجذبها الطبيعة الخلابة والمناظر الجميلة من حولها التي تنظر لها من نافذة القطار كما كانت تسافر مع حامد، الموقف الآن متغير، الذي كان يزيد هذه المناظر جمالًا وبهجةً ليس معها الآن؛ لذلك لا روعة ولا جمال بدونه؛ لأنه هو متعتها، وكان يضيف للطبيعة روعة وبهجةً، الطبيعة الجميلة بدونه لا تمثل لها شيئًا.

سرحت بعيدًا بذهنها، ونظرت لصورة حامد التي علقتها على صدرها، على سلسلتها الذهبية التي اشتراها لها حامد يوم كتب كتابها، وأخذت تخاطب الصورة: لا تجذبني الطبيعة، وأنتَ لستَ معي يا حبيبي؛ لأنك كنت جمال روحي، وكنت طيب القلب، لين القول، تتحمل غضبي وعصبيتي ومزاجيتي، عندما كانت تضيق بي الدنيا تجعلها أكثر رحابة واتساعًا، كُنتَ ذا قدرة عجيبة على خلق السعادة من أبسط الأشياء، معك كان يحلو الحديث، معك كُنتَ تشعر بما بداخلي، كنتُ أستمتع بوجودك بجانبي، كُنتَ لي ظلًّا تحميني من الشمس الحارقة، عندما كُنتَ تغيب عني وترجع عودتك تشبه فرحة العيد ويسعد قلبي بلقياك، كأني كنتُ غريقة في محيط بلا شطآن وأنتَ أنقذتني، وضممتني لصدرك الرحب المليء بالحب والعطف، كم كنتُ أشعر بالطمأنينة معك بعد القلق والحيرة والخوف، وعندما كنتُ أنظر إليك أدرك أن الحياة أهدت لي الجمال في شخصك يا حبيبي.

أنا لا أنسى مَن جعلني يومًا أُضيء كالشمعة في عتمتي، وأمرح وأعيش حياتي سعيدة معك، حبيبي حتى لو فرَّقتنا الأيامُ وقدر الموت، فقلبي لا ينسى أجمل الذكريات معك، ولا أنسى يدك التي مُدت لي بالنجاح والتألق، وأسعدت روحي.

تنظر للصورة وتخاطبها، وتتنهد بشدة: لذلك يا حبيبي لا تجذبني الطبيعة وأنتَ لستَ بجواري، أول مرة أسافر لوحدي وبدونك يا سندي، ويا عُمري الذي غيبه القدر، فكيف تحلو لي الحياة وقد غابت عني ابتسامتُك التي تضيء لي ظلمتي؟!

الساعة تقترب من الثالثة صباحًا، الجميع في عربة القطار نائمون حتى أولادها إلا هي تخاطب صورة حامد، وتتذكر الأيام والليالي الجميلة وذكريات السفر، وتبتعد بعيدًا وتسرح في عالم الذكريات مع حبيب قلبها الذي تتذكره.

– أسندت صدرها على صدره، وأخذت نفسًا عميقًا، وشعرت بالدِّفْء والراحة من تعب السنين، وشكرَتِ اللهَ أن أهداها هذا الزوج الحنون، وأن حلمها تحقق بالارتباط به، بعد العقد في المسجد صعد حامد لأمل بعد كتب الكتاب؛ لأنها أصبحت زوجته وحلاله وسعادته وقرة عينه، فدخل عليها في حجرتها، وعندما دخل عليها كادت تطير من الفرحة، واستقبلته بفرحة عارمة وارتمت بين ذراعيه، وأخذت تنظر إليه كثيرًا وهي مبتسمة سعيدة،

ودموع الفرح تملأ عينيها، وتقول في سرِّها: أشكرك ربي، قد وفَّقتني وحققت حُلمي.

فضمَّها لصدره، وأمسك بيدها وقبَّلَها: ممكن نصلي ركعتين شكرًا لله؟ سعدت أمل أكثر عندما سمعت منه ذلك؛ حبٌّ ودينٌ وخُلقٌ، صدق رسول الله ﷺ، قال: «**إذا جاءَكُم مَن تَرضَونَ دِينَه وخُلقَه فزَوِّجُوه**» صدقتَ يا سيِّدي يا رسول الله، الحمد لله على كرمك ربي.

– حامد: أمل، أنا في قمة سعادتي هذه الليلة؛ لأنكِ أصبحتِ زوجتي الآن، أخذ يُقبِّل يديها، ويضمُّها لصدره مرَّات ومرَّات، وهو سعيد بها.

– أمل: نعم حامد، أسال اللهَ أن يُديم علينا السعادة والحبَّ.

– حامد يقترب منها أكثر، ويُقبِّلها قُبلة خفيفة فأُغشي عليها من شدة الفرحة والسعادة، فوَّقَها حامد برائحة العطر.

– أمل: معذرة حبيبي.

– حامد: ما الذي أصابكِ؟ أمتعبةٌ؟!

– أمل تنظر له والسعادة تملأ وجهها: كيف أتعب وأنا معك؟! بل أُغشي عليَّ من شدة الفرحة، لم يستطع قلبي التحمل كانت قوية عليَّ وقلبي أمامك ضعيف؛ لأنك قوي بشخصيتك وروعتك وجمال خلقك.

– حامد: الحمد لله، كنتُ قلقًا عليكِ.

– أمل تبتسم أكثر: بجد كُنتَ قلقًا عليَّ، كم أنا سعيدة بهذه الكلمة

حبيبي، المرأة تحب ذلك عندما يُشعرها زوجها أنه قلق عليها ويخاف عليها، شكرًا حامد، وآسفة أني أقلقتُكَ في أسعد ليالي عُمرك حبيبي.

– حامد: أملي، نحن سنسافر للغردقة صباحًا بعد أن يفرح بنا الأهل والأصدقاء؛ لأني لا أحب أن تظهري على أحد من الغرباء في كوشة إلا أهلي وأهلك؛ لأنك أنتِ لي أنا فقط لا لأحد آخر، ولا أريد أن أصرف أموالًا لا فائدة فيها، نذهبُ لنستمتع بشهر العسل أنا وأنتِ فقط.

– أمل تنظر إليه مبتسمة: كما تحب حبيبي، فعلًا أريد أن أذهب معك لعالم لا أحد فيه إلا أنت وأنا فقط، لا أريد أن آكل أو أشرب ولا أنظر إلا إليك فقط؛ لأسعد بحُلمي الذي تحقَّق، وحبي الرائع الجميل، وأُسعِدك حبيبي، الدنيا جميلة بك وبالقرب إليك.

– حامد: الآن سوف نخرج في الصالة؛ لأن أبي وأمي وإخوتي وأمك وأباكِ والأهل ينتظروننا ليفرحوا بنا، وسوف نبقى معهم لآخر الليل ثم نسافر للغردقة.

– أمل تسند رأسها على صدره وتشعر بالسعادة: كما تحبُّ يا قلبي، ممكن حامد تتركني لحظات أستريح على صدرك حتى أشعر بالراحة والقوة والثبات؟

– حامد يسعد بكلماتها الرقيقة الجميلة، ويحاول أن يقبِّل رأسها وجبينها، ويدعو الله أن يرزقه برَّها وطاعتها وحسن عشرتها.

– عاصم يحاول يكلم أمه: أمي؟

– أمل تنتبه ملهوفة: ماذا يا عاصم؟

– عاصم: اقتربنا من الوصول، الساعة الآن الثامنة والنصف صباحًا.

– أمل متحسرة تنظر تجد أشعة الشمس خلف زجاج نافذة القطار تنعكس جمالًا وروعة على الحقول، والخضرة تزيدها جمالًا وبهجة، لكنها تشعر بحزن، وتمنَّت لو تركها عاصم ولم ينبهها؛ لأنها كانت تعيش ذكريات جميلة مع حامد؛ كتب كتابها، تتنهد بشدة وتنظر من النافذة وهي متألقة الجمال والبهجة مشرقة جذابة جميلة، كأنها ملكة واثقة من نفسها وجمالها، ولكن الطبيعة والخضرة والحقول والماء في ترعةٍ تمرُّ بمحاذاة القطار كل هذا لم يجذبها؛ لأنها مشغولة بذكرياتها وحُلمها، وأن حامدًا ليس معها؛ لأنه كان أجمل من هذا كله.

– سلمى تقول لأمها: قربنا نوصل ماما؟

– أمل برقَّة الأمومة تضم سلمى لحضنها وتهمس: نعم حبيبتي.

– سالم: نحن الآن في مركز أبو تشت، باقي أقل من ساعة حتى نصل لنجع حمادي، ممكن نجهز أشياءنا، وسوف أتصل بعمِّي سعيد؛ لأنه قال لي عندما أقترب من أبو تشت أتَّصل عليه.

– أمل: تمام سالم.

تحملق أمل في الجميع، وتنظر يمنةً ويسرةً، تدقق النظر في الوجوه خاصة

في إخوة حامد، وفي البيت والحديقة والطرقات والمباني والأشجار، تحملق في صمت وشرود، تخرج وتدخل مرة أخري، تتجول في البيت وتنزل وتصعد، وتدخل كل الأماكن والجميع ينظر إليها ويراقبها، ولكنهم لم يكلموها لعلها تستريح بما تفعل، لكنها تحدث نفسها في صمت، وتقول:

يا راقدًا بين الضلوع كل ما حولي يذكرني بك، أراك في كل الوجوه، أشعر بك تهمس لقلبي، وتقول لي: أحبك يا أمل، أجدك في وجوه المارَّة، والأشجار تذكرني بك، المباني، شجرة الرمان التي خلف المنزل التي كُنتَ تهمس لي بكلمات الحب تحتها عندما كنا نجلس سويًّا، وشجرة السدر التي كُنتَ تحب أن تتسلقها بنفسك لتأتي لي بثمار منها؛ لأنني كنتُ أحب ثمارها، ونخل جدك الذي كنتَ تحب بلحه، وتحكي لي كيف كُنتَ تتسلقه وأنت صغير.

رائحتك في كل مكان، وفي زوايا البيت رائحة زكية تعطر الجو ولا تفارق أنفي، أشمها وأستنشقها لأتنفس عبيرك لأحيا وأعيش، وأشعر أني بيامتك التي تئنُّ من فارقك وبُعدك عني، ما أعظمك يا حامد!!

كل شيء يذكرني بك، حتى الهواء الذي كنا نستنشقه سويًّا تحت شجرة السيسبان في حديقة منزل أبيك، ملامحك لا تفارقني، حنانك بالليل، تداعبني وصوتك يؤنسني، آهٍ ما أصعب الفراق والألم!!

خضرة القصب تذكرني بك، وكم حكيتَ لي عن لعبك فيه وأنتَ صغير، والترع والجداول التي أراها وأنا أنظر لها من كل زاوية من البيت تذكرني بك يا غالي، وتراب مهدك الذي كُنتَ تجري عليه يذكرني بك كل شيء يذكرني بك، ويكاد يشاركني البكاء والحزن عليك!!

ملامحك مرسومة على كل شيء، لأني عشتُ معك أيامًا جميلة هنا عندما كنا نزور هذه الأمكنة، ونتمتع بالطبيعة الخلابة الرائعة، وهذه الوجوه السمحة الطيبة النيرة الكريمة.

أراك في عيون القمر بالليل عندما أخلو لوحدي في البلكونة أناجي طيفك الجميل، أشعر بك بين نسمات الفجر عندما أتضرع إلى الله ليرحمك، ويرزقني الصبر على هذه المصيبة التي أفجعتني وزلزلت كياني.

حامد؛ صوتك في أُذني، روحك تتناثر بداخلي، أنتَ حولي بل في قلوب الطيِّبين الذين أسعدتهم، عيناك تناديني في السماء والأرض.

لا أنساكَ أبدًا حبيبي، وكيف ذلك؟!

حبيبي؛ رحلتَ فقلبي رحل معك، وعقلي شرد مني، وأحلامي تحطمت، فكيف الصبر بعدك؟!

يا راقدًا بين الضلوع كل شيء هنا يذكرني بك في يقظتي ونومي، حبيبي كل العالم وما حولي لا يُغنيني عنك؛ لأنك كُنتَ بسمتي وضحكاتي وفتى أحلامي.

- سعدية تعانق أمل بشدة: (كيفك يا مرأت أخي)؟

- أمل تبكي في حضن سعدية بنحيبٍ أبكى الجميع.

- وقف الجميع ليسلم، ولكنها تبكي بحرقة، وتقول: جئتكم بدون

حامد، أول مرة بدون زوجي حبيبي. لقد أبكت الجميع، حتى علي وسعيد والحاج رضوان وجميع العائلة بكوا لسماعهم كلامها.

– الحاج رضوان أراد أن يغير الموقف فقال للنساء: خلاص، خلي أم سالم تدخل بيتها، وحضِّرن لها فطار حتى تستريح، وعندما سمع النساء كلامه قلن جميعًا: حاضر يا عم.

دخلت أمل بيتها ودخلت معها سلمى وسعدية وزوجة عليٍّ، وشعرت أمل بالحزن الشديد، وقد ظهر عليها، لأول مرة تأتي الصعيد بدون زوجها، تحملق في البيت وتشعر أن كل جدرانه تريد أن تقول لها: أين حامد؟ لماذا لم يأتِ معكِ؟ أنتِ بدونه لا شيء!!

تفتح كل الحجرات وهي مدهوشة، تتملكها الحيرة، الحزن يسيطر عليها والذكريات حولها مؤلمة، تلك الذكريات أنفاس حامد في كلِّ ركن منها، بل في كل منطقة هنا، وشعرت بذلك عندما تحركت من محطة القطار، إنها تتخيله بجوارها، بل هو الذي يناديها ويخاطبها بشحمه ولحمه، وضحكاته وقلبه الرقيق الحنون.

تتنهد بشدة كأنها تكتم ألم السنين، بداخلها جرح لا يلتئم أبدًا بسبب هذه الذكريات التي تحوطها في كل مكان، الشارع، الحديقة، مجالس الضيوف، عادات القبيلة، تراث القبيلة، كأن الجميع يسألها عن حامد. قلبها ينزف دمًا، يتألم ويخاطبها بدقاته المرتفعة عالي النبضات، ويسألها: كيف تسعدين وكيف تضحكين وهو ليس برفقتك؟!

– سلمى وسعدية وزوجة على لاحظن شرود وحيرة أمل، وأنها لا تزال الدموع على وجنتيها، حاولن أن يُحِطن بها، ويُغيِّرن الموقف.

– سعدية: ممكن يا سلمى الفطور للأولاد إخوتك؟

– سلمى: حالًا.

– زوجة عليٍّ، أنا سأقوم معك سلمى.

– جلسن جميعًا مع الأولاد حتى يتناولوا الفطور، وحاولت أمل أن تتظاهر بالأكل من أجل الأولاد، لكنها لم تستطع مضغ أو بلع أية لقمة، كأن في حلقها شيئًا يمنع ذلك من شدة الحزن والتأثر والذكريات المتوهجة التي تحيطها من كل جانب.

– نام الجميع من شدة الإرهاق وطول السفر إلا أمل مكثت بمفردها تتجول في شقتها، وتنظر للحديقة الخلفية، وتقف أمام باب الشقة تتخيل أن حامدًا سيدخل الآن؛ لأنه عندما كان يأتي للصعيد لا ينام بل يذهب يسلم على خالاته وعماته وأصدقائه ومحبِّيه وكلَ أفراد القبيلة، ويرجع بعد صلاة الظهر لينام حتى العصر، تقول لنفسها: الآن حامد سيرجع من الخارج لينام معي في حجرتي، ونتسامر ونسعد سويًّا، تتخيل كل شيء كان يفعله عند زيارته للصعيد، ولأهله وعشيرته.

حاولت أن تنام، لكنها لم تستطع بسبب البكاء والصداع، والذكريات التي تحاصرها في كل ناحية.

يا حامد؛ ما عادت نفسي حلوة كسائر البشر، ألقاك في المنام وكلما أصحو

تموت، فمتى تعود لي؟! أصبحتُ مشتاقة إليك، متى ستزورني وأرتمي بين ذراعيك فجميعنا اشتقنا إليك، رحمك الله يا حبيبي، رحمك الله بقدر ما هزَّني وجعُ الحنين إليك، تخاطب صورتَه التي على صدرها.

– نزل سالم وعاصم وسلمى قُرب العصر ليسلموا على العائلة، وتركوها نائمة في الشقة حتى تستريح.

– النساء ينتظرن أمل على العَشاء، وسالم وعاصم مع أعمامهم يتعشون، وبعد أن تعشى الجميعُ جلس الرجال في الديوان، وجاء الكثير من أفراد القبيلة يسلمون على سالم وأخيه عاصم.

وتجمَّع النساءُ حول أمل في فناء البيت يتحدثن، وجاء نسوة كثيرات من أفراد العائلة يرحِّبن بأمل ليسلمن عليها، لكن أمل في عالم آخر، حزينة شاردة الذهن بل قلبها ليس موجودًا في هذا العالم الوجودي بل ذهب مع زوجها في العالم الآخر، كل ما حولها لا يسعدها، لكنها تتظاهر بالقوة والتماسك أمام النساء، وتحاول الرد على بعض الكلمات حتى النساء لاحظن ذلك، لكنهن يعذرنها؛ لأنهن يعلمن قدر جُرحها ومصيبتها، وهن يعلمن أن المرأة بدون زوجها كطائر بدون أجنحة فكيف يطير؟!

بعد السهرة ذهب الجميع وبقيت سلمى معها ولم تتركها حتى تنام، صلَّت أمل العشاء، وحاولت أن تنام على وضوء، ودعت الله وقرأت آية الكرسي

فنامت، ثم استيقظت على أذان الفجر وصلَّت، ثم قالت أذكار الصباح ودعت لحامد ونامت نومًا عميقًا، كأنها لم تنم منذ شهر، مكثت في الشقة حتى بعد العصر، صلَّت جميع الفروض وأمسكت بالمصحف وقرأت سورة البقرة فهدأت نفسها وارتاحت، وعند الغروب نزلت لترى عائلة زوجها.

بدأت أمل تتفاعل مع العائلة، تزور بيت سعدية وسلمى والجيران من القبيلة، وتتكلم معهم وتسلم عليهم، وتأخذ سالمًا وعاصمًا معها، وتقول لهم: تعالوا حتى تتعرفوا على أهلكم وأقرباء أبيكم.

تقول للأولاد: يا سالم أنت وعاصم كل هذه القرية الصغيرة أقرباء لكم أهل أبيكم، لا بد أن تتعرفوا على الكبير منهم قبل الصغير.

– سالم يبتسم لكلام أمه: نعم أمي، كان أبي يقول لي ذلك، وكل الشباب أصدقاء لي ويحبونني ويرحبون بي، ويأخذونني معهم للأفراح حتى أنهم يُلبسونني لبسهم (الجلباب والشماخ)، وأرقص معهم رقصة السيف المشهورة في قبيلة الرشايدة في سامر الرجيعي والزريبي.

– أمل تبتسم سعيدة بكلام سالم: جميل سالم؛ لأن أباك كان يحبُّ ذلك، وكان يغني لي في البيت من هذه المأثورات الشعبية الرشيدية، ورأيتُ ذلك في الأفراح عندما كنا نأتي هنا.

– عاصم: أنا بصراحة بحب سباق الهجن الذي يقام لليلة العُرس، ويتسابق فيه الشباب بالجِمال وعلى أرجلهم.

– سالم يقول لعاصم: يوم الخميس القادم سيكون عرُس في القبيلة، وسيكون فيه سباق هجن (اللحمة القرابة) سباق الشباب مع بعضهم ومن يفُز يأخذ الجائزة.

– عاصم: جيد سالم، أرجو أن تأخذني معك ومع أصحابك من الرشايدة.

– أمل: يا سالم، خذ أخوك معك حتى يعرف الكثير عن قبيلة أبيك.

– سالم: حاضر أمي.

أولاد أعمام سالم وأصدقاؤه من عرب الرشايدة يأتون لسالم وعاصم ليجلسوا معهم في جلسة مثمرة للتعارف والترحيب بهم، ولينشدوا بعض الأشعار.

– قال أحدُ الشباب منشدًا في المجلس أبياتًا لشاعر سعودي (عيد بن مربح) مشهورة بين أفراد القبيلة قال:

نعم رشيدي من بني عبس غطفان

من قيس بن عيلان شجرة جدودي

تحت مسمَّى عبس أشجع وذبيان

تلقى عناويني ومجدي ووجودي.

– سالم وعاصم يبتسمان: الله جميل، سالم بلهجة القبيلة: (هادا قول زين).

اتفق الشباب مع سالم وعاصم أن يذهبوا لزيارة القبيلة في البلاد المجاورة حتى يتعرفوا عليهم قبل السفر للقاهرة.

– أمل لسالم وعاصم: عمكم سعيد بلغني أن الشيخ عاطف إمام المسجد سيزورنا الليلة بعد صلاة العشاء؛ لأنه كان زميل والداكم في الدراسة يريد أن يُعزِّيني.

– سالم وعاصم: تمام أمي، لا نخرج من البيت هذه الليلة، ونحن مستعدون لاستقباله.

– بعد صلاة العشاء حضر الشيخ عاطف بزيِّه الأزهري وكان معه عليٌّ وسعيد.

– أمل ترتدي خمارها الأسود الذي يزيدها روعة وجمالًا، وكان حامد يقول لها: الأسود يزيدك حسنًا وروعة وجمالًا.

– علي: يا أم سالم، الشيخ عاطف إمام المسجد الكبير بعرب الرشايدة، وهو من قرية بهجورة وكان زميلًا لحامد، وجاء الآن ليسلم عليكم ويعزيكم.

– أمل: مرحبًا بك يا شيخ.

– الشيخ عاطف والحزن ظاهر في حديثه: لله ما أعطى ولله ما أخذ، وكل شيء عنده بمقدار، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئًا إلا أن نترحم عليه وندعو له، إنه كان شخصية محبة للخير، وكان ذا خلق وَصُولًا للرحم حبيبًا للقلوب.

– سالم متأثرًا: الله يرحمه ويُحسن إليه.

– أمل بتنهُّد: ربنا يرحمه ويصبرنا على فراقه، وموجهة كلامها للشيخ عاطف: يا شيخ، أنا أريد منك أن تخبرني عن الصدقات التي كان يوزعها حامد ويفعلها، وماذا كان يُقدِّم من الخير حتى تكون موصولة بعد موته.

– الشيخ عاطف تظهر الأسارير على وجهة فرحًا بقولها: بصراحة كان حامد يرسل لي كل شهر بعض الأموال أوزعها على بعض الأسر، ولهم كشوف عندي من الفقراء والمساكين، وكذلك كان يعطي بعض الأولاد الذين يحفظون القرآن جوائز حتى يشجعهم على الحفظ.

– أمل: تمام يا شيخنا، أريد أن نُكبِّر المقرأة وتأتي بمحفِّظين ومحفِّظات أكثر، وسيكون لهم رواتب شهرية تُرسل لك كلَ شهر، وكذلك نُرسل لفضيلتك مالًا لفرش المسجد، وكل ما ينقص المسجد تُخبرنا عنه.

– الشيخ عاطف سعيد بكلام أمل يقول: الحمد لله، الخير لا يتوقف ولا ينقطع بعدك يا حامد يا أعز صديق، وقال حديث النبي صلى الله وعليه وسلم: «إذا مات الإنسانُ انقطع عملُه إلَّا من ثلاثةٍ: إلَّا من صَدَقةٍ جارِيةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو وَلدٍ صَالحٍ يَدعُو له» قال الجميعُ: صدق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

نحسبكم من الصالحين؛ لأن حامدًا له أسرار معي، ولا أستطيع كشفها كان يستأمنني عليها؛ كان يفعل خيرات كثيرة جدًّا في عرب الرشايدة ونواحيها.

– سعيد: هو كان يُحبك يا شيخ عاطف، ويثق فيك.

– الشيخ عاطف: هو صديق وزميل دراسة، ولقد عشنا المرحلة الابتدائية والإعدادية معًا، وكنَّا نجلس أنا وهو بجوار بعضنا طوال هاتين المرحلتين، وكنا نعلب كرة معًا، ونذهب لقصر ثقافة نجع حمادي معًا، كنتُ أتَّفق معه فكريًّا وثقافيًّا، لكنَّنا افترقنا في المرحلة الثانوية، أنا دخلتُ الأزهر الشريف لأن حُلمي أن أكون داعية، ولقد شجعني حامد على ذلك كثيرًا ووقف بجواري كثيرًا، وكان حامد يحبُّ أن يكون رجل أعمال في المستقبل؛ فدخل كلية التجارة جامعة القاهرة ليحقِّق حُلمه، وفعلًا بفضل الله نجح نجاحًا باهرًا، وكنتُ أزوره في القاهرة، كان رجلًا كريمًا مضيافًا، ولم يكن يتأخر عن شيء أعرضه عليه من احتياجات الناس، أتمنى من الله أن يستمر العطاء والخير الذي كان يقدمه حامد للناس، والبركة فيكم وفي أولاده، وفيكِ يا ست هانم.

– أمل بتأثُّر في سرها: ما الذي بينك وبين ربك يا حامد، كل هذا تفعله ونحن لا نعرف!! غفر اللهُ لك، ثم قالت: إن شاء الله يا شيخ عاطف سيستمر، إن شاء الله.

– سالم يهز رأسه: تمام يا شيخ.

– الشيخ عاطف ينهض، يريد الخروج، ويعانق سالمًا وعاصمًا، ويقول لأمل: شدِّي حيلك، والحياة لا تتوقف بعد موت عزيز، وعلينا بالاستمرار والفعل والعمل، والتقدم والإصرار لخوض التجربة بحلوها ومرِّها، وسلَّمَ

على سالم وعاصم سلامًا حارًّا، وقال لهم: يا شباب، أقول لكم حكمة كان والداكم يقولها لي كثيرًا، وقد غيَّرت من حياتي كثيرًا: (من ترك ما ينفعه انشغل بما يضرُّه).

وخرج فخرج معه سعيد ليوصله، وبقي عليٌّ والأولاد، ثم عاد سعيد وسلمى وسعدية وبعض نساء العائلة.

– أمل ظلت تفكر في الحكمة التي قالها الشيخ عاطف، وتكررها شاردة الذهن، ولقد تأثرت بها تأثرًا بالغًا حتى أنها غابت عن المجلس من كثرة التفكير، حتى أنساها التفكير أن تسأل الشيخ عاطفًا عن رؤية حامد في المنام وقصة المفتاح، وقالت في نفسها: خير، لربما فكرت حتى أنسى ذلك لعله خير، ربما يكون عدم تفسير الرؤية أفضل لي.

– سعيد وعليٌّ يتكلمان مع أمل والأولاد.

– سعيد: يا أم سالم، نريد أن نبين لكم ميراث حامد في البلد، هنا له ريع من أرضه كل سنة، وله سهم معنا في تجارة الجِمال أنا وأخي سعيد وعمِّي الحاج رضوان، وهذه العقود تثبت ذلك، وكله مدون في هذه الملفات.

– علي: يا أم عاصم، الكلام أمامكم، حامد كان يرعى بعض الأيتام، وكان يدفع بعض الرواتب للفقراء، وكان يذبح عجلًا في شهر رمضان لإفطار الناس، وكان يتولى علاج بعض المرضى... إلخ.

– أمل وقد اغرورقت عيناها الجميلتان بالدموع، وظهر الاحمرار على وجنتيها، وقالت في سرِّها: الله، ما الذي بينك وبين ربك يا حامد؟!

وقالت لعليٍّ وسعيد: كل شيء كان يفعله من خير يستمر بل سأزيد عليه، ومن ريع الأرض ومن أرباح تجارة الإبل كذلك نعطي الشيخ عاطف كما كان يعطيه حامد حال حياته، أي شيء كان يفعله حامد من خير يستمر وسأزيد عليه.

– علي: يا أم عاصم، حامد كلفني أنا وسعيد بشراء بعض البهائم لبعض الفقراء ليساعدهم، وقمنا بالفعل بشراء البهائم ثم أرسلناها لهم وهذا قبل أن يموت بشهرين.

– أمل تضع وجهها في الأرض، وتبكي متأثِّرة: الله يرحمك يا حامد، ثم قالت ولكنها من شدة البكاء والشَّرقة خرج كلامها غير مفهوم قليلًا: وهذا أيضًا أنا متنازلة عنه لهؤلاء الناس، ولو يوجد أحد يحتاج ممكن نشتري له.

– سالم والدموع في عينيه: تمام يا عم، كل شيء كان يعمله أبي الله يرحمه نحن نؤيده، وسنزيد عليه.

– سعيد وعلي وسعدية وسلمى وبعض الجالسات اغرورقت عيونهم بالدموع، ولكنهم حبسوا دموعهم حتى لا تنهار أمل أكثر.

– وفجاءة دخلت سلمى حامد فرحة وتقول: ماما، أنا كنت بلعب مع بنات أعمامي (خلاويص)، وقالت بصوت عالٍ: ماما أنا زعلانة منكِ؛ لأنك قلتي لي في القاهرة: نحن مسافرين لأبي، وها نحن لنا ثلاثة أيام هنا ولم أرَ أبي، أين هو؟!

– عندما سمعت أمل ذلك كأن شخصًا نزع قلبها من صدرها بقوة،

وكادت أن يغمى عليها، فانهارت في البكاء والنحيب، والجميع بكى من قول سلمى، فخرج سعيد وعليٌّ والدموع في عيونهم، وسعيد يقول باكيًا: قلَّبتي المواجع يا سلمى.

– سعدية تقوم مسرعة، وتأخذ سلمى وتخرج بها من البيت، وتحاول أن تحتوي سلمى.

– لكن أمل لم تكف عن البكاء والنحيب، وتقول: ماذا أقول لها يا سلمى وكيف أفهمها أن أباها قد مات؟!

– سلمى تبكي كذلك: والله صعبة يا أمل؛ لأن سلمى صغيرة، وكانت متعقلة بحامد جدًّا.

– أمل: موقف سلمى من أصعب المواقف عليَّ؛ لأنها صغيرة حتى لو قلت لها: مات أيضًا لا تفهم.

– عاصم ينهض وهو متأثر وحزين: سلام عليكم، أنا سأخرج ذاهبًا عند أعمامي في الديوان.

– سالم ينهض: وأنا معك.

– سلمى: لا بد تتعشوا، ثم بعد ذلك اخرجوا.

– سالم وعاصم: شكرًا يا عمَّة، لا نفس لنا.

– أمل: يا سالم بلغ أعمامك أننا سوف نسافر صباح السبت القادم، وسنزور قبر أبيك يوم الجمعة صباحًا، واتَّصل بعمك مدحت السوَّاق حتى

يأتي من القاهرة ليأخذنا بالسيارة للقاهرة، عاصم حبيبي إياك أن تذهب بالسيارة لنجع حمادي؛ لأنك لا تمتلك رخصة قيادة، كُن هنا في القرية فقط.

– سالم: حاضر أمي.

– سلمى حاولت تخفف عن أمل: سوف أجهز لكِ عشاءً يا أمل، لأنك يظهر عليكِ الإرهاق والجوع.

– أمل تنظر لها بحزن: يا سلمى، مَن له نفس للطعام؟!! سلمى نزعت قلبي من مكانه بكلماتها.

– سلمى تحاول التخفيف: (معلهش) يا امرأة أخي، إنها طفلة.

– أمل: الأطفال يُعذِّبون الكبار لأنهم أطفال، ونحن نحبهم أكثر من أنفسنا، ومن شدة خوفنا عليهم لا ننام الليل، وإني أخاف على سلمى عندما تكبر وتفهم موت أبيها أكثر من الآن، لأنها ستُحرم من عطف وحنان حامد؛ لأنه كان بحرًا فياضًا من الرقة والحنان.

– سلمى: طبعًا وما عرفه أحد إلا أحبَّه، الآن أمل ممكن نأكل سوى حتى أنا لم أتعشى، حاولت سلمى أن تجعل أمل تأكل معها فأكلت أمل، وفجاءةً سمعن أصواتًا في الخارج قادمة من الديوان، أصواتًا عالية تنبئ أن هناك مشكلة بين أشخاص.

– انتبهت أمل: ما هذا يا سلمى؟ إني أسمع أصواتًا وضوضاء كثيرة هل هناك مشكلة؟!

– سلمى: نعم، نحن تعودنا على ذلك؛ لأن عمي الحاج رضوان شيخ قبيلة الرشايدة قاضي عرفي، وكثيرًا نسمع هذه الأصوات؛ لأن الحكم أحيانًا لا يرضى به بعض الأطراف.

– أمل: طيب أنا نفسي أشاهد وأرى ذلك، ممكن؟

– سلمى: ممكن، نحاول أن نقف في البلكونة المطلة على ديوان الضيوف، ونطفئ الأنوار تمامًا حتى لا يرانا أحد.

– أمل: تمام، هيا بنا.

– الحاج رضوان يتكلم مع شاب رشيدي وأهله بقوة، ويرفع صوته: أنتَ قد تعدّيت على الرجل، ودخلت بيته وهو ليس موجودًا.

– الشاب الرشيدي: يا عم له سنتان وأنا أطالبه على حقي ويماطلني.

– الحاج رضوان: لماذا لم تأتني؟ الجريمة في دخولك البيت وهو ليس موجودًا.

– الرجل يدافع عن نفسه: ما كان عندي مال يا شيخ رضوان، وكنتُ أقول له: حاضر، اصبر حتى أبيع محصول الأرض.

– تدخل أحد الحاضرين وقال: بعد إذنك يا شيخ رضوان، هذا الرجل كان يماطل في سداد الدَّين.

– الحاج رضوان: نعم أعرف، لكن دخول الرشيدي بيت الرجل في حال عدم وجوده جريمة وعيب كبير.

– فحكم الحاج رضوان أن ترد البهائم للرجل ولا حقّ للرشيدي، وقد سقط الدين عن الرجل؛ لأن الرشيدي تعدى عليه، وعند الرشايدة دخول الرجل بيت الرجل وهو ليس موجودًا فيه حقٌّ كبير وجُرم.

– الشاب الرشيدي وأهله اعترضوا على الحكم.

– الحاج رضوان موجِّهًا لهم الكلام بصرامة وشدة: لو اعترضتم على ذلك سوف أحوِّلكم لقسم شرطة بهجورة، وأنتم تعرفون ماذا سيحدث، وموجهًا كلامه للشاب: لقد تعدَّيت، والرجل يسكن بجوارنا وهو في حمايتنا، وأنتَ تعرف قيمة وحُرمة التعدي على الجيران والبيت.

– فأيَّد الجميعُ كلامَ الحاج رضوان، وألزموا الشابَّ بأن يرد البائهم لصاحبها الآن.

انفضَّ الجمعُ، وكانت أمل سعيدة بسماع حل تلك المشكلة، وقالت لسلمى: جميل ورائع، لو في كل بلدة وحيٍّ في أنحاء مصر رجال هكذا يردون الحقوق لأهلها لساد المجتمع الأمن والأمان، بصراحة شيء جميل القضاء العرفي عند قبيلة الرشايدة.

– سلمى: القضاء العرفي عندنا من أساسيات القبيلة وتراث مهم، كان أبي سالم قاضيًا عرفيًّا قبل عمي رضوان، ولذلك الشرطة المصرية تأخذ بالقضاء العرفي وتؤيده، وتمد عمي بكل صغيرة وكبيرة حتى يعم السلم بين الناس.

– أمل: كان حامد يحكي لي، ولكني لم أهتم بذلك، والآن رأيت وسمعت فعلًا من العدل الذي حكم به عمك رضوان؛ لأن التعدي على البيوت جُرم،

وبالأخص عندما يكون صاحب البيت غير موجود في بيته، ولقد نهى عن ذلك الإسلام الحنيف.

– كن ينظرن من بلكونة سلمى، لأن بيتها قريب من ديوان العائلة، وفجاءة جاء زوج سلمى خليل أخو الأستاذ سالم، وعندما رأى أمل هشَّ وبشَّ ورحَّب: مرحبًا، أهلًا يا دكتورة.

– أمل مبتسمة: مرحبًا بك، تسأل عن أخباره وأخبار عمله.

– تمام: ولله الحمد.

– أمل تهم بالخروج.

– زوج سلمى: ممكن يا دكتورة تمكثي أنا سوف أخرج، لماذا تخرجين؟

– أمل مبتسمة: شكرًا لحضرتك، أريد النوم.

– سلمى: مع السلامة يا امرأة اخي.

– وضعت رأسها على الوسادة، فشردت بذهنها في كلام الشيخ عاطف وعلي وسعيد فيما كان يفعله حامد من خيرات، بالإضافة لما يقوم به في القاهرة؛ فسعدت بذلك، وقالت في نفسها: لا بد أن يستمر هذا بعدَك يا حبيبي، أتمنى الآن أن أُصلِّي وأقرأ القرآن وأدعو لك، لكن قدر اللهُ وما شاء فعل كُتب علينا نحن النساء نترك الصلاة وقراءة القرآن أيامًا، ربي يرحمك ويحسن إليك يا زوجي الحبيب، فنامت وهي تضع صورة حامد على قلبها،

وتقول: نم معي يا غالي، ولتكُن قريبًا من قلبي لتسمع دقاته وهو يقول لك: أنتَ حبِّي الأول والأخير.

الساعة الخامسة والنصف صباحًا تستيقظ على صوت ناي سعيد في الحديقة التي بجوار بيتها، سعيد يجلس تحت شجرة السيسبان، ويعزف على الناي مقطوعة نجاة الصغير: حبايبنا في الغربة عاملين إيه، وعندما سمعت العزف بكت وكادت أن تموت من شدة النحيب والبكاء، وتقول: تعبانين من بعدك يا حامد، وأخبارنا حزينة مؤلمة على فراقك.

تأثرت باللحن كثيرًا، وذرفت الدموع أنهارًا وألمًا، تذكرت فراق حامد. اللحن قوي وشديد، يهز القلوب والوجدان، ويُذكِّر بغياب الأحبة وألم فراقهم، بكت كثيرًا ولم تستطيع النوم أبدًا، وأخذت تتجول في الشقة فلم تجد الأولاد، فتأكدت أن سلمى نائمة في بيت عمتها سعدية مع الأولاد، وسالم وعاصم في بيت عمهم عليٍّ كالعادة، هم يحبون أبناء أعمامهم فكانت لوحدها في البيت، فكانت تبكي بنحيب وحرقة وتقول: تعبتُ من بعدك يا حامد، الغربة صعبة، أصبحتُ أرملة مغتربة بين البشر، بدونك الحياة غربة قاسية، أنا محتاجة لحنانك ورقتك، أنتَ تعلم أني عاطفية ومتعلقة بك جدًّا، تائهة في صحراء جرداء، يا حبيبي متى ألتقي بك وتضمني لصدرك الحنون؟! تتنهد: آآه يا حامد، فراقك صعب، وذكرياتك تلهب قلبي وتؤلمه.

حبيبي اليوم الأربعاء، وصباح الجمعة سوف أزورك وأصلي وأدعو لك كثيرًا، ويا ليت تزورني في المنام كما زُرتني مرات، لكن للأسف عندما أستقيظ من نومي أجدك قد متَّ، آهٍ ألمٌ صعبٌ.

بقيت هكذا حتى الساعة الثامنة صباحًا وهي تبكي، وتخاطب حامدًا في الصورة التي على صدرها في السلسة الذهبية، حتى قررت الخروج من بيتها، لأنها سمعت صوت سعدية وبعض النساء يخبزن في الحوش الكبير، فقررت النزول حتى تجلس معهن.

– سعدية عندما رأت أمل: صباح الخير امرأة أخي، واقتربت منها وهي مندهشة: ما لي أرى عينيكِ منتفختَين؟ ألم تنامي جيدًا؟ عيناكِ حمراوان؟

– تجمع النسوة حولها.

– أمل بحزن: لا، نمتُ جيدًا، لكني مصدَّعة.

– سعدية تهز رأسها: خير، ووضعت كرسيًّا خشبيًّا: اجلسي هنا.

– أخذت أمل تراقب طريقة الخبيز، وتقول لهم: كلما أزوركم أرى ذلك، كان الله في عونكن، بصراحة عملية شاقة جدًّا، حامد كان يقول لي: الرغيف الشمسيُّ نحن ورثناه من الصعيد، وليس من تراثنا، خبزنا الثريد والرقاق عليه اللحم، والدشيش القمح المطحون والدُّرة المطحونة والعصيدة واللحوح.

أمل تسأل سعدية: كيف يُصنع اللحوح سعدية؟

– سعدية: على الصاج مثل الرقاق لكن سميك قليلًا، ويوضع عليه اللبن والعسل والسمن، وكان أبي وأمي يحبَّانه كثيرًا، وحامد لَمَّا كان يأتِي من القاهرة نصنعه له؛ لأنه كان يحبه.

– أمل: من امتى وأنتم تجهزون للخبيز؟

– سلمى: من الخامسة صباحًا وممكن نبقى أمام الفرن للعاشرة؛ لأننا ننتظر حتى يخمر العيش وننقله من ظل لشمس حتى يخمر ويأخذ وقتًا طويلًا.

– أمل: العيش الشمسيُّ هو خبز فرعوني، ولا يوجد إلا في الصعيد فقط، وقد رأيتُه في المتحف المصري بالتحرير محنطًا وموجودًا حتى الآن، كان الفراعنة يحبُّونه فتوارثه المصريون، كان حامد يحبه جدًّا، يحبه باللبن وبطبيخ البامية (الويكة).

– سعدية: وكان يحبُّه بالملوخية الخضراء الله يرحمه، امرأة أخي أنا أعملِّك اليوم فطير رقاق اليوم؛ لأني أعرف أنك تحبينه، وتتعشين معنا اليوم أنتِ والأولاد، زوجي نافع أخبرني بذلك.

– أمل: تمام سعدية، لكن أخبريني ما أخبارك مع زوجك، هل تغيرت الأمور أم كما أنتم؟

– سعدية تنظر حولها وتقول: أُخبرك بالليل يا مرات أخوي.

– وهما تتحدثان دخلت عليهما بنت عمهم صالحة، بعدما سلمت قالت وهي تبتسم: بنت خالك يا سعدية رحمة ولدت وجابت ولد، وسمُّوه حامد على اسم ابن عمي، الله يرحمه.

– سعدية: الله، جميل، أخي حامد الكثير يحبه، وبعض الناس في قبيلتنا سموا أولادهم على اسمه.

– أمل في سرها: الله، ما الذي بينك وبين ربك يا حامد؟! زيارتي هذه كشفت لي أشياء كثيرة عنك، على الرغم من الحزن والذكريات الأليمة لكنني في كل ساعة أكتشف خيراتك، ربي يقدرني وأحتفظ بما كُنتَ تعمل.

– صالحة: إيش أخبارك يا أمل، معذرة لم أجلس معك كثيرًا؛ لأني مشغولة بالعمل، وأنتِ تعرفين مشاكل العمل والبيت والأولاد.

– أمل لصالحة: كان الله في عونكِ، ما زلتِ تُدرِّسين الكيمياء للبنات في الثانوية ببهجورة، وتمشين على قدميكِ من هنا لقرية بهجورة كل صباح.

– صالحة: نعم، ما زلتُ في مدرسة البنات، لكن زوجي يأخذني بالسيارة إلى المدرسة أنا وأولادي ثم يذهب لعمله في نجع حمادي، وممكن نعود على أقدامنا للعرب، وكثيرًا نرجع معه في السيارة.

– أمل: زوجك محترم ومؤدَّب، وهو يحبُّك ويحبُّ أولاده كثيرًا، حافظي عليه صالحة.

– سعدية: ابن عمِّي رشيد متعلم ويعرف حق بيته ورجل متدين، أتعرفين أنه يخطب الجمعة مكان الشيخ عاطف عندما يغيب، وتقول بحسرة: تعالي شوفي خيبتي أنا وزوجي نافع الذي لا يعرف إلا (الشخط والنتر) والزرع فقط.

– أمل: (معهلش) سعدية، ممكن نتكلم في السهرة كما قُلتِ.

– صالحة تنهض، تريد الذهاب لبيتها.

– سعدية: خلِّيكِ شوية يا صالحة، وتعالي اتعشي معنا يا بنت عمِّي.

– صالحة: أنا مشغولة، عندي بعض الحصص لبنات العرب، وحتى أجهز الطعام لرشيد، وسوف أكون معكن بالليل لأني نفسي أجلس مع أمل كثيرًا.

– أمل: سلام صالحة.

– صالحة: سلام يا بنات.

رحَّب نافع بزوجة ابن عمه في بيته، وحضن سالمًا وعاصمًا وسلمى حضنًا أبويًّا حزينًا، لكنه أمسك نفسه وحبس دموعه حتى لا يؤلِّب عليهم الأحزان ولا يصد أنفسهم عن الطعام، وبعد أن تناولوا العشاء خرج نافع وسالم وعاصم للديوان عند العائلة.

وبقيت أمل مع سعدية وسلمى وصالحة وبعض نساء العائلة، وأخذن يتحدثن.

– أمل: تسلم يداكِ على هذا الطعام الجيد سعدية.

– سلمى: أختي سعدية نفسها حلو في الأكل مثل أمي، الله يرحمها، تُحسن الطبيخ جدًّا.

– أمل: نعم، كان يقول لي حامد، وكان يحب يأكل من يدها كثيرًا، وقال لي: وبالأخص الرقاق باللحم الضأن، ولقد تعلَّمته خصيصًا من أجل أنه

يحبه، وكنتُ أشتريه له من أفران الفينو، ولكن ليس له لذة طعام سعدية بصراحة.

– سعدية: أخجلتموني شكرًا، لَّا طبيخي جميل لماذا نافع لا يُسمعني كلمة حلوة يقول: لي طبيخك رائع يا سعدية حتى أنتعش وأزدهر؟!!

– ضحك الجميع.

– سلمى: تزدهري؟ طيب ما أنتِ حلوة ومفتحة ومثل القمر، ازدهار إيش تاني؟!!

– أمل: يا سعدية ليس شرطًا أن يقول الزوج باللسان ممكن يقول بالأفعال، والزوج بعد الزواج لا يتكلم في الحبِّ كثيرًا، بل يفعل ويعطي أكثر، لكن المرأة تحب الكلام بعد الزواج وقبله، ويجب على المرأة أن تفهم طبيعة الرجل؛ لأن لكل رجل طبيعة، أحيانًا الرجل يصمت ولا يقول كلمات الحب، لكنه يحب زوجته جدًّا، ويخاف عليها ويهتم بها وبالأولاد وبالبيت.

لو أهمل الرجل بيته وتركه، ولم ينفق على أولاده ولا يرعاهم، ويضرب ويشتم ويتعصَّب عمَّال على بطَّال هنا المشكلة.

– سعدية: بصراحة نافع مهتم بالبيت وبالأولاد، ويصرف علينا حتى لا نحتاج لشيء، كل شيء عندنا، لكنه عصبي وكل همه الزرع والأرض، وطبعه حامي زيادة عن اللازم.

– صالحة: أقلولك يا سعدية، ابن عمي نافع طيب القلب وهو مهتم

بأرضه وهذا شيء جيد، ولا يضيع وقته دائمًا إلا في عمله ومزرعته، المفروض تسعدين بذلك!!

– سلمى: والله ولد عمي نافع مجتهد ومخلص في عمله وقلبه أبيض، ولا يركن شيء بداخله.

– أمل: طالما هو هكذا سعدية، يبقى رجل جيد، نحن النساء نريد الرجل كامل الصفات لا عيب فيه، يا سعدية البيوت تبنى على السكينة والمودة، أنتِ مثلًا تعملين في بيتك من شروق الشمس لغروبها لماذا؟

– سعدية: لأني أحب بيتي وأولادي وزوجي، ودا دوري.

– أمل: جميل، هذا هو الحب، هكذا الرجل يعمل ليل نهار، ويعطي بدون مقابل؛ لأنه يحب بيته وأولاده وزوجته بالفعل لا بالقول.

– سعدية ضاحكة: لكن أنا أريده أن يهتم بي؟

– أمل: حاولي أن تهتمي أنتِ به؛ لأن الرجل يحبُ ذلك من المرأة (دلَّعيه).

عندما قالت أمل هذه الكلمة ضحك الجميعُ.

– سلمى وهي تضحك: (دلعيييه بنت أبوي).

– صالحة ضاحكة: (دلعيييه).

– باقي النسوة بنات عم سعدية: (دلعيييه)، ساد الجلسة ضحك ومرح حتى ضحكت أمل بصوت عالٍ وهي تقول: (دلعيييه).

– سعدية ضاحكة: إن كان الدلع ينفع سأدلع، ضحكت بصوت عالٍ.

– سلمى: (دلعييه)، ضحك.

– أمل: سعدية، فيكِ مميزات جميلة؛ ضحوكة وبشوشة ومرحة، حاولي أن تجذبيه.

– وهن يضحكن سمعن صوتًا قادمًا، سعدية: وصل الذي يحتاج للدَّلع، نافع وصل؛ لأنه ينام مبكرًا حتى يستيقظ مبكرًا، ويذهب للأرض.

دخل نافع وألقى السلام، ردَّ الجميعُ: وعليكم السلام، ودخل حجرته لينام. وهمَّ الجميعُ بالخروج، وهمست سلمى في أذن سعدية: (دلعييه) بنت أبوي، ضحكن بصوت منخفض، وخرجن.

– بعد أن اطمأنت على أولادها أنهم في بيوت أعمامهم، وأنهم سينامون هناك وضعت رأسها على الوسادة، وقبَّلت صورة حامد ووضعتها على صدرها، وتذكرت الليالي الجميلة التي كانت تقضيها معه، وكان يسعدها كزوج حنون رقيق المشاعر صاحب مروءة وشهامة، ناجح في أعماله، موفق في تجارته، طموح ينظر للمستقبل بقلب مليء بالتفاؤل، متدين حسن الخلق محب للناس جميعًا، معطاء لا يكلُّ ولا يمُّل، صبور صاحب همة عالية وإرادة قوية، عيناه صوب الهدف والنجاح، وقد نجح وأصبح من رجال الأعمال المشهورين، وقالت في نفسها: أتمنى أن يكون سالم وعاصم وسلمى مثلك يا حامد، ويشقون طريقك وينمُّون ثروتك ويستثمرونها فيما ينفع بلدهم، يكونون مثلك، وفي تدينك وحبِّك للناس، ويعرفون ثقافة قبيلتهم، ويتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم كما كُنتَ يا رفيق عمري.

دموعها بللت الوسادة وهي تتذكر يوم أن غازلها أوَّل مرة، وقال لها: أجمل شيء شدني فيكِ وإليكِ عيناكِ السوداوان الجميلتان الواسعتان، ورمشك الأسود الطويل وحاجبك المستقيم، ووجهك الرائع المشرق، وقوامك الممشوق وبسمتك المبدعة، تبكي بحُرقة وتتنهَّد: آهٍ يا حامد، كان كلامك جميلًا ورائعًا يوم سألتني عند أول زيارة لبيتنا لتخطبني، سألتني: من أين أنتم؟ قلتُ لك: أمي وأبي من طنطا، قُلتَ كلمتك التي أسعدتني: إن أهل طنطا يمتازون بجمال العيون، لا أقول لك: كدتُ أن يغمى عليَّ من الفرحة يا حبيبي.

تتقلب على السرير، تريد أن تصرخ بصوت يسمعه الجميعُ، لتقول لهم: إنها وحيدة في هذا العالم، فقيرة محتاجة للعاطفة، وللحب ولحنان حامد، تريد أن تقول للعالم كله: إنها مسافرة لسفر طويل بدون رفيق ولا زاد، بل رفيقها ودليلها غائب ولم ولن يعود!!

بقيت للساعة الثالثة ليلًا تتذكر وتبكي، بللت الوسادة من كثرة الدموع، يكاد رأسها ينفجر من شدة الصداع، دخلت المطبخ لتعدَّ لنفسها كوبًا من الشاي لتهدأ قليلًا، وأخذت تتجول في الشقة، وتنظر لصورة حامد، وتتنهد بشدة وتُقبِّلها.

– الساعة العاشرة صباحًا، رنَّ جرس الباب، حاولت أن تقوم لكنها لم تستطع، ولكن الجرس لم يتوقف عن الرنين، ففتحت الباب، تكاد أن تقع من شدة الأعياء والإجهاد.

– أمل مُرحِّبة: مرحبًا يا جدَّة، كيفك؟

– الجدة عيدة جدة حامد عجوز احدودب ظهرُها، تتوكأ على عصًا، بلغت من العمر عتيًّا قاربت المائة، بدوية الطباع والثقافة، من المُعمّرات، صاحبة حِكمة، تمتلك ذاكرة قوية، تحفظ تاريخ قبيلة عبس، لا تنسى منه شيئًا، متعصبة لكل قديم، تعيش البداوة بكل ماضيها.

تدخل وتقول: مرحبًا وهلا يا زوجة الغالي، معذرة لم أحضر لأسلِّم عليكِ عندما وصلتِ، كنتُ متعبة قليلًا.

– أمل تُرحِّب بها ترحيبًا كبيرًا: لا يا جدة ولا يهمك، أنا بصراحة كنتُ سأزورك اليوم حتى أطمئن عليكِ، تفضَّلي اجلسي.

– الجدة عيدة تجلس وفي يدها عكازها: الله يرحم حامد، كان صقر (الرجاجيل)، زين يا محلاه، صبي مشرِّف القبيلة.

– أمل بتنهُّد: آه يا جدة، فراقه كوى القلب كيّ.

– الجدة عيدة: مكتوب يا بنتي، كلنا سنموت ونرحل من هذه الدنيا الفانية.

– أمل: جدة، أنا سأحضر لكِ فطور، نفطر سويًّا؟

– الجدة عيدة: والله بفطر بدري، بعد الفجر بعد الصلاة.

– أمل: أنا أريد الفطور، ونفسي تأكلي معي.

– الجدة: طيب خير، ممكن آكل معك.

– أحضرت أمل الفطور، وأخذت تأكل هي والجدة عيدة.

– الجدة عيدة تسأل: ما أخبارك يا أم سالم؟

– أمل بحزن: واللهِ من بعد حامد يا جدة وأنا متعبة.

– الجدة عيدة: الله يرحمه، بصراحة كلنا في حزن عليه الله يرحمه، يا بنتي أمر الله لازم نصبر ونتحمل، الله سبحانه وضعك في هذه المسئولية من بعده، لعله يرحمك ويغفر لكِ، أتعرفين يا أمل يا بنتي أنا عندي الآن حوالي مائة سنة، ترمَّلت وكان عمري عشرين عامًا، يعني لي ثمانون سنة أرملة، وتحملت وصبرت وربيت أولادي.

مات زوجي، كان في ريعان شبابه كان عُمره سبعة وعشرين عامًا في عز مجده وقوة عطائه، وترك لي أولادًا أربعة؛ من الأبناء ثلاثة أولاد وبنت، وعندما تزوجني كان عُمري اثني عشر عامًا وهو ابن عمي، من عاداتنا القديمة البنت لابن عمها، عاش ثماني سنوات يعادلن ثمانين سنة، أسعدني فيها على الرغم من كون الحياة صعبة، وتختلف عن هذه الأيام.

وعندما مات ترك لي رحى أدشُّ عليها الغلة، وترك ثلاثة خراف وعشر نعاج، ولقد كافحتُ وكنتُ أرعى هذه الأغنام بالنهار وأعد الطعام للأولاد بالليل، وأغسل ملابسهم وأهتم بهم، وعندما كنتُ أخرج للرَّعي كنتُ أضع الكبار من الأولاد عند أهل زوجي حتى أعود من الرَّعي، أما الصغير فكنتُ أحمله على كتفي معي.

زوجي مات وهو بعيد عني، في كسلا شرق السودان، كان تاجرًا في

الإبل، وكان يسافر مع أفراد من قبيلة الرشايدة لأهلهم في السودان، وقال الذين كانوا معه في السفر: أصابته حُمّى شديدة فمات ودُفن هناك، وذهب أبي وإخوته للسودان عند أهلهم عندما سمعوا بموته، تتحدث وهي حزينة، لا بد يا ابنتي أمل أن تعلمي أن الحياة لا تتوقف بموت أحد؛ لذلك عندما مات زوجي عشتُ وكافحتُ وصبرت حتى كبر أولادي.

- أمل تُنصت لحديثها بشغف، لقد شدَّها الحديثُ: الله يا جدة، قصتك قصة كفاح!!

- الجدة عيدة: ربيت أولادي ولم أتزوَّج، وعشت لهم حتى كبروا وتزوجوا، ورأيت أولاد أولادي، وأحفادي كثيرون وأنتِ تعرفينهم.

إخوتي وإخوة زوجي لم يتركوني، وقفوا بجانبي، كنتُ أرعى الغنم، وكنا نتنقَّل ببيوتنا من مكان لمكانٍ، كنَّا بدوًا رُحَّلًا، وشيوخ القبيلة وكبارها كانوا يهتمُّون بي، وهذا من عاداتنا في القبيلة الأرملة لو مات عنها زوجُها الجميع يكون معها، ويساعدها ويقضي لها حوائجها.

- أمل: بصراحة يا جدة، يعجبني في مجتمعكم التعاون والتماسك والترابط واحترام الكبير.

- الجدة عيدة: الكبير بيننا له وقاره؛ لأنه يمثل القبيلة وكل الشباب يحترمونه، والله يا ابنتي كان الناس قديمًا أفضل من الآن، كان أعمامي يأتون من السودان من كسلا شرق السودان موطن الرشايدة سلايل عبس، كنا نستقبلهم ونذبح لهم الذبائح، وكانت الناس قلوبها صافية، وكنا فقراء وليس

لنا وطن ومكان معين، كنا نتنقل من أرض إلى أرض، لكن كُنَّا متماسكين متعاونين، بعد الهجرة من بلاد الحجاز ونجد حكى لي أبي كنَّا نسكن بين السودان ومصر، وكانت مصر والسودان دولة واحدة.

– أمل: نعم جدة، حكى لي حامد تاريخ الهجرة، ولكن هل أنتِ عاصرتِ الهجرة؟

– الجدة عيدة: لا، أنا لم أعاصر الهجرة، قالوا لي، وكان يحكي لي أبي والكبار، كانت قبل مولدي بثلاثين سنة، كما ذكروا لي لَمَّا قدمنا من السودان نصبنا خيامنًا في بلد تسمى (الحاج سلام الحاجر)، تبعد عن هنا مسافة قريبة غربًا عنا في الجبل، ثم نزلنا لهذا المكان من أجل الرعي والبحث عن الكلأ بجوار قرية بهجورة، وتفرقت القبيلة في أنحاء مصر؛ في أسوان، وفي سوهاج، وفي الإسماعيلية، والوادي الجديد، والقاهرة.

– أمل تُنصت للجدة عيدة بشغف، وتتذكر حامدًا كان يحكى لها هذا التاريخ، وتذكرت كم كان حامد يحب الجدَّةَ عيدة؛ لأنه كان يستمتع عندما يسمع منها تاريخ القبيلة، وذكر أن كل الأدباء والشعراء يستقون معلوماتهم التاريخية عن القبيلة من الجدة عيدة، ومن كبار السن مثلها في القبيلة.

– شعرت أمل أنها أخذت جرعة سمينة من حديث الجدة عيدة وقصة صبرها وكفاحها، كما أُعجبت بكلام الشيخ عاطف أمس، ولقد بثَّ فيها الشيخُ والجدةُ الأملَ وحبَّ الحياة والتطلع لمستقبلٍ أفضل؛ لأنها تمتلك ثروة عظيمة؛ أولادها وفكرها وثروة زوجها وحب الناس لها، ولا بد لها من خوض التجربة في هذه الحياة.

– فجاءة رنَّ جرس الباب، فتحت أمل فوجدت على الباب دعاء بنت عبد الرحمن، ابنة ابن عم سالم، فتاة جامعية في كلية التربية جامعة جنوب الوادي، تدرس بقسم تاريخ.

– أمل: دعاء حبيبتي، يتعانقان بشدة.

– دعاء: كم مشتاقة لكِ يا دكتورة، معذرة تأخرت في المجيء للسلام عليكِ.

– أمل: لا عليكِ، تفضلي يا حبيبتي.

– دخلت فوجدت الجدة عيدة، سلمت دعاءُ عليها، وقبَّلَت يدها.

– الجدة عيدة: كيفك دعاء يا بنتي؟

– دعاء: بخير يا جدة، ولله الحمد.

– أمل: أخبارك دعاء حبيبتي، وأخبار دراستك، في سنة كام الآن؟

– دعاء: الحمد لله، أنا في السنة الثانية، ونجحت بجيد جدًّا، لأني نفسي أكون دكتورة مثلك؛ لأنك مثلي وقدوتي في العلم.

– أمل سعيدة بكلمات دعاء: ستكونين حبيبتي، أنتِ مجتهدة يا دعاء موفقة، وشكرًا يا حبيبتي.

– دعاء تبكي وتنتحب.

– الجدة عيدة مندهشة: ما بكِ دعاء أيش؟ أبوكِ ضربك أيش بنتي؟!

– أمل تحتضن دعاء: ما لِك دعاء، ماذا حدث؟! احكي تكلمي.

– تتكلم دعاء وهي في حضن أمل: أبي يا دكتورة يريد أن يزوجني لابن عمي غصبًا، وأنا لا أحبه ولا أريده، هو بالنسبة لي مثل أخي تمامًا، حتى هو كذلك لا يريدني، لكن العادات والتقاليد وقانون القبيلة مُصلَت علينا كالسكين!!

– الجدة عيدة تنتفض وبغضب: إيش هذا عبد الرحمن اتجنّ؟! الزمن اختلف، والأجيال غير زمان.

– أمل تحضن دعاء: لا تخافي يا دعاء، لم ولن يحدث إن شاء الله.

– الجدة عيدة تقول بحسرة: ولد أحمد أبو حميد تزوج ابنة عمه غصبًا، وبعد ستة أشهر طلقها، ألا نتعلم من هذه الأحداث؟!! تعبت وأنا أقول: الأجيال الآن غير زمان.

– أمل تُطمئِن دعاء: لا تخافي سأتدخل، وسوف أذهب لأبيكِ بعد قليل، لا تقلقي يا جدة، كان حامد يقول لي ذلك، ما أصبحت القبيلة مثل الماضي، الأجيال اختلفت، وتعلموا وسافروا وانتشرت المدنيَّة، والبيئة تغيرت لكن بعض الأفراد يفكرون بعقلية الماضي في القبيلة، وقال لي: لقد حاولتُ تغيير بعض الأفكار فلم أستطع، وكان يقول لي: قلتُ لكبار القبيلة: ممكن يتزوج الشاب أي فتاة من داخل القبيلة، حرام أن تُسمَّى له ابنة عمه وهي في اللفَّة، هذا يخالف الشرع والمنطق والعقل.

– الجدة عيدة بحسرة: نعم يا أمل، يوجد أفراد يفكرون بعقلية الماضي فعلًا، كان قديمًا شيء عندنا يسمى القَرْع.

– أمل متعجبة هي ودعاء: القَرْع العسلي يا جدَّة؟!

– الجدة عيدة تضحك: واللهِ ما أعرف أيش القَرْع العسلي هذا؟ لكن القَرْع الذي أعرفه هو قانون القبيلة في الزواج؛ قَرْع الفتاة في وجه واحدٍ من القبيلة.

– أمل مستغربة: كيف يا جدة؟!

– الجدة عيدة: الشاب يقرع ابنة عمِّه أو والد الشاب يقرعها في وجه شيخ القبيلة، يقول له: قَرَعتُ في وجهك ابنة عمي فلانة بنت فلان؛ فلا تتزوج إلا بإذن ابن عمها، ولا يخطبها أحدٌ من شباب القبيلة إلا أن يتركها ابنُ عمِّها!!

– أمل متأثرة جدًّا: واللهِ هذا حرامٌ.

– الجدة عيدة: القَرْعُ كان موجودًا حتى منذ عشرين عامًا، وهو سكين مُصلَت على رقاب بنات القبيلة.

– دعاء: يوجد عادات ظالمة عندنا، لا تصلح ولا تصح الآن.

– الجدة عيدة تنهض: قومي بنا يا أمل حتى أخلص موضوع دعاء هذا، لا بد أن أذهب لرضون ابن أخي، وأكلمه في هذا الموضوع، ولا بد أن يُحلَّ اليوم.

– دعاء تبتسم وتُقبِّل يد جدتها: ربي يكرمك يا جدة أنتِ والدكتورة أمل.

– تدخل الجدة عيدة وأمل ودعاء على الحاج رضوان في ديوان الضيوف،

وكان جالسًا هو وسعيد وعلي وبعض شباب العائلة، وكان الوقت يقترب من الظُّهر.

يقف الحاج رضوان والجميع، ويرحبون بالجدة.

– الجدة عيدة: السلام عليكم يا شيخ القبيلة، وأنتم يا أولاد كيفكم؟

– الحاج رضوان يقف تقديرًا لها: وعليكم السلام يا عمَّة، الجميع يقبل يدها.

– الجدة عيدة تشير بعكازها في وجه الحاج رضوان، وتقول: ألم أُحذِّرك يا رضوان من ذلك؟!

– الحاج رضوان مندهش ومتعجِّب: من إيش يا عمة ماذا حدث؟!

– الجدة عيدة بصوت قوي: يا رضوان (القرع)، وأنتَ تعرف خطره على مجتمعنا، إنه يدمر شباب القبيلة.

– أمل متعجبة ومعجبة بقوة شخصية الجدة، لأنها تخاطب شيخ القبيلة بهذه القوة.

– الحاج رضوان مستغربًا: ماذا حدث يا عمَّة؟! وضّحي كلامك.

– الجدة: ابن ابن عمك عبد الرحمن يُصر على أن يزوج دعاء لابن أخيه ويغصبها عليه، وهي لا تريد، كيف هذا؟!

– الحاج رضوان: لم أسمع قبل ذلك عن هذا الموضوع يا عمَّة!!

– الجدة عيدة تُعنِّفه: كيف وأنتَ شيخ القبيلة، والمفروض كل صغيرة

وكبيرة عندك؟! أرسل لتُحضر عبد الرحمن الآن، حتى نحلّ تلك المشكلة؛ لأني أكره القرع ومَن يُشجِّعه، المرأة في القبيلة ضعيفة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، والقرع ظُلم للمرأة، وكان كالسيف مُصلتٌ على رقابنا نحن النسوة، ولقد عانينا من ذلك، الآن تغير الحال يا رضوان، لا بد أن تسعى في هذا الموضوع، وحاول تكلم الشيخ عاطف أن يتكلم في ذلك الأمر في المسجد، ويبين أن زواج الغصب حرام، وأن الزواج مبني على الرضا والقبول.

- الحاج رضوان: حاضر يا عمَّة.

أرسل الحاج رضوان أحد الشباب ليُحضر عبد الرحمن والد دعاء.

- حضر عبد الرحمن على عجل، ومدَّ يده ليُسلِّم على الجميع، فسلَّموا إلا الجدة عيدة امتنعت أن تمد يدها، وقالت بعبارة قوية: لم ولن أسلم عليك؛ لأنك تريد أن تُعيد لنا السُّم الذي يقتل المرأة بالبطيء.

- عبد الرحمن والد دعاء مستغربًا: سُمّ إيش يا جدَّة؟

- الجدة عيدة: (القرع)، أنتَ ما زال عقلك يعيش الماضي، كيف يا ولد تغصب ابنتك على ابن أخيك لتتزوجه غصبًا؟! ألم تتعلم مما حدث من كثرة الطلاق في القبيلة؟!!

- الحاج رضوان موجِّهًا كلامه لعبد الرحمن: اسمع يا عبد الرحمن، حرام أن تغصب ابنتك، الشرع لا يسمح بذلك، الزمن تغير يا ابن عمِّي.

- أمل توجه كلامها للجميع: يا جماعة، يوجد عادات وتقاليد في القبيلة لا بد أن تتغير، لا تصلح ولا تصح الآن، ولا تناسب الشباب الآن؛ لأن

الشباب تعلموا وسافروا خارج البلاد وخارج القبيلة، ونحن في زمن النِّت أصبح العالم قرية واحدة، يوجد عادات وتقاليد جميلة لا بد من المحافظة عليها، وأنا أحبها وأقدِّرها، لكن مسألة غصب الفتاة على ابن عمها لا يصح؛ لأنَّه يُدمِّر المرأة نفسيًّا، ويقتل حريتها ورأيها في اختيار شريك الحياة، ولقد حرم الإسلامُ ذلك، ولقد حكى لي حامد أن زواج الغصب يبوء بالفشل، وحدث ذلك بينكم ويحدث الآن، أنا رأيي السليم أن تتزوج الفتاة من القبيلة من أيِّ أحد، لكن أن تغُصب على ابن عمها وتُخطب له وهي في اللفَّة هذا حرام، وهنا لم تخرج من القبيلة، وأنتم تقولون: إن جميعكم أبناء عمومة، وأنكم منتشرون في أسوان وقنا وسوهاج والوادي الجديد والإسماعيلية والقاهرة، وفي أماكن كثيرة، ما المانع أن تنفتحوا على بعضكم ويكون بينكم علاقات ونسب؟!!

يا أبو دعاء؛ دعاء متعلمة جامعية، وهي ستكون دكتورة في المستقبل، لا يصح أن تُغصب على زوج ليس كُفئًا لها، ممكن تتزوج من شاب يناسبها من داخل القبيلة، سواء هنا أو في أيِّ مكان آخر.

– الحاج رضوان يبتسم لكلام أمل، ويقول: كلام جميل ورائع، وسوف أسعى لذلك إن شاء الله.

– عبد الرحمن يُطأطئ رأسه في الأرض متأثرًا بكلام أمل، ويقول: تمام يا دكتورة، لم ولن أغصبها إن شاء الله، وقال: بصراحة طلبها للزواج مني ابن سلمان أبو حميد اسمه محمد، وهو يدرس في الجامعة في سوهاج، لكني لم أرُدّ عليه حتى الآن، لكني فضَّلت ابن أخي، ودعاء تعرف ذلك.

– الحاج رضوان: ولد مؤدَّب ومحترم ومتعلِّم وصقر، أنا موافق يا عبد الرحمن عليه.

– دعاء تكاد أن تبكي من شدة الفرح والسرور، وقد خرجت عن شعورها، فقامت وقبَّلت جدَّها رضوان وأمل والجدة عيدة، وأباها وقبَّلَت يده؛ فحضنها عبد الرحمن، وبكت وهي في حضنه، فقال: لم ولن أغصبكِ يا ابنتي.

– الجدة عيدة تمد يدها لعبد الرحمن: الآن يا ولد أسلِّم عليك، يتقدم عبد الرحمن ويُقبِّل يدها، ويحضنها ويُقبِّل رأسها.

– عبد الرحمن يوجه كلامه لأمل: يا أم عاصم أنا سأوافق على ابن سلمان طالما دعاء موافقة، لكن عندي شرط!!

– أمل: تفضل، خير إن شاء الله.

– أن تحضري الفرح إن شاء الله بعد سنويَّة ابن عمي حامد، ولو لم تحضري سأغضب!!

– أمل مبتسمة: طبعًا يا أبو دعاء لازم أحضر، دعاء غالية عندي.

– دعاء تُعانق أمل، وتشكرها.

– الجدة عيدة توجه كلامها للجميع: القرع قد كان من عاداتنا القديمة، ولقد عانينا منه عناءً مرًّا خاصة نحن النساء، فمن الآن لا أحب أن أسمع عنه ولا أحب وجوده بيننا، فيجب أن نعلن وفاته ويجب علينا دفنه في مكان

بعيد؛ لأنه مُرّ علقم وسُمّ قاتل يقتل المرأة ببطء، ويقتل مشاعرها ويدمرها معنويًّا.

– الحاج رضوان: تمام يا عمَّة، لم ولن أسمح به بعد ذلك؛ لأنه قانون ظالم يظلم المرأة والشباب ويقتل الحرية والاختيار؛ لأن الزواج سكينة ومودة وحب.

– الجدة عيدة بغضب: حاولوا بكلِّ قوة أن تقتلوا القَرْع، وتتخلصوا منه لأنه دمرني ودمَّر نساء ورجالًا كثيرين، فالآن أُعلن موته على الملأ وأمام الجميع، ولا بد أن تذيع ذلك بين القبيلة يا رضوان، وتعلن ذلك رسميًّا؛ لأنه سمٌّ قاتل للمرأة.

– أمل سعيدة بكلام الجدة عيدة وبثورتها ضد القرع، ووقوفها بجوار فتيات كثيرات حتى خلَّصتهن من زواج الغصب، قد وقفت بقوة ضد ذلك القانون الظالم، ولقد تجرعته هي قديمًا، وكان منتشرًا وسائدًا في القبيلة، فلذلك تقف بقوَّة حتى لا يظهر مرة أخرى.

– تشعر أن لديها رغبة للنوم؛ لأن الجميع ينام في ذلك الوقت نومة القيلولة، وعندما وضعت رأسها على الوسادة نظرت لصورة حامد التي تضعها في السلسلة وقبَّلتها، وأخذت تخاطبها: أنا اليوم سعيدة يا حبيبي برغم من حزني الأليم عليك، سعيدة بحديث الجدة عيدة، لقد أعطاني جرعة تفاؤل وأمل، وسعيدة لأني أنقذتُ دعاء الفتاة الجميلة الرقيقة، أنقذتُها من

حزن كان سيدمر حياتها، أنقذتها من أن تتزوج شخصًا لا تحبه ولا ترغب فيه، ولو تزوجته ستعيش معه بجسدها لا بروحها، وأنتَ تعلم لو تزوجت المرأة رجلًا لا تحبُّه ستتدمر نفسيًّا، ولا تُبدع ولا تشعر بطعم الحياة معه.

حبيبي سأزورك غدًا إن يسر اللهُ الحال، وأُصلي وأدعو لك بالرحمة والمغفرة.

حاولت أن تنام فنامت نومًا عميقًا كأنها لم تذق طعمَ النوم من سنين.

- أمل حكت لهم عن موضوع زيارة الجدة عيدة اليوم، وقصة دعاء.

- الجميع: نحن نعرف قصة دعاء بنت ابن عمنا عبد الرحمن وابن أخيه.

- سعدية بحزن: الحمد لله أنكم أنقذتم دعاء؛ لأنه بصراحة الزواج غصبًا يدمر المرأة ويتعبها نفسيًّا، ويجعلها تعيش طوال عمرها مع زوجها أسيرة مكسورة النفس محطمة العاطفة.

- سلمى ضاحكة: حلوة محطمة عاطفيًّا هذه يا سعدية!! لكن أخبريني دلَّعتي نافع أم صرفتِ نظر؟

- بصوت عالٍ يضحكن جميعًا.

- سعدية ضاحكة: والله دلَّعته يا بنت أبوي، تضحك بصوت عالٍ: ونفع الدلع.

– أمل بضحكة خفيفة: جميل رائع، نافع طيب فيه خير كثير، استمرِّي يا سعدية.

– أمل: الاهتمام بالزوج مهمٌّ جدًّا يشعره بالرجولة، وأن له مكانة في بيته، وأنه مهم في نظر زوجته وأولاده، والإهمال يدمِّره نفسيًّا ويجعله لا يهتم ببيته وأولاده، ويبحث له عن مكان يجد نفسه وشخصيته فيه ويستريح له، وربما يقضي جُلَّ وقته خارج بيته ويهجر سريره، ويبحث له عن مكان يألفه وينام فيه، ولو أَلِف الرَّجلُ ذلك وتعوَّد عليه أصبح شخصًا آخر، والسبب نحن معاشر النسوة، البعض منا لا يفهم طبيعة الرجل، طبيعة الرجل يحن ويسترح للمكان الذي يألفه وذلك ممكن، تنالي الكثير من الرجل لو فهمتِ طبيعته وطبعه.

– سلمى مبتسمة: صحيح والله يا أمل، الرجل لو وجد طبطبة لا يخرج من البيت، يفضل لازق ونايم في البيت، ويترك الشغل والغيط وأكل العيش. تضحك بصوت عالٍ: والزمن هذا الغلاء والمصاريف كثرت.

– سعدية بفكاهة وضحك: أمس دلَّعت نافع تأخَّر عن الأرض، وفضل لحد الساعة السابعة صباحًا لم يخرج، لو زاد الدلع الأرض تبور!!

– يضحكن جميعًا بصوت عالٍ جدًّا.

– أمل: لا أقصد هكذا يا جماعة، أقصد رفع مكانته في بيته والاهتمام به، ورفع شأنه أمام أولاده وبين أهله، والحديث معه بكلام طيب والشعور به، وتفقُّد فرشته وسريره.

– سعدية بفكاهة وضحك: والله بانفض السرير كل يوم يا مرات أخي.

– أمل تنظر لهن بحسرة وحزن؛ لأنها تذكرت أنها أرملة فقدت زوجها، بحزن وأسى: كلمات الحب ليست كل شيء، بل الحنو والعطف والاحتواء أهم شيء، وذلك هو الذي يبقى ويعيش ويُحيي النفس.

مع مرور الوقت سنكتشف أنه يوجد أشياء كثيرة أهم من الحب في حياتنا؛

الإحساس بالاحتواء والأمان والاهتمام والتفاهم أهم...

إحساسك أن أحدًا يحس بك من نبرة صوتك...

أن أحدًا يسمعك...

أن أحدًا يفهمك من نظرةٍ...

أن أحدًا يفهم قصدك حتى لو خانك التعبير...

أن أحدًا يهتم بكل تفاصيلك...

أن أحدًا يحتويكِ عندما تحتاجه، ويطبطب على كتفك حينها كل همومك ستنسحب منكِ وتنسينها.

أن أحدًا يحترم أفكارك وتفكيرك ويُشجِّعك...

كلامُ الحب ليس كل شيء، المرأة لا تحتاج إلى كلام الحب بقدر ما تحتاج إلى شخص مُميزّ يحتويها، حينها تكمُل سعادتها وأُنوثتها.

– شعر الجميع بحُزن أمل، ولقد لمحن الدموع في عينيها، وأنها تقول هذه

الكلمات بتأثُّر وألم، وشعرن أنها تريد أن تقول لهن: حافِظن على أزواجِكن قبل فوات الأوان؛ لأن الحياة جميلة مع الزوج، لماذا تعكِّرن الصفو والمزاج؟!

– سعدية: ممكن تقومي تنامي يا مرات أخي، لأنه يظهر عليكِ أنك مصدَّعة ومتعبة، وسنذهب للمقابر مبكرًا.

– أمل تمسك رأسها: آه نعم سعدية، فعلًا متعبة جدًّا، وربما أؤجِّل زيارة المقابر لصباح السبت.

اشتقتُ لك يا حامد، كانت الحياة جميلة وأنتَ فيها، الآن أصبحت مرَّة بدونك بل علقم، لم يعد للبقاء أهمية فيها؛ لأني لم أسترح منذ رحلتَ عنها، وكيف تحلو لي من غيرك؟!

زوجي الغالي، قد ضاق بي الشوق لهفة لرؤياك لم ولن أنسى الأيام الجميلة معك ما حييتُ، فقد كُنتَ لي زوجًا غاليًا وصديقًا وفيًّا، وأبًا حنونًا، كُنتَ لي كُل الحياة، اشتقتُ لك، كان يوم فراقك يومًا صعبًا أليمًا عليَّ، يوم رحيلك كان سبب تعاستي حتى الآن، رب ارحَمه فقد كان لي زوجًا صالحًا، أحببتُك جدًّا، سامحني لم أعد أتحمَّل الحياة بعدك، قد ضاق صدري وضاقت حياتي.

منذ رحيلك لم تذق عيني راحةَ النوم، وهل للحياة طعم؟!

منذ أن رحلتَ وأنا أتجرع قسوة الحياة والذكريات، فحياتي بدونك لا شيء سوى آهات وألم، وروحي تتكلم وتصرخ على فراقك يا حبيبي، فقد ذهبتَ وذهبَتْ معك بسمتي وضحكتي، فمن يعيدها سواك حبيبي؟!

إذا الدنيا أخذت مني وجودك فاعلم أنك في قلبي حي، فكل شيء جميل لم يمحُه أثرُ السنين، في كل لحظة أتخيلك، فسيبقى الحب الذي انكسر قلبي بفراقه وخيَّم الحزن بألوانه.

فاذا القدر منعني رؤيتك، فاعلم أني ألتمس روحك الطيبة التي لم تفارق مخيلتي وروحي ورؤيتي لك في منامي، لكني عندما أستيقظ لأسعد بك في عالم الوجود والحياة أجدُ أنَّكَ ميت، فألف رحمة ونور عليك، سآتيك يا حامد كثيرًا، لم ولن أنساك يا قرة عيني ومهجة فؤادي، يا قصة حبي ورجلي وفارسي، لم ولن أنساك؛ لأن روحك ترفرف حولي، وتملأ كل أركان وجداني وبيتي ومخيلتي، كيف ولم أنسَ مرحك وضحك وبسمتك، واللحظات الجميلة التي عشتها معك، آه يا كبدي يا بعيد المنال.

تقول هذه الكلمات عند القبر، الجميع حولها يبكي من كلماتها المؤثرة، لدرجة أن سعيدًا كاد أن يغمى عليه من شدة البكاء والنحيب، وسعدية وسلمى وعاصم وسالم يبكون، وتمنوا لو تُكف وتتوقف عن هذه الكلمات؛ لأنها قطَّعت القلوب، وألَّبت ذكرى الوفاة.

تشير بيدها على قبر حامد، وتقول لسالم وعاصم: أبوكم هنا يا أولادي، الحبيب هنا، قلبي هنا يا سالم يا عاصم، هنا قدوتكم بل حياتكم، أوصيكم يا أكبادي بمواصلة المشوار بعد أبيكم في العطاء وفعل الخير للناس والمنفعة كما كان يفعل، أكملوا طريق النور للنهاية لأنه تركككم في منتصف الطريق.

– اقتربت سلمى من أمل والدموع في عينيها لكنها تكتم نحيبها: يكفي

أمل، الأولاد تعبوا ونحن كذلك، لا بد من الثبات والصبر، هيا بنا يكفي هذا.

– أمل تنظر لسلمى والجميع بعيون حمراء منتفخة من شدة البكاء والنحيب: كيف أذهبُ وأترك قلبي وحياتي وعُمري وذكرياتي هنا؟! أتعرفون ما معنى ذلك؟ أذهب معكم جسدًا بلا روح، وقلبًا بلا نبض.

– أحاطها الجميع: لا بد أن نذهب من هنا رحمة بكِ وبالأولاد، وبنا كذلك أمل.

– سعدية تكاد تموت من شدة البكاء: أمل، لا بد أن نرجع، لربما سلمى تستيقظ من النوم وتبحث عنكِ، ولقد وصيت عليها بنتي زهرة أن تراقبها، لا بد أن نرجع بسرعة.

– ونزلوا من عند المقابر، لم تستطع أمل المشي والتحرك فتحاملَت على سلمى وسعدية حتى ركبت في السيارة، ولا تزال تبكي وتقول: الوداع يا حامد، لم ولن أنساك يا أغلى شيء في حياتي.

عادت للقاهرة، وقررت أن تخوض التجربة بنفسها، لأنها تأثرت بقصة الجدة عيدة، وكيف كافحت وصبرت بعد وفات زوجها حتى كبر أولادُها وحققت ما كان يصبو إليه زوجها قبل الممات، ولقد طلبها الكثيرُ للزواج ولكنها رفضت وعاشت لأولادها ولذكريات زوجها، ولقد حقق اللهُ لها ما تريد، كبر أولادها ورات بعينيها أحفادها وأولادهم، لقد ذاقت الجدة مرارة

الفراق وكانت العيشة بدوية قاسية، لكنها صبرت وصمدت حتى وصلت لبرِّ الأمان.

رؤية المفتاح التي كثيرًا ما تأتيها في المنام؛ مفتاح فضيٌّ يشعُّ نورًا يخرجه حامدٌ من جيبه حتى الآن لم تفهم مغزاه والهدف منه، لكنها أوَّلت قصته تأويلات كثيرة.

- في ليلة جمعت أولادها وأخذت تكلمهم وقالت لهم: أولادي، لقد كلَّمتُ عمكم الأستاذ سالم، وطلبتُ منه أن يُرسل لي الملفات والعقود الخاصة بالشركة؛ لأطلع عليها، ولقد أخرجتُ عقود الأملاك وفحصتها، والبارحة ذهبت للجامعة وقدمت إجازة مفتوحة بدون مرتب لأتفرَّغ للشركة وأراعي الأملاك، ولا بد أن تعرفوا كل شيء، أعلم أني سأخوض تجربة مريرة، لكني لو تركتُ كلَّ ذلك ربما يضيع ما جمعه والدكُم، الذي تعب فيه سنين أبوكم بدأ صغيرًا ثم كبر بكفاحه وإصراره على النجاح، ولقد تزوجنا في شقة في الحي العاشر في السويسري مدينة نصر في بداية الأمر، ثم بعد أن نجح أبوكم وأسَّس شركة الاستيراد والتصدير اشترى هذه الفيلا، ثم انتقلنا لنعيش فيها وكنتم أنتم صغارًا لا تدركون ذلك، لقد تعب أبوكم وكان يحرم نفسه من كل الملذَّات من أجلكم، نعم باع بعض أملاكه بعد موت أبيه ليُكبِّر الشركة، ولكنه حافظ على نجاحه، فلا بد أن نحافظ نحن على ما تركه أبوكم، لأن الأخذ بالأسباب عبادة، ولا بد أن نأخذ بذلك حتى نتقدم، والنجاح والتوفيق من الله، ولقد علمنا ديننا العظيم ذلك عندما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وعندما هاجر الرسولُ ﷺ من مكة للمدينة أعدَّ العُدَّة، ووزع الأدوار على الصحابة، وخطط تخطيطًا عبقريًّا، وأخذ بالأسباب وترك النجاح على الله، وكذلك في جميع الغزوات والمعارك والفتوحات أخذ بذلك، وأرسى قواعد عبادة الأخذ بالأسباب، فهو قدوتنا.

-سالم: تمام أمي، جيد ورائع، وأنا أتمنى أن يوفقني ربي وأنجح في الثانوية، وأدخل كلية التجارة حتى أكون مثل أبي، وأُكمل مشواره إن شاء الله.

- أمل تبسمت عندما سمعت كلام سالم: إن شاء الله يا سالم.

- عاصم: وأنا أمي سوف أكمل الثانوية، ونفسي ألتحق بكلية الحقوق كما كان يقول لي أبي: أريدك أن تدخل كليه الحقوق يا سالم، حتى تكون مسئول الشئون القانونية بشركاتي؛ فأحب أن أحقق حُلم أبي.

- تبسمت أمل وظهرت السعادة على وجهها: ربي يوفقكم، والآن هذه الملفات والعقود التي أمامي بها الأملاك التي تركها أبوكم، ولا بد أن أُطلعكم عليها، لأنه ما كان يخفي عليَّ شيئًا.

أولًا: مزرعة الإسماعيلية في منطقة أبو صوير.

ثانيًا: عمارة المهندسين بشارع شهاب.

ثالثًا: عمارة الكيت كات بإمبابة الجيزة.

رابعًا: شقق متفرقة في التجمع الأول والخامس ومنطقة مدينتي والشروق.

خامسًا: أملاك الصعيد، ولقد اطلعتم عليها في آخر زيارة.

سادسًا: بعض مساحات من الأراضي في التجمع الخامس والشروق.

سابعًا: شاليهات في الساحل الشمالي والغردقة.

وشركة الرشيدي للاستيراد والتصدير.

وغدًا إن شاء الله سوف أرسل لعمكم سالم وزوج جنات حتى أطلع على ملفاتها حتى أعرف، وأدرس الأمور قبل الذهاب للشركة.

– سالم يحث أمَّه على أن تأخذ خطوة للأمام، وتنفذ ما تقول فورًا، وأيد عاصمٌ ما قاله سالمٌ.

وبعد اطلاع أمل على أمور الشركة من الأستاذ سالم زوج جنات بدأت تذهب كل صباح للشركة، وتتعرف على الموظفين، وتدرس بعض الأمور، وبدأت تهتم بكل صغيرة وكبيرة، وأوَّل قرار اتَّخذَته رفعت مرتبات الموظفين، وأمَّنت على مَن لم يُؤمَّن عليه وضمنت لهم حياة كريمة؛ فسعد الموظفون جميعًا فأحبوا العمل، وبدأت الشركة تنتعش لأن الموظفين نفسيتهم تغيرت للأحسن، وبدأت أمل توسع في مجالات الشركة، وتستورد وتصدر لبلاد عدة منتجات مصرية مثل الفاكهة والخضار المصري، وتستورد خامات للمصانع من شتى البلاد، فازدهرت الشركة وكبرت.

– تخاطب صورة حامد كل ليلة، وتصلي وتدعو له، وتتذكر أيام السعادة معه، وفي زياراتها للصعيد تزور قبره وتزور أهله كثيرًا وتودهم وتتقرب إليهم، وتقول: إن صلة أهل حامد تُرضيه.

وبعد أن حققت نجاحًا في الشركة، ونمت وكبرت وذاع صيتها، وأصبحت من الشركات المعروفة في مصر والدول العربية شعرت أملُ بالسعادة والفخر أنها لم تضيع ثروة زوجها، وأنها حافظت عليها وعلى أولادها، وربتهم ورعتهم وصانتهم من الانحراف والضياع، ولقد نجحوا وتحققت طموحاتهم الدراسية: تخرج سالم من كلية التجارة، وأصبح مديرًا لشركات أبيه، وتزوج ابنة جنات ميّ، وأنجب منها حامدًا وأمل، وسالم متأثرٌ بتجربة أبيه جدًّا، وهذا ظاهرٌ في أسلوبه وطريقة كلامه وتصرفاته، وإصراره على النجاح والتقدم.

وقد تفوق عاصمٌ، وأصبح مسئول الشئون القانونية والعلاقات العامة لشركات أبيه وأملاكه، وتزوج أصغر بنات عمه سعيد ليلى؛ لأنه كان يحبها جدًّا، وكانا يلعبان سويًّا وهم صغار، وكان يسعد عندما يسافر للصعيد حتى يراها، وقد حصلت على ليسانس الآداب من جامعة سوهاج، وأنجب منها بنتًا جميلة رائعة الجمال شبه أمه، وسمَّاها أمل.

وسلمى الصغيرة كبرت وفهمت أن أباها مات ورحل عنها وهي صغيرة، ولم تكن تفهم معنى الموت، وتخرجت من كلية اقتصاد وعلوم سياسية جامعة

القاهرة، وتزوَّجت من شاب يُسمَّى مالك، يعمل معهم في الشركة من محافظة الشرقية، وكان مديرًا لفرع التسويق في الشركة، وأحبها ولم تُنجب بعد.

حامد حبيبي، أنا كبرتُ وتعبتُ، الضغط والسكر والمفاصل تؤلمني، أشعر بالغربة والوحدة أكثر وأكثر، تخاطب صورته كالعادة كأنه بجوارها يجلس نائمًا على السرير، كل يوم يمرُّ يزداد شوقي إليك أكثر، بل أكاد أموت من شدة اشتياقي لك، غربتي عنك تؤلمني.

أتعرف يا حامد، الأحبة كلهم رحلوا أمي وأبي والحاج رضوان والجدة عيدة، وعمِّي مدحت الرجل الطيب قائد سيارتك، حتى الأستاذ سالم كبر وجنات، وأبناؤك أصبحوا رجالًا متفوقين ناجحين كما كُنتَ تُريد.

حبيبي لقد ظهرت أحداث في مصر زلزلتها ثورة 52 يناير 1102م، بسبب هذه الثورة وقعت الشركة بسبب رفع الدولار والفوضى التي سادت البلاد، حتى الآن لم تتقدم البلاد ونحن في 2202م، ولكنها بدأت تستقر الآن بعض الشيء، ولله الحمد شركتنا تقدمت بالرغم مما حدث، ولقد تذكرت حديثك عن ثورة 2591م عندما كُنتَ تقول: إن الثورة لم تسرْ على الطريق الصحيح، بل أخَّرت البلاد وزاد الفقر وتدهور التعليم، وأنَ مصر كانت قبلها أفضل اقتصاديًّا وسياسيًّا ونظافةً، وكانت لها مكانة مرموقة في العالم العربي والأوروبي، لذلك حبيبي دائمًا الثورات لا تحقق الأهداف بل تدمِّر الاقتصاد وتفكِّك المجتمع وتدمر القيم؛ لأنه يوجد خبثاء ومنافقون

ومندسُّون، ليس هدفهم بلادهم بل أنفسهم وما يطمحون إليه من مخططات خبيثة مدسوسة لتدمير البلاد والنفوس، وأنهم شياطين يرتدون ملابس ملائكية لكنهم خبثاء النفس، وأنا بطبعي أرفض الثورات من هذا النوع التي تخرب ولا تعمر، وتهدم ولا تبني، وتقتل بدون رحمة. حبيبي لم يُخَطَّط لهذه الثورة تخطيطًا سليمًا لأن السلم أولًا قبل كل شيء؛ لأنه يحافظ على الأرض والفرد والقيم، ولقد أظهرت هذه الثورةُ لنا الخبثاء والمنافقين وكشفتهم، وظهروا لنا كظهور الشمس في كبد السماء، وكشفت لنا أهدافهم المريضة، ولذلك لم يتقدموا خطوة للأمام، حفظ اللهُ مصرَ أرض الأمجاد، وحفظ اللهُ شعبَها ونيلَها.

حامد، لم تنجح إلا الجدة عيدة بثورتها التحريرية ضد القَرْع في قبيلة الرشايدة، ولقد تزعَّمَت هذه الثورة ورفعت شعار: لا للقَرْع بعد اليوم، لا للسُّمِّ القاتل الذي يقتل معنويات المرأة الرشيدية، ويقتل حريتها ويقف حجر عثرة في طريقها، ويدمر حياتها، وأيضًا يدمر حرية الشباب من رجال القبيلة، ويجعل بعضهم يمارس الظلم والقهر على المرأة منكسرة الجناح، هذه المرأة الضعيفة في هذا المجتمع.

لقد تغيرت الأجيال، ومن حقِّ كل شخص أن يختار ما يحلو له من داخل القبيلة، وأن يُعبِّر عن مشاعره بحرية فيما شرعه الإسلام والمنطق والواقع، كم أني سعيدة بنجاح هذه الثورة التي قادتها الجدةُ عيدة، لقد وقف الجميع بجانبها من نساء القبيلة وأنا معهم، والكثير من الشباب والرجال، لقد خططت الجدة تخطيطًا سليمًا لذلك نجحت ثورتها ضد الماضي العقيم

الذي يرتدي ثوب الظلم والفساد، والجميع سعد بذلك وبالأخص النساء والشباب الذين لا يحبون القرع، القانون الظالم الذي كالسيف المُصلَت على رقاب النساء والشباب، وأنه من العادات القديمة التي لا تصلح اليوم؛ لأن المدنية غزت العقول، وغيرت المجتمع من البادية للحضر.

ألم تقل لي كثيرًا حبيبي: أتمنى أن أرى اليوم الذي يختفي فيه الظلمُ والفساد، وأن نتحرر من العادات والتقاليد البالية التي لا تصلُح للمجتمع الآن، ومنها زواج الغصب، ويجب أن تُستشار الفتاة في زواجها وألَّا تُجبَر على الزواج من ابن عمها، وتُخطب له وهم في اللفَّة، وهذا فيه ظلم للفتاة وللشاب سواء؟! ولماذا لا تتزوج من أي فرد من القبيلة، لماذا ابن العم خصوصًا وهي لا تريده أو هو لا يريدها؟!!

فأُبشرك الآن، لقد نجحت ثورة الجدة عيدة، ومات القَرْعُ ودُفن في صحراء جرداء، وتنفست الفتاةُ الرشيدية الصُّعداء، وفرح بذلك الكثير من الشباب؛ لأنهم كانوا يشعرون أن بنات أعمامهم فرض وواجب عليهم، ومحُرم عليهم أن ينظر الواحد منهم لغير ابنة عمه، كما فرحت الفتاة بذلك، تحقق حُلمك يا حامد، ولقد أصدر شيوخُ القبيلة في أنحاء مصر قانونَ لا للقَرع، ولقد شاع الخبر عند رشايدة السودان، وكذلك في بعض الدول التي يسكنها بنو رشيد.

أتذكر كلماتك الرائعة عندما كنتَ تقول لي: إن كبت الحريات يخلق جيلًا هشًّا ضعيفًا لا يستطيع أن يعبر عن نفسه، بل يقتل طموحاته ويحطم نفسيته ويجعله دائمًا مهمومًا ومضطربًا، ولا يحب قبيلته ولا ينتمي لها، ويهجر عاداتها

وتقاليدها الظالمة ويتمرد عليها، ولا يحبُّ العيش بين أفرادها، ويفضِّل الهجرة عنها ليسكن بين أفراد ينبذون هذه الأفكار البالية القديمة العقيمة ليسعد وليكون حرًّا؟

وقد قلت لي: لقد تمرد الكثيرُ من الشباب على هذه العادات والتقاليد، وهاجروا لبلاد بعيدة حتى الآن لا نعرف عنهم شيئًا، ولقد آثروا الصمت وعدم الاتصال بأهلهم وذويهم، وعاشوا ونجحوا وحققوا طُموحاتهم، وتخلَّوا عن كلِّ ما يُعكِّر صفوهم.

أتذكر كلماتك عندما كنت تقول لي: إن بقاء هذه العادات والتقاليد الظالمة يُشتِّت أفراد القبيلة ولا يجعها لُحمة واحدة، ويفكك رابطتها؟ نعم، شُرعت قديمًا هذه العادات لأسباب كان الرشيدي يتنقَّل من مكان لمكان بحثًا عن الرعي، ولا يريد أن يترك ابنته في بلد بعيد عنه، لكن الآن تغير الوضع عن الماضي؛ الاستقرار، التعليم، المدنية، فلا بد من التغيير.

– سالم يترك شقته، وينام عند أمه والحزن على وجهه دومًا، ويأكل في الشركة ويخرج كثيرًا، ويسهر خارج البيت ويأتي متأخرًا، فشعرت أمل أن سالمًا غير طبيعي، وأن هناك مشكلة.

– أمل دخلت حجرة سالم قبل أن يذهب لعمله صباحًا، وحاولت أن تتحدث معه: ما بك يا سالم، تنام عندي منذ يومين، فيه مشكلة حبيبي مع زوجتك؟!

– سالم يحاول أن يتهرب: لا ماما، لا يوجد شيء.

– أمل: سالم، أنتَ ابن بطني، أعرفك جيدًا، أحلفُ أنَّكَ غضبان من زوجتك، احكِ لي حبيبي قبل أن تكبر المشكلة، ميّ طيِّبة، وهي تحبُّك كثيرًا.

– سالم بتنهُّد: نعم أمي، توجد مشكلة بيني وبين زوجتي.

– أمل: طيب، قل ما هذه المشكلة حتى أعرف، وأحاول أتدخل؟

– سالم يتنهد بشدة: المشكلة أمي أنها تعرف ميعاد خروجي من العمل وتتصل بي كثيرًا، وعندما أجلس في مكتبي تقول لي: لا تجلس وتتركني لوحدي، وأنا عندما أجلس بمكتبي أتحدَّث مع العملاء وأتصل بهم يعني بكون في عمل!! وعرضتُ عليها أن آتي لها بواحدة تساعدها في عمل البيت فرفضت، فكيف لا تسمع كلامي ولا تنفذ أوامري؟!

– أمل نظرت له بتنهد قائلةً: تمام يا سالم، أنا سوف أذهب لميّ وأسمع منها، ذكَّرتَني بأبيك الله يرحمه، أنتَ مثله في تصرفاتك حتى في مشاكلك، الآن أنتَ اذهب لعملك، وسوف أتَّصل بك، سلام.

– أمل: أخبارك حبيبتي، عاملة إيه؟

– ميّ بحزن: الحمد لله ماما.

– أمل: أين حامد وأمل، وحشوني جدًّا؟

– ميّ: نزلوا يلعبوا في الحديقة، معهم بدرية.

– أمل: المفروض يكون عندهم اليوم تمارين في النادي.

– ميّ: نعم ماما أنا تعبانة، ولا أستطيع الذهاب للنادي.

– أمل تقترب منها: ما بكِ ميّ؟ هو بينك وبين سالم مشكلة؟

– ميّ تنهار وتبكي بنحيب، وترتمي في حضن أمل.

– أمل تُربِّت على ظهرها: لا عليكِ، إن شاء الله خير، فوقي واحكي لي.

– ميّ وهي تبكي: يا ماما غضب عني، لأني قلتُ له: أنا في حاجة لك يا سالم، يأتي من العمل الساعة الثالثة، يتناول غداءه ثم ينام قليلًا، ثم يقضي وقته بالمكتب على اللاب توب، أقول له: يا سالم ممكن نخرج نتفسح نفسي أخرج معك، أو تعالَ نجلس أنا وأنتَ والأولاد يغضب مني. ماما يجلس على اللاب والتليفون أكثر مما يجلس معنا، وأنه يريد خادمة بالبيت أنا أرفض لأني أريده أن يأكل من يدي ويلبس من غسيلي أنا، وقد يغضب عندما أتَّصل به ويتعصب ويقول: أنا لا أحب أحد يأمرني ولا يتأمَّر عليَّ!!

– أمل بغضب: غلطان، وليس عنده حق في كل هذا، أنا لما يأتي سوف أتصرف معه.

– ميّ والدموع في عينيها: وترك سريره منذ يومين، وينام عندك يا ماما.

– أمل بغضب تتصل بسالم: تعالَ على شقتك، أنا أنتظرُكَ في شقَّتِكَ، يا ميّ لا تخبري أمك يا حبيبتي، أنا سأنهي هذه المشكلة.

– مي والدموع في عينيها: أنا منذ أن تزوجت من ثماني سنوات ما أخبرتُ أمي عن شيء، لا أُخرج أسرار بيتي.

– أمل: جميل ميّ، جنات صديقتي، وأنا أعرفها طيبة، لو شكوتِ لها سوف تأتي عليكِ أنتِ ولا تأتِي على سالم.

– ميّ: هي قالت لي ذلك: لو أغضبتِ سالم يومًا ما أنا سوف أغضبُ منكِ.

– أمل: ميّ أنتِ تعرفي أنك عزيزة عليّ، ولقد قلتُ لكِ قبل ذلك: سالم ذو طبيعة صعيدية مثل أبيه، لا يحبُّ الأوامر كثيرًا ومعظم الرجال هكذا، لكنه طيب ويرجع بسرعة، كان حامد هكذا، الرجل لا يحبُّ النقد الكثير في كل الأمور، هو عصبي نعم لكنه طيب وحنون، يحب بيته وأولاده.

– ميّ: صحيح ماما، عطوف وحنون، ويحبُّنا جدًّا.

– أمل: أتعرفين ميّ، أقبح شيء في حق المرأة أن يترك زوجُها البيتَ وينام بعيدًا عنها وعن سريره، حامد عُمره ما فعل ذلك؛ لأنه كان عندما يغضب مني بسرعة أصالحه، لا أجعل الموضوع يطول حتى يكبر، ولا يسمع به أحد.

– ميّ: هو لم يعطني فرصة ماما، أغلق تليفونه، ولم أعرف أين هو؟

– أمل: كيف ميّ وأنا تحتك بالدور الأول؟ لماذا لم تخبريني يا حبيبتي؟

– ميّ: أنا أعرف أنك مريضة، وأحببتُ ألا تعرفي حتى لا تغضبي، والضغط يرتفع عليكِ.

– أمل: عذرٌ أقبح من ذنب، على العموم خير ميّ، أنا أعرف أن مشاكل الرجال كثيرة، ولكن نحن معاشر النساء علينا دور كبير، ألا وهو المحافظة

على بيوتنا وحياتنا وأولادنا والعشرة التي بيننا، تحضرني قصة الصحابية الجليلة الرُّميساء بنت ملحان أم سُليم، أم أنس بن مالك التي صنعت أبا طلحة، التي قالت له: لا أقبل منك إلا الإسلام مهرًا، هذه الصحابية جعلت من أبي طلحة فارسًا مغوارًا مدافعًا عن الإسلام، وكان أبو طلحة يوم غزوة أحد مدافعًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان محبًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم صنعته للإسلام، فكوني له أمَّ سُليم يكُن لكِ أبا طلحة.

– ميّ مبتسمة: الله، جميل، كلماتك كالدرر ماما.

– فجاءة يدخل سالم، يلقي السلام.

– أمل: سالم، سلِّم على زوجتك.

– سالم يتقدم ويسلِّم على ميّ، ويقبِّل رأسها.

– ميّ تنهار وتبكي بصوت عالٍ، وترتمي في حضن سالم.

– أمل تضحك: (يا شوية عيال) أنا أعرف أنكم لم ولن تستغنوا عن بعض، أجلس يا سالم أريد أن أكلمك.

– سالم: حاضر أمي.

– أمل: تأسَّف لزوجتك؛ لأنك أخطأت في حقِّها، من حقِّها أن تجلس معها، وتعرف أخبارها وتعرف أخبار أولادك وتهتم بهم، العمل ليس كل شيء، وعندما تكون في بيتك لا تنشغل بالعمل كثيرًا، اجعل أكثر وقتك لبيتك ولزوجتك.

يا ابني ميّ تحبك، وتركت وظيفتها من أجل أن تتفرغ لك وللأولاد، ومعها حق في كل ما قالت، أتعرف أجمل شيء بالنسبة للزوجة ماذا؟ عندما تُطعم زوجها من يدها ويشكرها على ذلك، ويُشعرها بأهميتها، المرأة تحب أن تكون سيدة في بيتها مع زوجها وأولادها، فأنت حبيبي لم تفهم مقصد زوجتك.

– ميّ بصوت ذي دلال: أنا له يا ماما، وتحت رهن إشارتهِ، وترتمي في حضن سالم، يضمها سالم بقوة.

– أمل: ممكن يا سالم تأخذ زوجتك وتخرجا للعشاء بالخارج في أي مطعم، ممكن تخرجا لتاون داون أول التسعين، أو لكايرو فستيفال، المهم تخرجا.

– سالم: حاضر أمي.

– أمل: سالم حبيبي، أحب أوصيك وصيةً غالية، لقد قرأت عن الداعية العظيم أحمد ديدات، وأحبُّ أن تعي هذه الكلمات لأنها رائعة، قال: (لا تكن هشًّا أي ضربةٍ تُسقِطك، وأي صدمةٍ تُضعفك، وأي فشل يُعقِّدك، وأي خطأ يقتلك، كُن قويًّا؛ فلا مكان للضعفاء في هذا الوقت).

سالم، كُن كأبيك، حلَّ مشاكلك بنفسك، كان أبوك نهرًا من الحنان والعطف عليَّ، لكنه كان حازمًا عندما يتطلب الحزم، لم يهجر بيته ولم ينشغل عنا طالما معنا وبيننا، ثقافته تختلف لكنه كان متعدِّد الثقافات يتأقلم مع أي ثقافة وعادات.

– سالم مبتسمًا: كلامك رائع أمي، يقبِّل رأسها: حاضر أمي.

يوجه كلامه لمي برقة وحنان: أين الأولاد ميّ؟

– ميّ: في حديقة الفيلا مع بدرية.

– أمل: خُذوا الأولاد وتعشُّوا بالخارج (وبطَّلوا لعب العيال الصغار) يا سالم عيد الأضحى اقترب بعد أسبوع، بلغت عمَّك سعيد يشتري العجل للأضحية؟

– سالم: بالتأكيد أمي عمِّي اشترى العجل.

– أمل: ممكن نسافر قبل العيد بخمسة أيام أنا وأخوك عاصم وزوجته ليلى حتى تقضي العيد مع أهلها وأنتَ وأولادك وزوجتك.

– سالم: إن شاء الله يا أمي.

– أمل: ما أخبار والدتك يا ميّ؟

– مي: مريضة، الضغط تعبها، تتحرك بصعوبة لأن وزنها زاد، وتذهب لجدي سالم كثيرًا؛ لأنه أصبح وحيدًا بعد موت جدتي هو قوي ومتماسك وأشد من أمي، لكنه يحتاج من يؤنسه وينزل على القهوة مع أصحابه، وأمي تذهب تجهز له الطعام، وتغسل له ملابسه وترتِّب له الشقة.

– أمل بحزن وأسى: أصعب شيء الوحدة، وبالأخص على الرجل عندما تموت زوجته قبله يقاسي ويعاني كثيرًا، كان الله في عونه، كبر الأستاذ سالم هو أكبر من حامد بخمس سنوات، لكن الأعمار بيد الله، أنا وأمكِ يا ميّ في سن بعض، لكنها تزوجت قبلي بسبعة أشهر، أنا وهي نبلغ من العمر الآن واحدًا

وستين عامًا وشهورًا، جنات صديقة عزيزة وغالية عليَّ، لم تتركني في أي محنة من المحن التي مرَّت بي كانت بجانبي دومًا، لقد رآني حامد في فرحها وأعجُب بي، وكان يركز عليَّ النظر وكانت جنات همزة الوصل بيننا، تتذكر أمل وتتنهد بشدة: أوه، ذكريات أليمة على الرغم من جمالها وروعتها.

– ميّ تبتسم: أخبرتني أمي يا ماما عن تلك الذكريات، وحكت لي قصتك أنتِ وعمِّي حامد، وتبتسم: ماما، أنتِ فوق الستين لكنك ما زلتِ جميلة ورائعة، والذي يراكِ الآن يقول: عندكِ ثلاثون عامًا.

– أمل بحسرة وحزن: فين الجمال يا ميّ؟! مات حامد، والحزن عليه أخذ جمالي وفرحتي وسعادتي معه، الحمد لله.

– دخل سالم ومعه الأولاد حامد وأمل: تيتا تيتا، تأخذهم أمل في حضنها وتُقبِّلهم وتقول: أترككم حتى تجهزوا أنفسكم، يلا مع السلامة.

– ميّ: ممكن تذهبي معنا ماما يا ليت.

– أمل بضحك: لا أحب أن أكون عزول، ربنا يهنيكم.

اتَّصلت بعاصم لتطمئنَّ عليه هو زوجته، لأنه ذهب إلى الإسكندرية ليخلص بعض الأوراق في ميناء الإسكندرية، ويستقبل صفقة تجارية قادمة من الصين، ويتفسح وهو زوجته هناك.

واتَّصلت بسلمى واطمأنت عليها وعلى زوجها، وجلست في البلكونة

تنظر للحديقة عند وقت الغروب، واسترخت على كرسي هزاز، ونظرت للصورة التي على صدرها وأخذت تخاطبها: آهٍ يا حامد، اثنا عشر عامًا مرَّت على وفاتك، سنوات صعبة عليَّ كأنها مائة وعشرون سنة بدونك أيام أليمة، وعشرون سنة عشتها معك حبًّا وسعادة ومرحًا وفرحًا وسرورًا مرت سريعًا كأنها لحظات، أيام السعادة تمر سريعة وأيام الحزن بطيئة كئيبة، ما أصعب الأيام من غيرك يا حبيبي، سني كبر حامد، وغزا الشيب رأسي، وكل حياتي اثنان وستون عامًا، لم أصبح الجميلة التي كُنتَ تتغزل فيها وتهيم بها، تساقط شعري من كثرة الحزن يا حبيبي، شعري الأسود الطويل، أتذكُر يوم قُلتَ لي: شعركِ جميل، عندما رأيته أول مرة يوم كتب الكتاب، وقد أذهلك جمالُه وطولُه وشدَّة سواده، لم يعد كما كان، الحزن هدَّني هدًّا، وعيناي تعبت وتساقط رمشي وغاب بريقها، عيناي التي كُنتَ تتغزل فيها وتنظر لها كثيرًا، أتذكر عندما كُنتَ تقول لي: إنكم يا أهل طنطا تتميزون بجمال العيون وحلاوتها، لقد أصاب مني المرض بعدك، الفراق يهد الجبال فكيف لا يهدني؟!!

أولادك كبروا وكثرت مشاكلهم، ولكني زرعتُ فيهم الحب والتعاون والتماسك، وحب الأهل والعمل والوحدة، وحب وطنهم تلك كانت أهدافي؛ لأني كنتُ أعرف خطتك مع أبنائك، ففهمت ما تريد، لكن القدر لم يمهلك لتكمل ذلك؛ فأكملتُ بعدك يا مهجة فؤادي، ويا قرة عيني.

– لقد وطَّدتُ العلاقة بين أولادك وأهلهم في صعيد مصر، وعرفتهم تراث وعادات وتقاليد قبيلتهم الرشايدة سلايل عبس؛ لأني كنتُ أسمعك تقول: جيلٌ بلا ماضٍ لا حاضرَ له، لقد أخذتُ على عاتقي هذه المهمة،

وسافرتُ كثيرًا من أجل ذلك، وكنتُ أقضي الأعياد هناك، وأحضر المناسبات ليتعرف الأولادُ على أهلهم.

– سالم أصبح مديرًا عامًّا للشركات، ولقد وسع مجالات البزنس ومعه عاصم ومعهم سلمى؛ يعملون معًا في مجموعة شركات الرشيدي للاستيراد والتصدير.

– تزوَّجت سلمى، وهي سعيدة مع زوجها وتحبُّه، شابٌّ ذو خلق من الشرقية، صاحب قيم ومبادئ ريفية، تعيَّن في الشركة ورآها فأُعجب بها فتزوجها، وهو كريمٌ ورفيقٌ بها.

– لم أقصر في أي عملٍ خيرٍ كُنتَ تعمله، بل زدتُ عليه سواءً هنا أو في الصعيد، أنا الآن أشتاق لك أكثر من الأول؛ لأني الآن وحيدة بمفردي والوحدة قاتلة، لقد انشغلتُ بالشركة وتربية الأولاد زمنًا، والآن الوحدة والمرض والشوق إليك والذكريات تحرق قلبي، تُؤرِّق مضجعي، وتُبكي قلبي ليل نهار.

لدي رغبة جارفة لرؤيتك، يجذبني الشوق إليك أقوى من كل مرة، الباقي من الزمن أسبوع حتى أسافر وأزور قبرك، طويل جدًّا هذا الأسبوع، لو الأمر بيدي لطويتُ الأيامَ طيًّا حتى أراك وأزورك، أشعرُ أنِّي سأجِدُك هناك تنتظرني لتُمسك بيدي كما كُنتَ تمسكها لتُقبِّلها، وتضمها إلى صدرك حتى تُشعرني بأُنوثتي، آهٍ يا حامد، بصدق عندي شعور قويٌّ أنك تنتظرني هناك، تستقبلني بكل شوق وأنت ترتدي ملابسك التقليدية الصعيدية،

وتفتح باب السيارة وتحتضنني، وتضمني ضمَّةَ العاشق الذي لم يرَ حبيبتَه منذ سنين.

قريبًا سأزورك، وستكون أيام خير، عيد الأضحى المبارك، انتظِرْني لم ولن أتأخَّر حبيبي.

بلل الدمع وجنتيها وهي تخاطب صورته كعادتها، وتتذكر ذكرياتها الجميلة المؤلمة والفراق والغربة والوحدة، وكل شيء دار وحدث معها في سنوات الفراق، من شدة التفكير والبكاء نامت وهي جالسة على الكرسي في البلكونة.

– يحضنها حامدٌ حضنًا قويًّا ويحاول مسح دموعها، ويُقبِّل رأسها ويداعب شعرها، ويُمرِّر يده علي شعرها كما كان يفعل قبل الرحيل، ويمسك بخصلات شعرها الأبيض ويضعه على عينيه، ويُمرِّر الخصلات على خدِّه، يُقبِّلها كثيرًا، يمرِّر يده برقة وحنان على خدها، ويتلمَّس جسدها، ويحتويها كما تحتوي الأمُّ رضيعَها وتضمُّه لصدرها، أمل في قمة سعادتها، أشعرها كأنها عروس في ليلة زفافها، لحظات رومانسية رائعة، أدخل حامدٌ يدَه في جيبه ليعطيها المفتاح، ففجأة استيقظت على رنة الموبايل من سيدة زوجة رجل أعمال من التجمع الخامس تريد أن تتبرع لجمعية حامد للأيتام والأعمال الخيرية: يااااه يا حامد، تسعدني في المنام، وعندما أتستيقظ أجدكَ ميِّتًا، لو تأخَّرتِ لحظةً يا مدام فيروز حتى أسعد مع زوجي أكثر، لكن قدر اللهُ وما شاء فعل، لعله خير.

– اتَّصلَت بجنات عبر الواتس، تتكلم معها لتطمئن على والدها.

– أمل: كيفك جنات؟ مشتاقة لكِ، كيف حال الأستاذ سالم الآن؟

– جنات: والدي بخير، هو خرج إلى المقهى ليجلس مع أصحابه، وأنا أجهز له الأكل، وأنظف له شقته وأرتب دولابه وأبات عنده الليلة ثم أرجع للبيت صباحًا.

– أمل: كان الله في عونه، كُبر وله حق عليكِ يا جنات أن تقضي له بعض حوائجه.

– جنات: طبعًا حقه عليَّ، وزوجي لا يمنعني أبدًا، يقول لي: لا تستأذني عندما تريدين الذهاب لأبيكِ، بصراحة لا يمنعني أبدًا، بل يعطيني فلوسًا لأشتري لأبي أشياء وأبي يرفض ذلك، لكني أقول له: هدية من زوجي، وكثيرًا يأتي معي، ويوم الجمعة نأتي لنقضي اليوم عنده ونتغدى معًا، هو قريب منا كما تعرفين، يعني ثلث ساعة مشيًا على الأقدام.

– أمل: بصراحة زوجك طيب وعلى خلق، ربنا يبارك فيه.

– جنات: أبي ينام مبكرًا ليُصلِّي الفجر، ثم يقرأ القرآن بعد الفجر ساعة، ثم يذهب ليفطر على عربة الفول مع أصحابه، ثم يجلس على المقهى ليشرب قهوته، ثم يعود للبيت الساعة الثامنة صباحًا ينام لقرب صلاة الظهر ويصلي، ثم يعود يقرأ في أيِّ كتاب، وهكذا بعد كل صلاة، وفي الأعياد والمناسبات يذهب للصعيد كما تعرفين.

– أمل: ربنا يكرمه، من زمان وهو هكذا الأستاذ سالم، كان حامد يقول لي.

– جنات أخبارك إيه أمل، طمئنيني عليكِ وعلى الأولاد؟

– أمل: أنا جيدة وبخير، حامد زارني في المنام من رُبع ساعة، وكنتُ سعيدة معه جدًّا وأسعدني كالعادة، ثم استيقظتُ فجأةً على تليفون من مدام فيروز صديقتنا، فاكراها؟ تريد أن تتبرع لدار الأيتام لو تأخَّرت لحظة حتى يكتمل الحُلم؟!

– جنات بضحك: يا عم يا عم، ناس سعيدة وناس تعيسة، ربنا يهنِّيكِ.

– أمل: والأولاد بخير، سالم خرج هو وميّ يتعشوا برَّه، وعاصم هو زوجته في الإسكندرية بيخلص شغل في الجمارك هناك ويفسح مراته وابنته، وسلمى مع زوجها، رنيت عليها من ساعتين، وهي جيدة.

– جنات: الحمد لله، ربنا يبارك فيهم وفيكِ، خلاص كبُرنا يا أمل، وأصبح لنا أحفاد ربنا يحفظهم هكذا الدنيا، كل فرد فيها يُسلِّم الآخر المهمة.

– أمل: صحتك ما أخبارها جنات؟

– جنات: السكر أمل تعبني، ووزني زاد والضغط والصداع لا يتركني.

– أمل: من زمان وأنا أقولك: خفِّي وزنك يا جنات، وخفِّي المحشي، أنتِ تعملي المحشي كثيرًا؛ لأنك تحبيه وتفضليه.

– جنات: بصراحة قال لي الطبيب ذلك، لكن لا أسمع ولا أنفذ،

وزوجي تعب معي وأولادي، لكن شهوتي للمحشي قوية، وعندما أجده أنسى أني مريضة سُكَّر.

– أمل: كُلي لكن ليس كثيرًا، لو مرة في الشهر ممكن ليس مرتين في الأسبوع أو ثلاثًا.

– جنات: أنا بعمل محشي يوم الجمعة لازم.

– أمل: هذا دمار يا جنات، صحتكِ أمانة، حاولي تُقلِّلي جدًّا.

– جنات: أبي وصل يا أمل.

– أمل: ممكن تسلِّمي عليه.

– الأستاذ سالم: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

– جنات فتحت سيبكر على الموبايل.

– أمل: وعليكم السلام أستاذ سالم، نحن مشتاقون لرؤيتك، والأولاد نفسهم يسلموا عليك ويجلسوا معك.

– الأستاذ سالم: الجمعة الماضية كان عندي سالم هو وميّ وحماه وحماته، وتغدينا سويًّا، وسألته عنكِ وطمنِّي عليكم.

– أمل: خير، نلقاك على خير إن شاء الله، هل أنتَ مسافر للصعيد في العيد؟

– الأستاذ سالم: نعم، إن شاء الله بعد أسبوع.

– أمل: ممكن تسافر معنا، نحن سنسافر إن شاء الله قبل العيد بخمسة أيام.

– الأستاذ سالم: تمام، أنا سأتواصل مع سالم.

– أمل: تمام، ربنا يكرمك بالصحة والعافية أستاذ سالم، سلام.

–جنات: أترُكِك أمل الآن حتى أحضِّر لأبي العشاء.

– أمل: سلام جنات.

بعد الحديث مع جنات عبر الواتس نهضت أمل تريد أن تنزل لبدرية حتى تشتري لها بعض الطلبات، وتتحدث معها من أجل السفر.

– أمل: أخبارك بدرية؟

– بدرية بحزن: الحمد لله يا دكتورة، من بعد موت مبروك الحياة بقت طعمها مر.

– أمل تنتبه لما تقول بدرية بشدة وتتنهد: نعم، الفراق مكتوب علينا، ماذا نفعل؟ ما أخبار أولادك؟

– بدرية: عايشين يا دكتورة، الاثنين ساكنين في بيتنا في عزبة الهجانة، ومشغولين بأكل العيش، الحياة صعبة هذه الأيام لم تعد مثل زمان، الواحد منا مش قادر يصرف على نفسه وأولاده.

– أمل بتفاؤل: خير إن شاء الله، بعد الضيق فرج ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

نحن سوف نسافر آخر هذا الأسبوع يا بدرية، لو تحبي أن تذهبي لأولادك وتقضي معهم يومين قبل سفرنا ممكن.

– بدرية: أنا كنت نفسي أسافر الفيوم، لكن أجّلت بعد العيد، بعدما تعودين يا دكتورة ممكن أذهب آخذ لي يومين مع الأولاد في عزبة الهجانة وأرجع.

– أمل: تمام، طيب ممكن تشتري لي بعض الطلبات من السوبر ماركت الآن؟

– بدرية: حاضر حالًا يا دكتورة.

– أمل: سأنتظرك بالحديقة.

– بدرية أخذت نصف ساعة، ثم رجعت واشترت الطلبات، وصعدت بها لشقة أمل، ثم نزلت تتحدث مع أمل.

– أمل: شكرًا بدرية.

– بدرية: على إيه يا دكتورة، أنا في خدمتك.

– أمل: متى ستذهبين لأولادك؟

– بدرية: غدًا صباحًا، أحضر لحضرتك العشاء يا دكتورة؟

– أمل: ممكن، وتأتي به هنا.

– بدرية: تمام حاضر، وتذهب بدرية لتحضر العشاء لأمل، وفجأة تدخل سلمى، تعانق أمها بشدة وتبكي.

– أمل مندهشة وبحزن: ما بكِ حبيبتي؟ فيه إيه زوجك جيد؟!

سلمى تجلس، وتبكي بصوت عالٍ ونحيب.

– أمل بحزن: أكيد فيه مشكلة، أخبريني بسرعة.

– سلمى: مالك غضبان مني، ورفع صوته عليَّ.

– أمل بحسرة: أنتم جيل هذا الزمن لا تستطيعون التحمل، احكي ماذا حدث؟

– سلمى وهي تبكي: هو يرفض الأكل من الخارج، وأنا بكون متعبة من العمل، ولا أستطيع أن أطبخ.

– أمل: طيِّب، هو يعرف أنك أنتِ الآن عندي؟

– سلمى: لا يعلم، هو الآن في العمل.

– أمل برقة وحنان الأم التي تعلمت الكثير من هذه الحياة، ومرت عليها مشاكل عديدة مثل هذه المشكلة قالت: الآن الساعة العاشرة نتعشى سويًّا، ثم سأذهب معكِ لبيتكِ، وسوف أتحدث مع زوجك.

– سلمى: تمام ماما.

– أمل تنهض مسرعة: لا نأكل هنا، نأكل أنا وأنتِ وزوجكِ أفضل، خلاص بدرية اتعشي أنتِ، نحن سنخرج.

– بدرية: خير يا دكتورة، ربنا يجيب العواقب سليمة، مع ألف سلامة.

– أمل ترتدي ملابس الخروج، من بعد موت حامد لا تخرج إلا بالملابس السوداء الغامقة، وترتدي حجابًا أسود، والأسود يليق عليها ويعطيها بهاءً ونضرةً؛ لأن وجهها يميل للبياض بكثرة، تتَّصل بمالك زوج سلمى: أين أنتَ؟ أنا قادمة لبيتك، نفسي أتعشَّى معك.

– مالك بترحيب شديد: سأكون أسعد الناس بوجودك ماما. مالك يحب حماته؛ لأنها جيدة معه وتحبه جدًّا، ويعاملها معاملة طيبة كما يعامل أمه في القرية؛ لأن أمل لا تعامله كحماة بل كأنه ابنها، مرَّ مالك على سوبر ماركت، واشترى بعض الطلبات.

– أمل وسلمى يدخلان شقة مالك، ويتحدَّثان حتى يصل مالك.

– أمل رفيقة بسلمى، لكنها أحيانًا تكون شديدة وصارمة في كلامها لها حتى تُشعرها بأهمية الزواج ومسئولية البيت. تقول لها قبل قدوم زوجها: أولًا، خروجك بدون إذن زوجك سلمى خطأ، لا بد أن يعرف زوجك، نعم أنتِ قريبة منا في السكن لكنه لا بد أن يعلم، نفترض حدث لكِ شيء في الطريق، الزوج يا حبيبتي لا بد أن يعرف كل صغيرة وكبيرة عن زوجته.

– سلمى تضع رأسها في الأرض كسوفًا وحرجًا من أمها: حاضر أمي، هذا خطأ وتسرُّع مني، وأوَّل مرة أفعل ذلك وآخر مرة.

– أمل مبتسمة تقول بحنان الأم: حبيبتي بيتكِ وزوجكِ مملكتك، لا بد أن تحافظي عليهما، الزوج يغضب كثيرًا عندما لا تعطيه الزوجة اهتمامًا، ولا تُعبِّره ولا تُشعره بقيمته كرجل في البيت.

– سلمى تبكي: أنا بحبه يا أمي جدًّا.

– أمل: الحب وحده لا يكفي بين الزوجين، نخلِّي بالنا، الزوج يتحمل الكثير ولكن لصبره حدود، الإنسان منا لحم ودم ومشاعر وشعور، لا بد من فهم طبيعة زوجك، مالك رجل ريفي، تربى على ثقافة ريفية، وأهل الريف يحبون الطبيخ والأكل في البيت، ووالدك كان يقدس الأكل في البيت، وكان يحب أن يأكل من يدي، أهل الأقاليم غيرنا حبيبتي، لا يحبون الأكل من المطاعم كثيرًا إلَّا عند الضرورة.

– سلمى تنظر لأمها بحزن: هذا يسبب لي مشكلة، أنا بكون متعبة من العمل.

– وهن يتكلمن دخل مالك، ألقى السلام، وسلم على حماته بحرارة وترحاب كبير.

– أمل: حمدًا لله على السلامة، الآن العاشرة والنصف، كُنتَ في الشركة كل هذا الوقت؟

– مالك: بصراحة لا، أنا خرجت من العمل الساعة السادسة قبل المغرب، فكنت مخنوقًا، فذهبت (لكايروا فستيفال) جلست هناك قليلًا، فعندما حضرتك اتصلتِ بي جئتُ مسرعًا.

– أمل: فيك الخير، شكرًا. تقول لسلمى: ممكن يا سلمى تحضري الموجود حتى نتعشَّى سويًّا.

– سلمى: حالًا ماما.

– أمل انفردت بمالك، وأخذت تتحدث معه: أراك غضبان، وبتقول: إنك مخنوق، ماذا حدث يا ابني سلمى أغضبتكَ؟

– مالك يطأطئ رأسه باستحياء، ويحاول أن يخفي ما بداخله.

– أمل تقترب منه وبحنان الحماة الرحيمة: مالك يا ابني، أنتَ مثل سالم وعاصم عندي، أنتَ زوج سلمى فلذة كبدي، وقرة عين حامد، تكلَّمْ، لا بد أن تفضفض وتُخرج ما بداخلك، الواحد منا يحتاج من يسمعه قبل أن تكبر المشكلة.

– مالك: ماما أنا لا أريد المتاعب لكِ، أنتِ مريضة ومُرهقة، ولا أريد أُحمِّلك الكثير.

– أمل: لا حبيبي، عندما تتحدث معي وتقول لي مشكلتك أكون سعيدة، لكن إن لم تفضفض معي ستبقى المشكلة قائمة، وربما تكبر وتتَّسع وتخرج المشكلة بعيدًا عنا، لكن المشكلة بيتنا نحاول حلَّها، تكلَّمْ.

– مالك: بصراحة ماما، سلمى تشتري (دليفري) كثيرًا، وأنا لا أحب ذلك، أحب أن آكل في بيتي ومن مطبخي ومن يديها، وكذلك تقول لي: فلوس كثيرة، نوديها فين؟ ولقد نصحتُها كثيرًا، لكنها لا تسمع لنصيحتي.

– أمل: طبعًا، هذا حقُّك، ولقد حكيت أنا وهي، وقلت لها: إن طبيعة الرجل الريفي والصعيدي تختلف كثيرًا، يحب الأكل بالبيت ويقدس ذلك ولا تقلق، سوف أضبط أنا الأمور، لكن أريد منك أن تكون رجلًا سمحًا، لا تركز على كل صغيرة وكبيرة في البيت طالما لا تمس كرامتك، حامد كان

صعيديًّا رشيديًّا فيه طباع البدو، ويحب الأكلات الصعيدية والبدوية كذلك، لكنه كان سمحًا يتغاضى عن بعض الأمور، لو كنتُ مريضة أو تأخَّرت في العمل (يعني يعمل نفسه مش واخد باله ويعدي الأمور عشان المركب تسير) لأننا نحن كبشر كلنا أخطاء وعيوب، والحياة الزوجية مثل سفينة في محيط تحتاج لرُبَّان ذكي ماهر، وأنت رجل خصَّك اللهُ بصفات القوامة، وأعطاك مميزات خلاف المرأة، لا بد أن تكون قائدًا بصيرًا.

– مالك يهز رأسه: تمام ماما.

– أمل: سلمى صغيرة السن وهي تحبك، وأنتَ كل شيء لها، حاول أن تحتويها، طبعًا أنا لا أؤيد الخطأ، لكن جيل هذه الأيام الكثير منهن لا يتحمَّلن كثيرًا، متقلبات قليلًا، فعليك أن تصبر وتحاول أن تعالج بعض أخطائها بحكمة، وأنتَ رجل ريفي عندك خبرة في ذلك، تربيت في بيئة مختلفة عن هنا.

– مالك: ماما، فيه مشكلة أخري، وسلمى تُصرُّ عليها.

– أمل بلهفة: ما هي؟

– مالك بتأثُّر وحزن: هي لا تريد أن تنجب الآن، وتقول لي: ليس الآن، أريد أن أعيش لي فترة قبل ما أنشغل بالأولاد وقرفهم.

– أمل بحزن وتأثُّر من الخبر: كيف؟ مخطئة في ذلك، أنتَ من حقِّك أن تعيش دور الأب، وهذه أمنية كل رجل متزوج، نحن لماذا نتزوج؟! أنا سوف أثنيها عن ذلك ولا تغضب، سهلة إن شاء الله.

– سلمى: تفضلوا، السفرة جاهزة.

– بعد الانتهاء من تناول العشاء، أمل لمالك: ممكن أستأذنك يا ابني نجلس أنا وسلمى مع بعضنا.

– مالك ينهض: تمام ماما، أنا سأدخل حجرة مكتبي، السلام عليكم.

– أمل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

تقترب أمل من سلمى وتُلقي على مسامعها أحاديث الرسول في طاعة الزوجة لزوجها، والصبر عليه، وحُسن التبعُّل له، وأن طاعة الزوج من طاعة الله.

حبيبتي زوجك من حقه أن يأكل في بيته، وقلت لكِ: لكل رجل طبيعة، وزوجك رجل ريفي محترم ويحبك، فهذا ليس معناه أنك تقصرين في حقِّه، ابنتي لا يصح أن تقولي لزوجك: فلوس كتير، نوديها فين؟ نصيبك من ميراث أبيكِ كبير نعم، فحرام عليكِ التبذير هذا؛ لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، الواجب عليكِ أن تزيدي على ما عندك (مش ننقصه)، وأنتِ تحصلين على مرتب كبير، وشريكة مع إخوتك في الشركات، وزوجك كذلك يتقاضى مرتبًا لا بأس به، وهو ليس بخيل معك، بل كريم ومحترم.

زوجك رجل يحفظ القرآن الكريم ومؤدب، وليس عيبًا أن يكون فقيرًا؛ لأن السيدة خديجة تزوجها النبي ﷺ، وكانت ذات مالٍ كثير، ومعروفة بين أهل مكة بذلك، ولم تُشعر رسول الله ﷺ لحظة أنه تزوجها وهو أقل منها ثروةً، بل خلقة وأمانته وصدقه فاق ذلك كله، وعندما أُمر بالرسالة وقفت

بجانبه بمالها ونفسها، وكانت في خدمته ليل نهار، ووهبت كل مالها في خدمة نشر الدعوة، وكانت خير زوجة، ضحت بكل شيء وكانت أعظم امرأة، وعندما ماتت حزن عليها حزنًا عظيمًا، وسمى العام التي ماتت فيه عام الحزن، وبعد رحيلها كان يذكرها بكل خير.

حبيبتي، لا بد أن تقتدي بالسيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، واحذري سلمى أن تُشعري زوجك أنكِ أكثر منه مالًا؛ لأن هذا يقتل الحب بين الزوجين، حبيبتي بل يخلق مشاكل كثيرة بينكم، والسيدة خديجة لم تُشعر النبي ﷺ بذلك على الإطلاق، لذلك كان النبي يجلُّها ويُقدِّرها حتى بعد مماتها.

والدك الله يرحمه جمع هذا المال، وأسَّس هذه الشركات بعرق جبينه، أتعرفين أنه في بداية مجيئه للقاهرة عمل في التجارة، وكان يلفُّ على قدميه على المصانع والورش في مدينة العاشر من رمضان والمنطقة الصناعية في أكتوبر والحرفيين، ليبيع لهم قطع الغيار، ويعرف ماذا يريدون حتى يوفر لهم ما يريدون، حتى كبر وكون شركات الاستيراد والتصدير.

– سلمى تُنصت لأمِّها بشغف.

– أمل: حبيبتي، لقد ربَّيتك ولم أُشعركِ بأي شيء، ولم أجعلك تشعرين بأي معاناة، بل وفَّرتُ لكِ كلَّ شيء، والفترة التي قضيتها مع أبيكِ وأنتِ صغيرة كان يُحبُّك، وكان يُلبِّي لكِ ما تريدين، سلمى أنا أمُّكِ وأريد لكِ السعادة، ولا بد أن تتغيري مع زوجك، لو لم تستطيعي التوفيق بين عملك وبيتكِ خذي إجازة من العمل، وتفرغي لبيتكِ ولزوجك.

وأمرٌ ثانٍ هامٌّ: لِمَّا أنتِ لا تريدين الخِلفة، لماذا لم تخبريني يا سلمى؟

– سلمى تبكي، ولكنها لا تستطيع الردَّ.

– أمل: بعض صديقاتكِ اللواتي تجلسين معهنَّ وتتحدثين عبر الواتس والفيس هنَّ اللواتي يُشجِّعنك على ذلك، حبيبتي لا تسمعي كلامهن، الزوج من حقه أن يكون أبًا، طالما أنتِ لا تُعانين من مرض يمنعك من الخلفة هذا الباب لا بد أن يُغلَق، وتحاولي أن تعيشي حياةً سعيدةً مع زوجكِ كما يريد هو في طاعة ربنا سبحانه وتعالى، ونشكر الله على ما نحن فيه من نعم عظيمة.

– سلمى تبكي، وترتمي في حضن أمِّها وتنتحب.

– أمل تُربِّت على ظهرها: سهلة الأمور، ربنا يصلح ما بينكم، أنا أريد منكِ الآن أن تعتذري لزوجك.

– أمل: أنا سأدخل له وأكلِّمه. دخلت أمل على مالك، وحدَّثته فخرج معها مبتسمًا بشوشًا.

– عندما رأته سلمى جرت عليه، وارتمت في حضنه، وبكت بصوت عالٍ. أمل تضحك: هذا اسمه بكاء الشوق واللهفة والحب، يضحك الجميع، ويحضن مالك سلمى.

– أمل تحاول أن تضفي على الجلسة الضحك والمرح: مالك، اسمك جميل، يُذكِّرني باسم العالم الجليل مالك بن أنس، العلامة الكبير عالم مدينة رسول الله ﷺ، وصاحب الموطأ.

– مالك: فعلًا أبي سماني على اسمه، لأنه رحمة الله عليه كان يحبه، وكان إمامًا وخطيبًا بالأوقاف، وكان مالكي المذهب، وكان حافظًا لعلمه.

– أمل: هؤلاء العلماء رموزنا الإسلامية العظيمة.

– مالك: طبعًا ماما، كواكب.

– أمل: ممكن أذهب للبيت، أنا في حاجة للنوم.

– مالك: لا بد أن تنامي عندنا اليوم، نحن سعداء بوجودكِ بيننا، أقسمَ عليها مالكٌ حتى تنام عندهم.

– أمل: تمام، أنا هبات لكن بشرط.

– سلمى متبسمة، ولا تزال تضع رأسها على صدر مالك: اشرُطي يا ماما.

– أمل: أن لا تغضبوا من بعض مرة أخرى، عيشوا الجميل في حياتكم، لماذا النكد والمشاكل؟! المشاكل تقصر العُمر، وتُمرضنا.

– سلمى ومالك: إن شاء الله يا ماما لم ولن يحدث مرة ثانية.

– أمل: غدًا ممكن تذهبا تغيرا جو، العين السخنة قريبة من هنا، روحوا غيروا جو.

– سلمى ومالك: فكرة جيدة، وتكوني معنا.

– أمل: لا، أنا لازم أكون بالبيت، لأن أخاكِ عاصم قادم من الإسكندرية غدًا، وأستعدُّ لسفر الصعيد.

– سلمى: يا حبيبتي يا ماما، تزوَّجنا وكبرنا، ولكنكِ مهتمَّة بنا كأننا ما زلنا أطفالًا.

– أمل بحنان الأم: يا حبيبتي، الأم لا حدود لعطائها، ولا زمن ولا نهاية له، الأم تُعطي لآخر نفس في عُمرها، بكرة تخلِّفي وتعرفي معنى الأمومة.

– مالك: ربنا يعطيكِ الصحة يا ماما.

– أمل لمالك: أنتَ ستقضي العيد عند أهلك في الشرقية أم هنا؟

– مالك: لم أقرر بعد يا ماما.

– أمل: لو لم تذهب للشرقية ممكن تسافر معنا للصعيد.

– مالك: ربنا يسهل ويقدر الخير، أقدار ربنا، سوف أبلغكِ ماما، ممكن الآن تتفضَّلي لتستريحي شكلك متعبة، ونحن أتعبناكِ اليوم.

– تقوم أمل لتذهب لتنام، وتترك سلمى وزوجها.

تذكرت وعادت بها الذاكرة عندما كانت تأتي منذ 1991م، هنا رأت أمل أن أشياء كثيرة تغيَّرت وتبدَّلت، الآن عادات كثيرة من عادات وتقاليد القبيلة تغيَّرت للأحسن؛ انتشر التعليم والمدنيَّة والتحضُّر شيء جميل، وبناء المستشفيات والمدارس والمساجد والصيدليات، لقد غزت المدنيَّةُ القبيلةَ فغيرت بناياتها، حتى غيرت طبيعة البشر، وتقلد العديدُ من الناس مناصب بالدولة، وكثُر تواجد المرأة، وأصبح لها رأي في المجتمع، وارتقت السلَّم الوظيفيَّ.

لقد ثار الشباب على عادات وتقاليد القبيلة الظالمة التي تخالف الدِّين والعقل والمنطق، لقد ثاروا على (القَرْع)، وقتلوه ودفنوه في صحراء جرداء، يوم أن أعلنت الجدةُ عيدةُ هي وعجائز القبيلة الثورةَ على القرع، وعلى هذه العادات والتقاليد الظالمة للمرأة، وهن اللواتي زرعن شجرة الحرية، وسقينها بماء الأمل لمستقبلٍ أفضل، على الرغم أنها كانت امرأة عجوز ضعيفة، لكنها قادت هذه الثورةً التي غيرت نفوس كثير من الشباب والفتيات للأفضل، أتت ثمار هذه الثورة الآن، لأن أبطالها صبروا وقاوموا الفساد وحاربوه بكل قوة في كل مكان، ولقد واجهوا مَن يدافع عن القَرْع، لأن بعض أفراد القبيلة يريدون أن يبقى هذا القرع موجودًا بينهم لأسباب كثيرة؛ منها العصبية القبلية، والحفاظ على المواريث، وعندما وجد الشباب وسيلة التواصل والانفتاح على المجتمع عبر النِّت على الفيس والواتس عبَّروا عن آرائهم، ونشروا الفكرة بين أفراد قبيلة الرشايدة فنجحت وأتت بثمارٍ يانعة، كانت الجدة عيدة على الرغم من أنها تحمل ثقافة القبيلة تسمع كلام الدكتورة أمل وحامد وبعض المتعلمين يقولون لها: أنتِ جدة الجميع، وصوتك مسموع ومؤثرة، ونحن في ظهرك لن نتخلى عنكِ، وكانت تقول للفتيات: تكلمن، لا تضيعن حقوقكن، عبِّرن عن أنفسكن أنا معكنَّ.

أخذت تبثُّ في قلوبهن الحرية والثورة، وتقول: أنا ضد (القَرْع) والزواج الغصب، لماذا يتزوج الشابُّ ابنة عمِّه عنوةً، لماذا لا تكون أي فتاة من القبيلة؟! لقد أحب الفتياتُ الجدَّةَ عيدةَ زعيمة هذه الثورة، الجدة عيدة وقفت في وجه مَن ينادون بالقرع؛ لأنها عانت من ذلك، وتزوَّجت ابن عمها غصبًا، لكنها صبرت وتحملت، وكانت تقول لهم: إن الأجيال تغيرت، فلا بد من التغيير.

فأصبحت الرشيدية الآن تُستشار في الزواج، لو أرادت ابن عمِّها تزوَّجته، وإن لم تُرِده رفضَتْه، فيتقدَّم لها أي شاب من القبيلة، خطوة جيدة ومثمرة.

تتذكر أمل وتعود بالذاكرة للوراء، وتتحسر على بعض العادات والتقاليد الجميلة التي انقرضت وانمحت، وابتلعتها المدنيَّة بكل سلبياتها، وأصبح الشباب يستقى ثقافته من التليفون الذكي الذي يحمله بين يديه، ويقضي وقتًا طويلًا معه أكثر مما يقضيه مع أهله وعشيرته وبيته وأصحابه، تقول: كنتُ أرى الشباب قديمًا يجلسون في مجالس كبار القبيلة، ويستمعون لكلامهم ونصائحهم، وعن تراث وأشعار القبيلة، وكنت أرى الاهتمام منهم بالضيوف وعن كل ما يخص عبسًا، للأسف الآن تبدلت هذه العادات والتقاليد، تنظر أمل بحسرة: لقد فرَّقنا الموتُ، لقد غيب الموتُ الوجوهَ الحسنة، أصحاب القلوب الطيبة، والحكماء الحاج رضوان والجدة عيدة والعجائز من نساء القبيلة والشيوخ الذين كنتُ أسعد برؤياهم، واستفيد من حكمتهم.

تشعر أمل بتعب، وأن هذه الزيارة تختلف عن كل الزيارات السابقة، وتشعر كذلك بشوق كبير لحامد، تكاد أن تُبدي وتظهر هذا للناس، تشعر كأنها فتاة عمرها سبعة عشر عامًا تنتظر عريسها حامدًا، سيأتي على حصان أبيض ليخطفها من بين الناس لتعيش معه في الجنة جنة الخلد، لكن الحياء يمنعها أن تبوح بذلك، وتشعر بأن الضغط زاد عليها عندما تذكرت الذكريات الجميلة، وفراق الوجوه التي كانت تحبُّها في هذا المكان.

– سعدية وقد ظهر عليها الكِبرُ: ما بكِ أمل؟! من ساعة وصولكِ وأنت شاردة الذهن!!

– أمل بحسرة: أتحسر يا سعدية على الذكريات الجميلة التي كانت، وفقد الأحبة والعادات الجميلة التي تبدَّلت للأسوأ.

– سعدية بحزن: نعم أمل، تغير الحال، لم تبقَ الدنيا كما كانت، زوجي نافع مات، وأولاد أعمامي الكبار وعمي رضوان والكثير من القبيلة، والأدهى من ذلك فقدنا الروح الجميلة.

– أمل: أشعر والله أنَّ الدنيا قد ضاقت بي هنا وفي القاهرة، وأني أنتظر مكانًا رحبًا أوسع منها، لعله خير، وكذلك أشعر أن حامد يمشي بجواري ويجلس بجانبي، ويأكل معي وينام معي، لا يفارقني لحظة، وأني أتلمَّسه وأراه جميلًا كأنه عريس في ليلة عُرسه.

– سعدية تبتسم: هذا لأنكِ متعلِّقة بحامد جدًّا يا أمل وهو كان يحبكِ، ربنا يجمعكم في الجنة إن شاء الله، والله أنا أكاد أموت على فراق زوجي وأختي سلمى توأم روحي الكبيرة الله يرحمها.

– أمل تتنهد: سلمى كانت حكيمة وتحب الناس، طبعها كطبع حامد الله يرحمهم، أخبار زوجها حسن كيف هو؟

– سعدية: جيد، أولاده قائمين بمصالحه وحاجاته، وابنه الذي يعمل في الكويت جاء عند وفاة أمه ثم سافر لعمله.

– سعدية تقول لأمل: قومي نامي شوية يا أمل، كل الأولاد ناموا من تعب السفر، حاولي تريحي جسدك قليلًا، ونلتقي العصر حتى نستعد لصيام يوم عرفة غدًا.

– أمل تنهض: سأقوم، فعلًا مرهقة من السفر، سلام سعدية.

– سعدية: وعليكم السلام.

– أمل وهي سعيدة: غدًا وقفة عرفات، كل عام وأنتم بخير، وعدكم الله الوقوف بعرفات إن شاء الله.

– الجميع: وأنتِ بخير يا أم سالم، عيد سعيد عليكم.

– صالحة: العام الماضي كنا هناك، زيارة جميلة مليئة بالروحانيات العظيمة، والزيارة الوحيدة التي يتمنى الإنسان منا أن تُكرَّر على الرغم من مشقتها، ابني الباشمهندس محمد عمل لنا جواب زيارة أنا وأبيه، وقضينا معه هناك شهرًا كاملًا، وتمتَّعنا بالحج، وزيارة مسجد الرسول، ولله الحمد.

– أمل: تقبَّل اللهُ، كيف حال ابنك محمد يا صالحة؟

– صالحة مبتسمة: جيد، ترقَّى في عمله، وأصبح مدير فرع في شركة آرامكو؛ لأنه مهندس ناجح، ربي يحفظه.

– أمل: وأخبار زوجته كيف هي؟

– ريم تعمل طبيبة نساء وتوليد في مستشفى في جدة، وقد رزقهم الله بمولود جميل وهم سعداء به، قريبًا في شهر أكتوبر سيكونون هنا إن شاء الله.

– أمل مبتسمة: ربي يحفظهم ويبارك لكِ فيهم، أنتِ متعلمة يا صالحة، ولقد ربَّيتِ أولادك تربية قيمة، ومزجتِ بين القديم من عادات وتقاليد

القبيلة وبين المدنية، وقد حافظتِ على ثقافة الماضي ولم تتركيها بالكلية، ولم تتمرَّدي على الحاضر؛ وهذا يسمى بثقافة التوازن.

– صالحة مبتسمة: أحب حكمتك دكتورة، وكلامك الواقعي الحكيم الذي يعطي للإنسان دفعة للأمام، وكان ابن عمي حامد يفكر هكذا.

– أمل: أشكرك صالحة، أخبار الدكتورة دعاء كيف هي؟

– صالحة: جيدة، لها ستة أشهر ما أتت لزيارتنا، لكنها تتصل تقول: مشغولة في الجامعة، وزوجها الدكتور محمد كذلك، وهم دكاترة في نفس الجامعة بسوهاج.

– أمل: ربنا يسعدها، هي تتصل عليَّ، لكنها منذ شهر لم تتصل بي، قلت: ربما تكون مشغولة بالجامعة والبيت والأولاد، كان الله في عونها.

– صالحة: دعاء طموحة صاحبة إرادة وهمة عالية، لقد ألَّفت كتابًا عن هجرة قبيلة الرشايدة للسودان ومصر، أهدتكِ نسخةً؟

– أمل: نعم، وكانت تستشيرني في بعض فصول الكتاب، وهي متخصِّصة في التاريخ، وكان هذا الكتاب بحثًا ترقَّت به.

– سعدية على الرغم أنها كُبرت لكنها ما زالت فكاهية ذات ضحكة ومرح: (مرات أخوي، أعملِّك ماسكه فيه) ضحك الجميع، وتذكروا نكاتها ومرحها.

– أمل تضحك قليلًا وتهزُّ رأسها: ماسكه فيه سعدية.

– صالحة ضاحكة: بنت عمي سعدية فرفوشة العائلة، حتى أولادها مثلها.

– أمل لصالحة: هل فعلًا تغيَّر شيخ القبيلة يا صالحة؟

– صالحة: نعم، لقد اخترنا الأستاذ جمال أبو غانم من القبيلة، وهو كان محاميًا في شركة سكر نجع حمادي، ومتعلِّم ويحفظ القانون، وعنده حكمة ودراية بثقافة القبيلة وعاداتها، وله علاقات مع شخصيات كثيرة ومهمة، وكذلك مع أهل البلاد المجاورة وبعُمدها، ومركز نجع حمادي وبهجورة؛ فاختير في القبيلة ليكون شيخها؛ لأنه متعلم ودارس للقانون.

– أمل: جميل، أنا أسمع عنه، وعن إنجازاته في الصلح بين الناس، وجلساته في القضاء العرفي في قبيلة الرشايدة.

– سعدية: بصراحة الأستاذ جمال يقف ضدَّ الباطل كثيرًا ويقول الحق، وقد حكم في قضية ابن ابن عمِّه الذي أخذ أموالًا من الناس من القرى التي حولنا بحجة أنه سيسفرهم للخارج ونصب عليهم، لدرجة أن والده حُبِس، لكن الشرطة قالت للأستاذ جمال: أنتَ شيخ القبيلة، ولا بد أن تحلَّ هذه المشكلة وتعطي المتضررين أموالهم؛ فقام الأستاذ جمال ببيع أرض ابن عمِّه، وسدد الأموال للناس حتى خرج ابنُ عمه من الحبس.

– أمل: حكم في منتهى العدل، ولكن أين ذهب الولد؟!

– صالحة: هو كان هاربًا، وترك أباه يواجه الناس وحده.

– أمل بحسرة: هذه نتيجة التربية الخطأ.

– صالحة: هذا الشاب نصب على ناس كثيرين، حتى نحن نصب علينا.

– أمل بحزن: الآباء يُسدِّدون فاتورة أخطاء الأبناء.

– سعدية: مسكين أبوه أصبح على الحديدة، كان يمتلك أرضًا ويزرع ويأكل، الآن لا يمتلك قيراطًا واحدًا بسبب جريمة ابنه.

– صالحة بحسرة: لو يعلم أولادنا كيف وما مقدار حبهم في قلوبنا؟

– أمل: سيعرفون بعدما يتزوج الواحد منهم وينجب، عندما يعرف غلاوة الأولاد.

– سعدية بتنهُّد: بعد متى؟! بعد فوات الأوان، نكون قد كبرنا وهرمنا.

– صالحة: واجبنا نحوهم أن نؤدِّي رسالتنا على أكمل وجه، نربي ونعلم ونصرف ونراعي، ونخاف ونحذر ونحادي ونطبطب ونسأل، واجب لأن هذه مسئولية، وسوف يسألنا اللهُ عنها إذا ضيعناها.

– أمل تؤكد أن كلام صالحة حق: نعم هذه فلسفتي، ومنهجي في الحياة، فعلًا صالحة لا بد أن يفعل الاباء والأمهات ذلك، ويعتبرون أن التربية والرعاية والاهتمام رسالة ومسئولية، لا بد أن نراعي الله في أبنائنا، لذلك سيدنا نوح عليه السلام لم يقصِّر مع ابنه، ولم يدخر الوقت في النصح والإرشاد والاهتمام لآخر لحظة كان يناديه: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾، لذلك نحن لا بد أن نقوم بواجبنا، وننادي أبناءنا، وأن نربِّي ونكبر ونراعي ونهتم ونسأل....

– في لحظة الحديث دخلت الدكتورة دعاء، رحَّبوا بها، وسلم الجميع.

– صالحة: كيف حالك دعاء؟ كنا في سيرتك منذ قليل، جئتِ تقضين إجازة العيد؟

– دعاء بابتسامة عريضة: نعم عمة، وعندما علمت أن الدكتورة أمل هنا جئت مسرعة حتى أسلم عليكم.

– أمل: مرحبًا دكتورتنا الجميلة، أخبارك وأخبار زوجكِ وابنكِ؟

– دعاء: كلنا بخير، ولله الحمد.

– صالحة لدعاء: نحن نتحدث عن تربية الأولاد، نقول: نُربِّي، وفي النهاية يكبر الأولاد ويتزوجون، وكلٌّ يهتمُّ بنفسه وبيته.

– أمل ضاحكة: صالحة لا تصدمي دعاء، ما زالت صغيرة ومتطلعة للحياة.

– دعاء مبتسمة: أنا أعرف هذا، ولكن إذا ربَّى الأبُ أولاده على القرآن والسنة، والخلق والمبادئ القيمة والتربية الإسلامية العظيمة أكيد سوف يعرف الولد قيمة والديه، ويبرهما ويحسن إليهما، ويجني ثمرة طيبة في النهاية.

– أمل: نعم، هذا ما أشار إليه الإسلام، ووضع له أُسسًا تربوية رائعة من قبل أن يولد الولد، باختيار أمه وأبيه على الصلاح، وأرشدنا الإسلام إلى تربية الولد وهو في بطن أمه وعندما يُولد ويكبر، هكذا علمنا الإسلام، وعندما أهملنا القرآن والسنة ضاع الكثيرُ من شبابنا، ولذلك توجد فِرية

منتشرة الآن من الحاقدين على الإسلام ومبادئه العظيمة على الفيس وتويتر والسوشيال ميديا أن التربية الإسلامية تُخرِّج جيلًا إرهابيًّا من الشباب!!

– دعاء ساخرة: كيف ولم يكن المربِّي العظيم سيدنا محمد ﷺ إرهابيًّا!! وهو الذي علمنا السماحة ونشر السلام، هذه فرية أُريد بها الطعن في الإسلام، والطعن في ثوابته الأصيلة السمحة، وبصدقٍ الإرهاب لم يوجد إلا عند مَن أطلقوا هذه الكلمة على الإسلام، وهم يقصدون بتلك الكلمة تشويه تاريخ الإسلام، ولقد قال الرسولُ ﷺ: «**إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ**»، ولقد مدحه ربُّه تعالى فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

لم ينتشر الإسلامُ في مصر وغيرها من ربوع العالم إلا بالأخلاق، ودائمًا أذكِّر طلابي بذلك، وأقول لهم: لا تُصدِّقوا ما ينشره أعداءُ وكارهو الإسلام، إنهم يحقدون علينا، وسبحان الله، على الرغم من كثرتهم ينتشر الإسلام سريعًا، وبسرعة هائلة في أنحاء العالم.

– أمل مبتسمة من كلام دعاء: صحيح دعاء، كلامك منطقي ومؤكّد.

– صالحة: لقد قرأتُ في التاريخ أن الحروب الصليبية كانت متوحِّشة، وفتكت ودمَّرت بلاد الإسلام، ولقد احتلت الدولُ الغربيةُ الدولَ العربيةَ، وأخذت خيراتها ودمرتها أخلاقيًّا وأفسدت وقتلت، ونشروا الرذيلة فيها، وقسمتها لدويلات حتى تستطيع السيطرة عليها، وبثت بينهم الفتن والحروب حتى الآن، وفي النهاية أطلقوا علينا: إرهابيون، كيف؟!!

– دعاء: نعم عمة، ولعلمك يُوجد حُثالة من الكُتَّاب في بعض الدول

العربية يؤيدون أفكار هذا المحتل، يعني مثلًا عندما يدَّعي بعضهم أن الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801) والشام كانت تنويرية بثت النور والحضارة لهذه الدول، كيف وهي كانت مُدمِّرة؟!!

ولقد أباد الفرنسيون الكثير من المصريين وسلبوا الخيرات، ولقد وقف الأزهرُ وطلَّابُه وشيوخه وقفةَ الأبطال، لدرجة لم يستطع أن يبقى الاحتلال في مصر أكثر من ثلاث سنوات.

- أمل: نعم، لقد قرأنا ذلك كثيرًا، وكنتُ أسمع أبي يقول: إن الكثير من المؤرِّخين زوَّروا التاريخ، وكان أبي له مكتبة عامرة بكُتب التاريخ؛ لأنه كان مدرِّسًا لمادة التاريخ، وكان يعشقه ويحكى لنا كثيرًا قصصًا تاريخية، ولقد حكى لي عن قصة الاحتلال الصهيوني لفلسطين، وأن الاحتلال البريطاني له اليد الطُّولى في ذلك، وهم الذين مكَّنوا الصهاينة من بلادنا، وأعطوا الصهاينة أرضنا بمباركة عربية وتأييد منهم حفاظًا على عروشهم ومناصبهم وكراسيهم؛ لذلك قد ضيعوا حق الشعب الفلسطيني وحقوق شعوب كثيرة، واحتل الصهاينةُ القدسَ وما حولها، وكثرت جرائم الصهاينة في بلادنا، ودمَّروا الشباب والقيم، وخربوا فلسطين.

- صالحة: كنتُ أسمع خطب الشيخ عاطف، يتحدث عن أخلاق النبي ﷺ، وأنه أرسى قواعد العدل والمساواة والسماحة، ونشرها قبل كل هذه الحضارات.

- أمل: كيف حاله الآن؟

– سعدية: كبر يا أم عاصم وطلع على المعاش، لكنه ما زال يخطب في مسجدنا حتى الآن تطوُّعًا.

– أمل: ربنا يكرمه كان من أعز أصدقاء حامد، وكان يقول عنه: صديق وزميل، كنا نجلس بجوار بعضنا في المرحلة الابتدائية والإعدادية.

– سعدية متنهِّدة: يوم أن مات أخي حامد لم يستطع أن يخطب شهرًا؛ لأنه كان حزينًا ومريضًا على فراق أخي.

– أمل بتنهُّد: الله يرحم حامد، كان دمث الخلق، أذكركم بصيام يوم عرفة غدًا؛ لأنه كما قال الرسول الكريم: يُكفِّر سنة ماضية، وسنة قادمة إن شاء الله.

– صالحة تسأل دعاء: ما آخر مشاريعك البحثية دعاء؟

– دعاء: الآن على وشك الانتهاء من كتابة بحث تاريخي عن قبيلتي الرشايدة وهجرتها من بلاد نجد والحجاز للسودان ومصر، ولقد توصَّلت بالمراجع إلى أن قبيلة الرشايدة التي تفرقت في أنحاء الوطن العربي هي عبس نفسها؛ لأن عبس بطنٌ من بطون قبيلة غطفان، وقبيلة غطفان من القبائل العريقة ذات المجد التاريخي، وكان لها بطولات عظيمة في الدفاع عن الإسلام، وكل بطون غطفان ذبيان وعبس وأشجع وفزارة وغيرهم كانوا رجالًا وفرسانًا دافعوا عن الإسلام، وخصهم النبيُّ الكريم ﷺ بخصوصيات خلدها التاريخ، مثلًا سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان حافظًا لسرِّ رسول الله ﷺ، وغيره من رجال القبيلة، ولقد دوَّنت في بحثي هذا الذي سوف أقدِّمه لقسم التاريخ في كليتي أن الرشايدة هي عبس بالأدلة

والمراجع، مثلًا وسم الكِفَّة للإبل الموجود عند الرشايدة هو وسم إبل عبس قديمًا، وعندي الكثير من الأدلة على ذلك.

– أمل: جميل يا دكتورة دعاء، الله عليكِ، ممكن تطبعيه كتابًا بعد ذلك.

– دعاء: أكيد طبعًا، لقد اتفقت مع دار نشر على طبعه.

– صالحة لدعاء: النُّسخ لنا يا دعاء.

– دعاء: إن شاء الله يا عمَّة.

– نهضن ليذهبن لبيوتهن ليتسحرن استعدادًا لصيام يوم عرفة غدًا.

– سعدية لأمل: سوف تتسحرين معي أم سالم، وسوف أرسل للأولاد يأتون.

الجميع في بيت سعيد للإفطار يوم عرفة، وكان التجمع تجمعًا أُسريًّا، يسُوده الودُّ والمحبة والسعادة والمرح، وبعد الإفطار ذهب كلٌّ لبيته ليستعدَّ للعيد صباحًا.

أمل تجلس مع أولادها: سالم وزوجته وأولاده، وعاصم وزوجته وابنته، وسلمى وزوجها، الذي أصرَّ أن يقضي العيد في الصعيد مع زوجته وأهلها؛ لأنه يحب هذا المجتمع، ويقول: الناس في الصعيد لا يختلفون عن أهل الشرقية أبدًا، نفس الكرم والترحاب، وبعض العادات والتقاليد متقاربة في القيم ورائحة الريف الطبيعية والمناظر الزراعية الخلابة، وطبيعة البشر الفطرية هي نفسها عندنا.

– أمل ردًّا على كلام مالك: كل العادات والتقاليد متقاربة في مصر، لقد قال لي حامد، وكذلك قرأت كثيرًا أن مصر بها حوالي 70% قبائل عربية مهاجرة من اليمن وبلاد نجد والحجاز عبر التاريخ بسب مكانة مصر الطبيعية والجغرافية، بها النيل شريان الحياة، وكان البدو قديمًا يبحثون عن أماكن الرعي؛ لأن البدوي ثروته غنمه وإبله، فلا بد أن يبحث عن المكان الخصب حتى يرعى غنمه، فعندما جاءوا لمصر جاءوا بعاداتهم وتقاليدهم فعاشت معهم، وأثرَوا اللغة العربية في مصر، والصعيد أكثر جزء في مصر يحتفظ بهذه الموروثات؛ لأن الاستعمار لم يتمركز ولم يتغلل في الجنوب، فاحتفظ الصعيد بموروثه القديم، وكذلك بعض المحافظات في وجه بحري فالعادات والتقاليد متقاربة.

– مالك: نعم ماما، ومن يقرأ التاريخ يعرف ذلك جيدًا، وأيضًا القبائل المهاجرة قدمت لمصر بعاداتها وتقاليدها، وعندما عاشت تأقلمت مع الواقع المجتمعي، فتركت بعض عاداتها وتقاليدها؛ لأن الكثير يؤثِّر في القليل، وهذا أمر طبيعي.

– أمل: نعم مالك، كان يقول لي حامد عندما كنا نأتي لهنا: قبيلة الرشايدة أحدث القبائل المهاجرة لمصر من بلاد نجد والحجاز، ولَقد نزلوا في السودان أولًا ثم انتشروا في السودان ومصر، والذين هاجروا من بلاد نجد والحجاز بعض البطون من الرشايدة عبر ساحل البحر الأحمر من ينبُع وحائل سنة 5781م، لقد انصهر الكثير منهم في المجتمع المصري، وحاولوا أن يُعايشوا الواقع، وتأقلموا مع المجتمع المصري ومع أصحاب البلاد الأصليين، وتخلوا عن بعض عاداتهم وتقاليدهم، وهذا أمر طبيعي.

– مالك: عندنا في محافظة الشرقية عرب كثيرون هاجروا من شبه الجزيرة العربية في بلبيس؛ مثل قبائل الحويطات وجهينة وغيرهم، والبعض منهم يحتفظ ببعض عاداتهم وتقاليدهم حتى الآن.

– أمل: الدكتورة دعاء باحثة في التاريخ، ولها دراسات حول البدو في مصر عظيمة، يا ليت تقرأ لها سوف تستفيد منها في هذا المجال.

– مالك: نعم ماما، سوف آخذ بعض الكتب والمراجع منها؛ لأن هذا المجال شدني جدًّا، وأحب أن أتعمق في تاريخ هجرات القبائل العربية لمصر.

– أمل لسالم: هل أعمامك اتفقوا مع الجزار على ذبح العجل بعد العيد؟

–سالم: طبعًا أمي، لأنهم هم سيضحون مثل كل عام، وبعد الصلاة سيكون كل شيء جاهزًا إن شاء الله.

– أمل: طيب، جهِّز كشف أسماء الذين نوزع لهم اللحمة في كل عيد.

– عاصم: أنا سوف أقوم بتلك المهمة أمي.

– مالك يتحدث مع زوجته: أنا سعيد بوجودي هنا بين هؤلاء الناس من قبيلة الرشايدة سلايل عبس، القبيلة المعروفة تاريخيًّا، ولقد قرأتُ عن عنترة وأحببتُ شعرَه وقصته مع عبلة، وجمالك حبيبتي يذكِّرني بعبلة وشعر عنترة فيها وحبه لها، ولقد تعلق قلبه بها لدرجة الجنون والهيام، وأنا كذلك يا مهجة قلبي.

– عاصم أنصت لحديث مالك لسلمى، وسمع هذه الوشوشة: إحم إحم، نحن هنا.

– سلمى ظهر الحياء على وجهها، فزادها حسنًا وجمالًا، فخجلت.

– أمل تبسمت؛ لأنها لأحظت أن مالكًا يتغزَّل في سلمى، فتذكرت حامدًا عندما كان يغازلها وأبوها وأمها بجوارها، دعت لهما بالسعادة، وتمنَّت من الله أن يُحبِّبهم في بعضهم البعض.

– مالك يلبس الشماخ والجلباب الرشيدي الصعيدي، وهو مُعجَب بهذا الزي المُريح.

– أمل: جميل عليك هذا الزي يا مالك.

– يضحك الجميع يقولون: أصبح شكله رائعًا، لا ينقصه إلا سيف يرقص به.

– مالك وهو سعيد: لبس مُريح يدل على الأصالة والتاريخ، من يوم حضوري هنا والشباب ألبسوني هذا مثل سالم وعاصم، وقالوا: هذا مريح لك.

– سلمى ضاحكة: أصبح زوجي عنترة؛ لأنه يُشبِّهني بعبلة، لكنه لا يقول شعرًا مثل عنترة!!

– الجميع يضحك من كلام سلمى.

– أمل: أخلاق مالك تفوق كل الناس، شهم كريم مثقَّف.

– مالك مبتسمًا من كلام حماته: شكرًا ماما، أنتِ مثال للمرأة الرائعة، وللحماة المحترمة التي ربَّت وعلَّمت ورعت، وأكملت المشوار حتى

خرجت شبابًا متدينًا، حافظًا للقرآن متعلمًا محبًّا لوطنه ولبلاده، يعتز بثقافته وتراثه، لا يتبرَّأ منه ولا يستحي من ذِكره، بل فخورٌ به معتزٌّ بانتماءاته ولقد رأيتُ ذلك بينكم، وعندما زُرتُ قبيلتكم في صعيد مصر وجدته بين الشباب أيضًا، لقد غرستِ هذا فيهم، هذا الحب والانتماء للجذور والأصول بفكر مستنير بين الحاضر والماضي فعلًا شيء جميل، ولقد ندمت كيف لم أتعرف على الصعيد بما فيه من قيم ومبادئ وشهامة وأصول؟ وكان لي زملاء في الجامعة من الصعيد، ولم أندمج معهم ولم أقم بعلاقات قوية معهم؛ لأني كنتُ معتقدًا أن الصعيد مجتمع ثأري متعصِّب للماضي والقبيلة، غير مثقف لا يعرف إلا القتل لما نشاهده في الأفلام ونقرأ عنه في الصحف، لذلك كنتُ متوجسًا قبل قدومي لهنا، قلت في نفسي: كيف يا مالك تذهب للصعيد؟ أكيد ستواجه مشاكل جمَّة، وربما تُختطف، معذرة!! لقد كانت ثقافتنا خاطئة عن هذا المجتمع، لكني وجدتُ غير ما كنتُ أعتقد تمامًا.

– أمل مبتسمة: على فكرة يا مالك أنا كنتُ أعتقد ذلك أيضًا عندما تزوجت حامد، ودار في ذهني نفس هذه الأسئلة تمامًا، وأول زيارة لي منذ 13 سنة كنتُ خائفة وأرتعد، وعندما جئتُ وجدتُ خلاف ذلك، وجدتُ الكرمَ والحب وصفاء القلوب والطبيعة الجميلة والهواء النقي والفطرة وأشياء رائعة جميلة، لدرجة كنا أنا وحامد نقضي إجازتنا هنا، ولم تمر سنة من السنوات بعد موت حامد إلا وأزور الرشايدة ثلاث وأربع مرات في السنة.

– مالك: شكرًا لك أمي الغالية، بصراحة تذكريني بالسيدة أسماء بنت أبي بكر ﷺ زوجة سيدنا الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، لقد وقفت

بجانب زوجها وكانت مكافحة، ترعى بيته وأرضه وفرسه حتى بعد موته وظلت واقفة بعده، وربَّت رجالًا شجعانًا، مثال يُحتذى به، ولقد صبرت وكانت مربية فاضلة، بصراحة أرى ذلك فيكِ مع الفارق حماتي، بصدق الخير موجود في نساء هذه الأمة مثلك ومثل زوجتي الجميلة التي نسخة منكِ صورةً وسمتًا وطبعًا وأخلاقًا، شكرًا على هذه التربية، وهذه الهدية الرائعة.

– سلمى مبتسمة وسعيدة من كلام زوجها: (بس كدا)؟!

– أمل ضاحكة: يكفي دول سلمى، شكرًا لك يا ابني، وأنتَ في مقام سالم وعاصم، وأنتَ زوج الغالية سلمى، وتتنهد تنهيدة عميقة وتقول: لو رأيت حامدًا لم ولن تنساه أبدًا، كان يفوقنا خلقًا وكرمًا.

– مالك: حماتي أكيد كان رجلًا جيدًا كما تقولين، لأنكِ أنتِ محترمة، وكنتِ له نعم الزوجة، ولم تضيعي بيتك بعده على الرغم من مكانتكِ العلمية والوظيفية في الجامعة، لكنك تخليتِ عن كل هذا وعشتِ لبيتكِ وأولادكِ، وشركاته حتى كبرت وأصبحت شركات ذات صيت في الوطن العربي، والآن تجنين ثمار قصة الوفاء والإخلاص على الرغم من آلامها ووهجها لكنكِ صبرتِ، بصدقٍ أنتِ مثال مشرِّف للمرأة المثالية الوفية.

– سالم ينهض متوجهًا لأُمِّه، ويقبل رأسها ويدها: أشكرك أمي، فقام الجميع فقبَّلوا رأسها شاكرين لها.

– أمل أخذتها العَبْرة فبكت، وهم حولها جميعًا يبكون كما بكت: أخشى ألَّا أكون أدَّيت واجبي ورسالتي على أكمل وجه.

– بكى الجميع لبكائها وقالوا: كيف أمنا؟! لقد نسيتِ نفسكِ من أجلنا، ولقد تركتِ الجامعةَ حتى ربيتنا، ونهضتِ بشركات أبي حتى كبرت، كُنتِ نعم الأمُّ والمربية، لقد أكملتِ مشوار أبينا، وحفظنا القرآن وحافظتِ علينا حتى كبرنا وأصبحنا رجال أعمال، وفي مكانة مرموقة ولم تبعدينا عن أهلنا، فالشكر لكِ، أنتِ أمٌّ مثاليَّةٌ حقًّا.

– وهم يحضنون أمهم، دخلت ليلى قادمة من بيت أبيها نافع، وميّ من بيت جدها الحاج رضوان، فوجدتهم يحضنون أمهم ويبكون.

– ليلى باندهاش: ماذا حدث خيرًا؟

– سالم: أمي تبكي تقول: أخشى ألَّا أكون أدَّيت رسالتي كما ينبغي!!

– ميّ تُسرع وتُقبِّل رأسها وتقول: ماما أنتِ أجمل وأعظم أم في الدنيا، وتعلمتُ منكِ الكثير، لقد ظهرت تربيتك في زوجي الغالي سالم، وهذا يدل على تربيتك العظيمة، وتنظر لسالم مبتسمة وتقول: هو عصبي نعم، لكنه حنون جدًّا، ويرجع بعد ثانية.

– ليلى تُقبِّل يدها ورأسها: ربي يحفظك أمي.

– مالك يحاول يلطف الجو: غدًا العيد يا جماعة، اللهم اجعله عيدًا سعيدًا علينا وعلى الأمة الإسلامية.

– سالم وعاصم: هيا بنا حتى ننام، حتى نستيقظ مبكرًا لصلاة العيد.

– سلمى: ممكن تقومي يا ماما لتستريحي.

تجمعت العائلة في بيت سعيد للعشاء، وهذه عادة كان يتخذها الكبار، وحافظت عليها الأجيالُ ليلة عيد الأضحى يتناول الجميعُ العشاء سويًّا الكبار والصغار الرجال والنساء، ثم بعد تناول العشاء يشربون القهوة ويتحدثون.

– مالك لسالم: لقد شاهدتُ اليوم بعض الصفات الجيدة، رأيتُ الوحدة والتجمُّع، والحب والترابط والعلاقات الاجتماعية القوية.

– سالم: يفعلون هذا كل عام وفي العيدين، أتعرف أن قرية عرب الرشايدة هذه عدد سكانها يقرب من سبعة آلاف شخص كلهم أقرباء بعضٍ، يعني لو قلت لك: أخوال أبي وأعمامه.

– مالك: من أجل ذلك متماسكون، بينهم علاقات قوية، لقد رأيتُ اليوم شيئًا لم أرَه في أيِّ بلدٍ، بعد صلاة العيد تعانَقَ الناسُ بقوَّة، وجلسوا يشربون القهوة ويأكلون الرقاق والأرز باللبن، ويضحكون ويرحبون ببعضهم، وبعد صلاة الظهر رأيتُ أن في كل ناحية من البلدة توضع الصواني عليها اللحم ويجلس الناس يأكلون والأطفال سعداء، وكذلك الآن كل عائلة تتناول العشاء مع عائلتها، هذه علاقات اجتماعية جيدة.

– عاصم: هذه عادات وتقاليد القبيلة من قديم، وكنا نرى ذلك ونحن صغار، وحكى لنا أبي عن ذلك وأمي.

– عليٌّ يرحب بزوج سلمى: أهلًا بك أستاذ مالك، أنتَ أصبحت منا؛ لأنك نسيبنا.

– مالك وهو مبتسم: لي الشرف يا عم علي، وسلمى في عيوني.

– علي: تُشكر يا أستاذ مالك.

– أمل توجه كلامها لأبنها سالم: هل أعطيت لحمًا لأصدقاء أبيك كما هو مكتوب في الكشف يا سالم؟

– سالم: نعم أمي، كما هو مكتوب في الكشف.

– أمل: هل أرسلت نصيب تادرس بن لمعي، الذي كان زميل أبيك في الدراسة، وأيضا لبيب بن فكري، وغيرهم من أصدقاء أبيك ببهجورة ونجع حمادي؟

– سالم: نعم أمي، لقد أرسلتُ لهم جميعًا، لقد حمَّلت التروسكل، وذهب ابن ابن عمي أحمد لكل واحد في بيته، لدرجة أنه وجد صديقًا لأبي اسمه صموئيل مات، قلتُ له: ارجع وأعطِه لأولاده، لا نقطع عادة أبي أبدًا.

– أمل تبسمت وسعدت: ربي يبارك فيك ابني، صباح ثالث يوم العيد سنذهب للمقابر نفسي أزور أباك.

– سالم: حاضر أمي، سأخبر أعمامي.

– وهم يتحدثون دخلت عليهم زينب ابنة سعيد، وهي متزوجة من قريب لها من القبيلة، يسكن بلدة تبعد عنهم حوالي خمسة كليو متر في الجبل، دخلت باكية هي وأولادها، فاندهش الجميع، وقامت أمُّها مسرعةً، فحضنتها: ما لِك زينب؟

– حسين طردني من البيت أنا وأولادي.

– سعيد بغضب: هل أصابه الجنون؟! في يوم العيد ترككِ تأتين لوحدكِ في الليل أنتِ وأولادك، وأخذ يضرب كفًّا على كفٍّ، ويقول: فعلًا إنه مجنون.

– أحاط الجميع بزينب، وأخذوا يتكلمون معها ويسألونها: ما الذي حدث بينكِ وبينه؟!

– وهم يتحدثون وزينب تبكي، فجأة دخل عليهم حسين زوج زينب ومعه أبوه.

– استقبلهم سعيد وعلي والجميع ورحبوا بهم، خرج النساء، وبقي الرجال، ودار حديث بينهم.

– سعيد: ماذا حدث بينك وبين زينب يا حسين؟

– حسين بهدوء: شيء بسيط عمي، لكن زينب كبَّرت الموضوع وأحرجتني وقالت لي: الآن، لا بد أن أذهب لبيت أبي، وأترك لك البيت.

– سعيد: طيب، احكِ لي.

– حسين: القصة وما فيها يا عم سعيد أنها مصرة أن تزوركم اليوم، فقلتُ لها: غدًا نقوم بزيارتكم، اليوم نقضيه مع العائلة، فأصرَّت، فزاد الكلام فغضبت وقالت: أنا سأذهب، وأترك لك البيت: فقلت لها: لو خرجتِ من البيت لم ولن تأتي له مرة أخرى، فلم تحترم كلامي وخرجت، وعندما عرف أبي أقسم عليَّ أن نلحق بها، ونحكي لك.

– سعيد بغضب: هي مخطئة في ذلك طبعًا، هذا لا يرضيني، وقدومك أنتَ وأبيك لبيتي شيء كبير، وتشكرون على ذلك.

– والد حسين: يا حاج سعيد نحن أهل وأبناء عمومة، وبيننا نسب، وهؤلاء شباب، ولا بد أن نأخذ على أيديهم، ونبين لهم الأخطاء كما فعل معنا الكبار.

– علي: كلامك صحيح يا حاج، ربنا يستر ويحفظ الشباب.

– سعيد لحسين: يا ابني تشربوا القهوة، وتأخذ أولادك معك.

– والد حسين: لا يا حاج سعيد، دع زينب كما تحب، دعها تجلس معكم يومًا أو يومين، وعندما تحب أن ترجع لزوجها إخوتها يأتون بها.

– حسين زوج زينب: تمام كلامك أبي، كما قال أبي يا عم حسين خلِّيها هي والأولاد.

– سعيد: تُشكرون جدًّا، لقد أخجلتموني، خلاص بكرة آخر النهار تكون في بيتها، نحن في عيد.

– مالك متعجب ومندهش، وكان مركزًا في الحوار: المشكلة انتهت في نص ساعة، ولم تكبر، قائلًا في سرِّه: فعلًا عندما تكون الكلمة للرجال العقلاء تُحلُّ المشاكل بسرعة.

– سالم يوشوش مالكًا: أراك متعجبًا، طالما تكلم الرجال الكبار لا أحد يتكلم بعدهم لا النساء ولا الشباب، وكلام الكبير عندنا كالسيف على الرِّقاب.

أخذت أملُ زينبَ معها للبيت، للتكلم معها وبعض نساء العائلة.

– أمل لزينب بلطف: ما الذي حدث يا زينب بينكِ وبين زوجكِ في يوم العيد والناس سعداء بيوم العيد؟!

– زينب والدموع في عينيها: أنا كنتُ أريد أن أقضي يوم العيد عند أهلي هنا هو رفض، فقلتُ له: سأترك لك البيت وأخرج أنا والأولاد، وركبتُ توكتوك، وجئتُ حتى أُعيِّد على أُمِّي وأبي.

– أم زينب: أنا قلت لكِ قبل ذلك يا زينب: الرجل له مقامه في البيت يا بنتي يجب أن تنفذ كلمته، عقّليها يا أم سالم.

– أمل بلطف: زينب حبيبتي، أمكِ سيدة طيبة وتحب مصلحتك حتى تعيشي سعيدة مع زوجكِ وأولادك، ولقد أحرجتِ والدك أمام الناس.

أولًا: أنت مخطئة زينب، زوجكِ لم يرفض أن تأتي لأهلكِ، وقال لكِ: غدًا نذهبُ أنا وأنتِ، فأنتِ استعجلتِ، والموضوع بسيط ولا يحتاج لكل هذا.

ربما زينب زوجك نفسه يقضي أوَّل يوم العيد معكِ ومع الأولاد وعائلته.

– زينب تنصت لأمل وأمها، ولا تزال الدموع في عينيها: لكنه شخط فيَّ، وقال: لو خرجتي من البيت لا ترجعي له مرة أخرى، هذا يدل على أنه لا يريدني.

– أمل: زينب، الرجل يحب أن تسمع زوجته كلامه، ولقد أحرجتِه وأغضبتهِ، والرجل لا يحبُّ العند وبالأخص من زوجته، لو صبرتي وسمعتي

كلامه، وجلستي معه جلسة صفاء، وفتحتي الموضوع مرة أخرى ربما يكون أفضل من ذلك.

– صالحة: بنات اليوم لا أعرف متسرعات، يأخذن القرار بسرعة، بصراحة زينب أنتِ تسرَّعتِ، كنتُ أودُّ منكِ لو صبرتي قليلًا، ولقد جاء زوجكِ خلفكِ هو وأبوه، وأكيد ابن عمي سعيد طيب خاطرهم، لأني أعرف ابن عمي رجل كريم، زينب حبيبتي المرأة بيتها وزوجها هم أهلها وحياتها ومملكتها، ليس مشكلة غدًا تأتين تعيدين علينا، ما الفرق بين اليوم وغدًا؟!! بيتكِ أَوْلى من أي شيء وزوجكِ وأولادك، وأعلم أن حسين جدع، ويحب بيته وأولاده.

– أم زينب بغضب: والله الجيل تغير، فغير كل شيء رأسًا على عقب.

– أمل: الكلام للجميع؛ زينب وسلمى وميّ وليلى ودعاء والكثير من النساء: الذي يخرِّب البيوت ويُكثر الضغينة بين الزوج والزوجة العند و(نشفان الرأس)، وتفضيل الزوجة أهلها على أهل زوجها؛ لأن بعض الزوجات لا يحترمن أهل الزوج، وتريد من زوجها أن يحترم أهلها فكيف؟!!

– وهن يتحدثن دخل سعيد والغضب على وجهه: يا زينب، أنتِ مخطئة، وأنا أكلمكِ أمام أمك وزوجة عمك وعماتك وبنات عمك، أول مرة وآخر مرة هذا يحدث، أنتِ اتصلتي بنا بالتليفون في العيد، وهذا يكفي، وقال لكِ زوجك: بكرة نذهب سويًّا لأهلكِ، أظن أنه لم يخطئ، والمصيبة أنكِ أصرِّيتي على الخروج من بيتكِ، وهذا عيب كبير، ويُشكَر والده أنه جاء به، وأخذني

جانبًا وحكى بعض الأمور، وسوف أحكيها لأمكِ تضبطها معكِ، وبكرة إن شاء الله بعد المغرب أنا وأخوكِ سوف نوصلكِ لبيتكِ، وهذا آخر كلام عندي، حاولي أن تُغيِّري من نفسك.

– أم زينب، والحزن على وجهها: يا بنتي الواحدة منا ليس لها إلا بيتها.

– أمل: شكرًا يا أبو زينب على ما فعلت، أنا سوف أقول لسالم يذهب معك بالسيارة إن شاء الله.

– سعيد: تمام يا أم سالم، يلا سلام عليكم.

– أم زينب: يا بنتي أنتِ عارفة أبوكِ، لو قال كلام ينفذ، لازم يا بنتي تشوفي مصلحتك، وتصلحي أوضاعك مع زوجكِ، وتصلحي من نفسك، بكرة لما تذهبي لبيتكِ تستقبلي زوجك بوجه ضحكوك وبشوش، تُنسيه كل هذا.

– زينب: حاضر يا أمي.

– دعاء: والله الراجل لو وجد من زوجته حنِّيّة ينسى كل شيء، آه منا نحن النسوان لو حبينا نفعل نفعل الأعاجيب، بس البسي يا زينب وغيَّري الجو بكرة تلاقيه نسي نفسه ونسي كل شيء.

– الجميع يضحك من كلام دعاء، ويقلن: صحيح يا دعاء.

– صالحة: الواحدة منا لو تريد الذي في جيب زوجها لا تخرجه بالقوة بل بالسياسة (والدهلسة)، هههه تضحك، عارفين (الدهلسة) يا بنات كلكم عرفين إلا الذين هم من القاهرة، الدهلسة يعني....

يضحكن جميعًا من توضيح صالحة لكلمة (الدهلسة).

– أمل: يا زينب عليكِ بالدهلسة مثلما قالت عمتك صالحة.

دخل سالم وعاصم ومالك، سالم يلقي السلام، يرد الجميع.

– أمل لسالم: ثالث يوم العيد سوف أذهب لأبيك سالم.

– سالم: حاضر أمي، قلت لأعمامي وقالوا: حاضر، أنا سأذهب أتفسح غدًا مع الشباب أنا ومالك وعاصم في نجع حمادي، ونقضي اليوم هناك إن شاء الله.

– أمل تهز رأسها: طيب خير، لأن عمك سالم وحماك وحماتك جنات غدًا قادمون من القاهرة إن شاء الله.

– سالم: تمام أمي، أنا غدًا في العصر سأكون هنا إن شاء الله.

جاء الكثير من الرشايدة يسلمون على الأستاذ سالم وزوج ابنته في جلسة عائلية يشربون القهوة، ويتحدث سالم مع أهله وعشيرته وأصدقائه في ديوان العائلة.

النساء يجلسن في فناء بيت عائلة حامد يتحدثن، وفي آخر السهرة دخل الأستاذ سالم وزوج ابنته جنات، وجاء عاصم ومالك وسالم وسعيد وعلي والكثير من شباب القبيلة أصدقاء سالم وعاصم ليسلموا على الدكتورة أمل.

– أمل: نوَّرت الدنيا أستاذ سالم.

– الأستاذ سالم وقد ظهرت عليه الشيخوخة بتنهُّد: أيام يا أم عاصم، ربنا يحسن خاتمتنا، دنيا لا تجعل الراكب راكب ولا الماشي ماشي، ذات تقلب.

– جنات: ربنا يديك الصحة والعافية أبي، ويحفظك.

– أمل: ربنا يبارك فيك أستاذ سالم، أنتَ ما زلت شابًّا.

– الأستاذ سالم يضحك: شابّ؟ ألا ليت الشبابَ يعوُد يومًا فأخبره بما فعل المشيبُ!! أين الشباب أم سالم؟!!

– سالم لعمِّه الأستاذ سالم: ما زلت شابًّا يا عم، ربي يعطيك الصحة.

– أمل تتكلم مع الشباب: كيفكم يا شباب؟ أنا معجبة بما تفعلونه على النِّت من جروبات وعلى الفيس وسناب وتويتر، وأنا أتابعكم، جميل أنكم تتواصلون مع أهلكم من القبيلة في جميع أنحاء الوطن العربي، لقد قرَّب الواتس والفيس البعيد، وجمع القبيلة كأنها في قرية واحدة.

– أحد الشباب: نحن نحاول أن نتعرف على أهلنا من رشايدة السودان من الشباب، وكذلك في السعودية والكويت وكل البلاد حتى نتعرف عليهم؛ لأن القبيلة هاجرت في أواخر القرن التاسع عشر من نجد والحجاز لبلاد عربية شتَّى، لذلك نتجمَّع على الواتس والفيس نتعارف، ولنُعرِّف الأجيال تاريخ أجدادهم.

– الأستاذ سالم موجهًا كلامه للشباب: الواتس والفيس وتويتر مفيد لو

استخدمناه استخدامًا صحيحًا، أشكركم أنكم فعلتم ما لم نفعله نحن، لقد سافر عمي سالم والد حامد في ستينيات القرن الماضي لأولاد عمِّه في عطبرة في السودان، وكنُّا نراسلهم، ولكن انقطع الجميع بعد ذلك بعد موت عمي والكبار، وبفضلكم والنت عادت العلاقات مرة أخرى وبكل الأهل في جميع البلاد العربية، أشكركم.

– أحد الشباب: طبعًا أنتم الذين وضعتم الأساس يا عم سالم ونحن بكم، ومن لم يعرف ماضيه لا يعرف حاضره، ونشكر سالم حامد ومجهوداته الكريمة التي يقوم بها بضيافة بعض رجال القبيلة من أنحاء الوطن العربي في القاهرة، ورعايته للاحتفال بأبي الفوارس عنترة بدار الأوبرا بالقاهرة.

– أمل: البداوة ومظاهرها والصحراء والرعي والعادات القديمة بدأت تتلاشى الآن، لكن أجد ثقافة البادية مسيطرة، وهي إعادة الماضي بثوب لحاضر ليناسب المدنية؛ ليعرف الشباب تاريخه وثقافته وماضيه، لأنه يوجد بعض الشباب الآن يرفض الماضي، وهذا خطأ كبير.

– عاصم: أنا أرفض سلبيات الماضي الذي لا يتناسب معي حاضرًا ويعوقني عن التقدم، أرفض الماضي الذي يخالف ديني وعقلي والمنطق، أنا أنظر للماضي بعين الحاضر، وآخذ ما يُناسبني منه.

– الأستاذ سالم: كلامك جيد يا عاصم وفي الصميم، نأخذ ما يناسبنا منه ولا نرفضه جملة وتفصيلًا، مثلًا القبيلة لها عادات وتقاليد جميلة ورائعة، لماذا لا نُحييها مثل الكرم والشجاعة والفخر بمآثر الأجداد، والشعر والتراث الشعبي والفلكلور واللهجة الرشيدية ونحافظ عليها؟!!

– سالم: نعم يا عم، كلامك منطقي وواقعي، وأنا الآن أدعم بعض الكُتَّاب والشعراء من القبيلة، وأساعدهم لتوثيق وطبع كتبهم التاريخية عن القبيلة؛ لحفظ تراث قبيلة الرشايدة سلايل عبس، وليكون لهم اسمٌ في المنتديات الثقافية والمحافل الأدبية في مصر وأنحاء الوطن العربي.

– الأستاذ سالم مبتسمًا: جميل، لقد كان أبوك يريد أن يقوم بهذا الدور، وفعلًا كان يستضيف الكثير من أدباء ومؤرِّخي القبيلة، وكان يدعمهم معنويًّا وماديًّا، البركة فيك يا سالم.

– أحد الشباب: نحن نتواجد في قصور ثقافة الصعيد ونوادي الأدب، وعلى الفيس والمواقع لنعرض ثقافتنا الرشيدية وثقافة البادية، ونعتز بذلك.

– أمل: بصراحة لقد اختفت بعض العادات والتقاليد السيئة في القبيلة التي تخالف الدين والشرع والعقل، مثل (القَرْع)، وجواز البنت من ابن عمها غصبًا، وإن كان يوجد بعض الشوائب منها، لكنها انتهت بسبب انتشار التعليم والمدنية، ومعرفة الدين الصحيح، لكني سعيدة عندما أرى الشباب متماسكًا ومتضامنًا، ومتحابِّين متآخين معتزِّين بثقافتهم، وتراثهم الرشيدي الجميل، محافظين على عاداتهم وتقاليدهم.

جلست أمل مع أولادها، وتحدثت معهم قبل أن تنام في أمور الحياة.

– أمل لسالم وعاصم: أولادي، سنزور أباكم صباح غدٍ؛ لأني أشعر بشوقٍ شديد لزيارته، والسلام عليه وحشني جدًّا. سالم، أنتَ أكبر إخوتك،

يا ليت يا ابني تكون حنونًا مع إخوتك، قريبًا منهم، وتكونوا متحابِّين، وإياك والظلم؛ لأني أمقتُ الظلم؛ لأنه يعود على صاحبه في النهاية، قرأتُ قصة قديمًا، ولا تزال هذه القصة عالقة بذهني، فيها عِبر وقِيم، اسمُها: (مكيالك يُكال لكَ به).

رجل فقير زوجته تصنع الزُّبدة، وهو يبيعها في المدينة لإحدى البقالات،

وكانت الزوجة تعمل الزبدة على شكل كُرة وزنها كيلو، وهو يبيعها لصاحب البقالة، ويشتري بثمنها حاجات البيت.

وفي أحد الأيام شكَّ صاحبُ المحل في الوزن؛

فوزن كرة من كرات الزبدة، فوجدها ٩٠٠ جرام،

فغضب من الفقير.

وعندما حضر الفقيرُ في اليوم التالي قابله بغضب،

وقال له: لن أشتري منك يا غشاش، تبيعني الزبدة على أنها كيلو،

ولكنها أقل من الكيلو بمائة جرام!!

حينها حزن الفقير، ونكس رأسه،

ثم قال: نحن يا سيدي لا نملك ميزانًا،

ولكني اشتريتُ منك كيلو من السكر، وجعلتُه لي مثقالًا كي أزِنَ به الزبدة!!

يعني يا ابني كما تدين تدان ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، فعليك بفعل الخير كثيرًا أنتَ وإخوتك، واقترِب من إخوتك كثيرًا يا سالم.

– سالم مندهش من كلام أُمِّه، أوَّل مرة يسمعها تكلمه بهذه الطريقة: أُمِّي، ربنا يُعطيكِ الصحة وطول العُمر، لا تقلقي يا أمي، سنكون كما تحبين إن شاء الله.

– عاصم يقترب من أُمِّه، ويحضنها حضنًا قويًّا، ويقبِّل رأسها: ربنا يخليكِ لنا أمي، ويبارك فيكِ.

– أمل تبكي وتنظر لهم: نفسي أن تكونوا عصا ناشفة قوية، أو صخرة صلبة ضد الباطل وهذه التيارات الفاسدة المنحرفة، وتحبوا بلدكم وعملكم، وأحبُّوا الناس، وابنوا ثرواتكم من الحلال، وعليكم بكل أمر نافع ومفيد؛ لأن الدنيا ذات تقلُّب أصبح هذا الزمن مليئًا بالانحرافات التي تخالف الدِّين والعقل والمنطق والعادات والتقاليد التي تربينا عليها، أبنائي اعلموا المتروك لله مضمون، لم ولن يضيع، كان أبوكم يقول لي ذلك، وهذه حكمتي التي عشتُ بها وعليها.

– سالم وعاصم: تمام أمنا.

– أمل تهم بالوقوف تريد أن تذهب لحجرتها، تقول: نلتقي صباحًا حتى نذهب لزيارة أبيكم، وتوصيهم: استيقِظوا مبكرًا يا أولاد، حتى نذهب بدري لقبر أبيكم، سلام يا حبايبي، وقبَّلت سالمًا وعاصمًا، ودخلت حجرتها.

قبل أن تنام توضأت وصلَّت ركعتين، ووضعت رأسها على الوسادة، ولكنها شردت بذهنها بعيدًا، وتذكرت حامدًا والذكريات، وكل ما حدث في عمرها كأنه شريط مسجَّل بالصوت والصورة، وأخذت تقول: حامد،

أشعر أني أريد أن أعانقك، وأرتمي بين أحضانك، أرغب أن أعانقك، اثنا عشر عامًا تركتني يا حامد، أشعر بالرغبة والاشتياق إليك بقوة، أحتاجُ لحضنك الدافئ الحنون الرقيق.

حامدٌ يرتدي ثوبًا أبيض، متعطِّر بعطر لم تشم مثله قبل ذلك نفَّاذ الرائحة، ولقد جذبها حامدٌ بجماله وروعته كأنه عريس في ليلة عُرسه، اقترب منها، حضنها حُضنَ المشتاق القادم من الغربة، ضمَّته لصدرها بقوَّة: حامد، لا تتركني لوحدي مرة أخرى، لقد سئمتُ الحياة بدونك، قتلني فراقك، لا ترجع، خُذني معك لحضنك، عانقني بقوَّة، خُذني لعالَمك الجميل الرائع، أرجوك لا تتركني، أشعُر أنك تعيش في عالم يختلف عن هذا العالم، عالم جميل بمعنى الكلمة، خذني معك، لا تُفارقني، لا تتركني أقاسي ألم الدنيا ومُنغِّصاتها وخلافاتها وتقلباتها، تقول هذا وهي تبكي في حضنه.

لا يردُّ، يبتسم ويشير برأسه: نعم، وأدخل يده في جيبه وأخرج المفتاح الذي رأته أمل أكثر من مرة في المنام فضيًّا يشعُّ نورًا وأعطاه لها، فأمسكته ووضعته على صدرها، شعرت أنها تسبح في ملكوت السماء، كأنها فراشة بين الزهور البديعة، أصبحت كأنها صبية صغيرة السنِّ، جميلة فرحة بلقاء

زوجها، سعيدة وهي في حضنه، وفي يدها المفتاح الفضيُّ، نوره يشعُّ ملأ حياتها نورًا والحجرة وكل ما حولها.

فجأة استيقظت على صوت أذان الفجر: الصلاة خير من النوم، تُقبِّل يدها وتقول بلهفة: المفتاح أين؟! تنظر في يدها لا تجدُ شيئًا، لكن صدرها منشرح، وجهها مشرق، سعيدة جدًّا، تمنَّت لو تأخَّر أذانُ الفجر لتتمتَّع بلقاء زوجها وتسعد بحضنه أكثر وأكثر، بقيت دقائق مندهشة وسعيدة، تقول في نفسها: أوَّل مرة أتمكَّن من رؤية المفتاح، يا ترى ماذا سيحدث؟ لا أدري، اطمأنَّت أنه خير؛ لأن صدرها منشرح، وتشعر كأنها يمامة تُحلِّق في السماء العالية، تشعر كأنها تسبح في نورٍ، وبين البساتين والورود.

قامت فتوضأت وصلَّت الفجر، وجلست تقول الأذكار، وتدعو الله حتى نامت مكانها على سجادتها.

– من عادة أمل عندما تكون في الصعيد عند أهل حامد تستيقظ مبكرًا، وتخرج لتساعد النساء الخبيز والطبيخ، لكنها في ذلك اليوم تأخَّرت للتاسعة والنصف صباحًا، فقلقت عليها سعديةُ، فذهبت لبيت أمل لتطمئنَّ عليها، فطرقت البابَ بشدة، لم تفتح أملُ الباب، فجاء عاصمٌ قلقًا من شدَّة طرق الباب، رأى عمته سعدية، مندهشًا والنوم في عينيه.

– عاصم: ماذا حدث يا عمَّة؟! تطرقين الباب بقوة!!

– سعدية بقلق: أمك كل صباح تخرج لنا مبكرًا، فاليوم تأخَّرَت كثيرًا، ورنِّيت عليها بالموبايل لا ترد، قَلِقتُ.

– عاصم: سأرى يا عمَّة، دخل عاصم حجرة أُمِّه فوجدها نائمة على المصلَّاة، حاول يوقظها فلم تتحرك ولم تردَّ؛ فصرخ صرخة عالية: أمي، أمي لا تتحرك يا عمَّة، فسمع صرختَه الجميعُ؛ لأنه كان رافعًا صوته. تجمع الجميعُ، واللهفة تكسو وجوههم، ومنهم مَن يصرخ، ومنهم مَن ينتحب بصوت عالٍ جدًّا.

– سالم يبكي بحُرقة شديدة ويقول: ستذهبين لأبي يا أمي كما أردتِ لكن بطريقة تختلف، الوداع يا أعز وأغلى أُمٍّ.

– وسلمى تصرخ، وزوجها مالك يحتضنها ويبكي، وعاصم كاد يفقد وعيه.

– سعدية: ماتت أمل، طيبة القلب، الحنونة.

– الأستاذ سالم بكى بكاءً شديدًا، وتذكَّرَ الأيامَ والعِشرةَ عندما كانت أمل تذهب للشركة، وتعامله بكرم، وكذلك معاملتها للموظفين.

وهو يبكي: لي نصيب أراكِ يا أم سالم قبل أن تفارقي الدنيا، يااااه يا حكمة ربنا!!

– الحزن يُخيِّم على البلدة، حتى الشجر حزين على فراق أمل، والطير يكاد يبكي، ذبُل الورد في الحديقة التي كانت تجلس فيها أمل، الكل حزين. تجمَّع النساءُ والرِّجال يودِّعون أمل، والكثير يقول: سبحان الله، جاءت لتموت هنا، حتى تدُفن مع زوجها الذي أحبَّته وأخلصَتْ له، يا لها من قصةٍ ذات عِبر!!

عن المؤلف

سيد الرشيدي

كاتب وروائي وشاعر، وباحث في تراث البادية المصرية

صدر له:

1- كان حُلمًا ديوان شعر وخواطر.

2- خالتي حميدة رواية.

3- حكايات من الصعيد مجموعة قصصية.

4- صديق النخلة رواية.

5- كتاب خواطر قلم.

6- الناي يتحدث مجموعة قصصية.

7- كتاب هل تريد بيتًا في الجنة؟

8- كتاب صلاة الملائكة على المؤمنين.

9- من فن البادية (عرب بوادي شعر من البادية).

10- مسرحية (تاج إبليس).

11- كتاب قبيلة الرشايدة في مصر.

12- كتاب شبهات وأباطيل والرد عليها

13- نسيم النيل وأشواقي شعر وخواطر.

14- أنا غرس القبيلة ديوان شعر وخواطر.

15- كتاب العروس المنتظرة عن الحور العين.

- عضو نشط وفعَّال في الندوات والمنتديات الأدبية.

- وعضو باتحاد كُتَّاب مصر.

- وعضو بنادي أدب الجيزة المركزي.

-عضو في رابطة الأدب الإسلامي العالمية

-عضو رابطة الأدب الحديث(أبولو سابقاً)

- سيد أحمد عبيد أحمد (سيد الرشيدي)

عطاوي
للإنتاج الفني